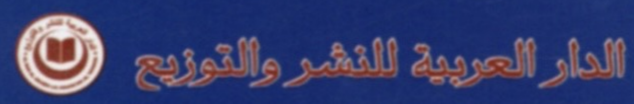
علاقات
دولة الفونج ببلاد العرب

إعداد
جوليت عدلي غابيوس





علاقات
دولة الفونج ببلاد العرب

علاقات
دولة الفونج ببلاد العرب

إعـــداد

جـــوليت عدلي غـابيوس

الطبعة الأولي

2009



الدار العربية للنشر والتوزيع

حقوق النشر

اسم الكتـــاب : علاقات دولة الفونج ببلاد العرب
اســم المؤلف : جـوليت عدلي غابيوس
رقــم الإيداع : ٢٠٠٨/١٣٠٢٤
الترقيم الدولى : 9-325-258-977
الطبعـة الأولى : 2009

حقوق النشر محفوظة
للدار العـربية للنشر والتـوزيع
32 شارع عباس العقاد – مدينة نصر
جمهورية مصر العربية – القاهرة

تليفون : 22753335
فاكس : 22753388

مقدمة الناشر

يتزايد الاهتمام باللغة العربية فى بلادنا يوماً بعد يوم. ولا شك أنه فى الغد القريب ستستعيد اللغة العربية هيبتها التى طالما امتهنت وأذلت من أبنائها وغير أبنائها. ولا ريب فى أن امتهان لغة أية أمة من الأمم هو إذلال ثقافى فكرى للأمة نفسها، الأمر الذى يتطلب تضافر جهود أبناء الأمة رجالاً ونساءً طلاباً وطالبات، علماء ومثقفين مفكرين وسياسيين فى سبيل جعل لغة العروبة تحتل مكانتها اللائقة التى اعترف المجتمع الدولى بها لغة عمل فى منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها فى أنحاء العالم لأنها لغة أمة ذات حضارة عريقة استوعبت – فيما مضى– علوم الأمم الأخرى وصهرتها فى بوتقتها اللغوية والفكرية، فكانت لغة العلوم والأدب، ولغة الفكر والكتابة والخاطبة.

إن الفضل فى التقدم العلمى الذى تنعم به أوروبا اليوم يرجع فى واقعه إلى الصحوة العلمية فى الترجمة التى عاشتها فى القرون الوسطى. فقد كانت المرجع الوحيد للعلوم الطبية والعلمية والاجتماعية هو الكتب المترجمة عن اللغة العربية لابن سينا وابن الهيثم والفارابى وابن خلدون وغيرهم من عمالقة العرب، ولم ينكر الأوروبيون ذلك، بل يسجل تاريخهم ما ترجموه عن حضارة الفراعنة والعرب والإغريق، وهذا يشهد بأن اللغة العربية كانت مطواعة للعلوم والتدريس والتأليف، وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجد من علوم، وأن غيرها ليس بأدق منها، ولا أقدر على التعبير.

ولكن ما أصاب الأمة من مصائب وجمود بدأ مع نهاية عصر الوجود التركى، ثم الاستعمار البريطانى والفرنسى مما عاق اللغة عن النمو والتطور، وأبعدها عن العلم والحضارة ولكن عندما أحس العرب بأن حياتهم لابد من أن تتغير، وأن جمودهم لابد أن تدب فيه الحياة، اندفع الرواد من اللغويين والأدباء والعلماء نحو إنماء اللغة وتطويرها حتى أن مدرسة قصر العينى فى القاهرة، والجامعة الأمريكية فى بيروت درستا الطب بالعربية أول إنشائهما. ولو تصفحنا الكتب التى أُلفت أو تُرجمت يوم كان الطب يدرس فيها باللغة العربية لوجدناها كتباً ممتازة لا تقل جودة عن مثيلاتها من كتب الغرب فى ذلك الحين، سواء فى الطبع، أو حسن التعبير، أو براعة الإيضاح، ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربية فيما بعد، وسادت لغة المستعمر. وفُرضت على أبناء الأمة فرضاً، إذ رأى المستعمر أن فى خنق اللغة العربية مجالاً لعرقلة الأمة العربية.

وبالرغم من المقاومة العنيفة التى قابلها، إلا أنه كان بين المواطنين صنائع سبقوا الأجنبى فيما يتطلع إليه، فتفننوا فى أساليب التملق له اكتساباً لمرضاته، ورجال تأثروا بحملات المستعمر الظالمة، يشككون فى قدرة اللغة على استيعاب الحضارة الجديدة، وغاب عنهم ما قاله الحاكم الفرنسى لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا وانشروها حتى نحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر، فقد حكمناها حقيقة".

فهل لى أن أوجه نداءً إلى جميع حكومات الدول العربية بأن تبادر- فى أسرع وقت ممكن- إلى اتخاذ التدابير، والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس فى جميع مراحل التعليم العام والمهنى والجامعى، مع العناية الكافية باللغات الأجنبية فى مختلف مراحل التعليم لتكون وسيلة الإطلاع على تطور العلم والثقافة والانفتاح على العالم. وكلنا ثقة فى إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب، نظراً لأن استعمال اللغة القومية في التدريس ييسر على الطالب سرعة الفهم دون عائق لغوى وبذلك تزداد حصيلته الدراسية، ويرتفع بمستواه العلمى، وذلك يعتبر تأصيلاً للفكر العلمى فى البلاد، وتمكيناً للغة القومية من الازدهار والقيام بدورها فى التعبير عن حاجات المجتمع، وألفاظ ومصطلحات الحضارة والعلوم.

ولا يغيب عن حكوماتنا العربية أن حركة التعريب تسير متباطئة، أو تكاد تتوقف بل تحارب أحياناً ممن يشغلون بعض الوظائف القيادية فى سلك التعليم والجامعات ممن ترك الاستعمار فى نفوسهم عقداً وأمراضاً، رغم أنهم يعلمون أن جامعات إسرائيل قد ترجمت العلوم التطبيقية الحديثة إلى اللغة العبرية وعدد من يتخاطب بها فى العالم لا يزيد عن خمسة عشر مليون يهوديًا، كما أنه من خلال زياراتى لبعض الدول واطلاعى على مناهجها الدراسية وجدت كل أمة من الأمم تدرس بلغتها القومية مختلف فروع العلوم والآدب والتقنية كاليابان، وإسبانيا، وألمانيا، ودول أمريكا اللاتينية، ولم تشك أمة من هذه الأمم فى قدرة لغتها على تغطية العلوم الحديثة، فهل أمة العرب أقل شأناً من غيرها ؟!.

وأخيراً .. وتماشياً مع أهداف الدار العربية للنشر والتوزيع، وتحقيقاً لأغراضها فى تدعيم الإنتاج العلمى باللغة العربية، وتشجيع العلماء والباحثين فى إعادة مناهج التفكير العلمى وطرائقة إلى رحاب لغتنا الشريفة تقوم الدار بنشر هذا الكتاب المتميز الذى يعتبر واحداً من ضمن ما نشرته – وستقوم بنشرة – الدار من الكتب العربية التى قام بتأليفها أو ترجمتها نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المختلفة.

وبهذا ... ننفذ عهداً قطعناه على المضى قدما فيما أردناه من خدمة لغة الوحى وفيما أراده الله تعالى لنا من جهادٍ فيها.

وقد صدق الله العظيم حينما قال فى كتابة الكريم ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (106) ﴾ " سورة التوبة الآية "

محمد أحمد دربالة
الدار العربية للنشر والتوزيع

الموضوع | الصفحة

المحـــتويات

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس
الدور المصرى الحجازى فى النهضة العلمية

الفصل السادس
العلاقات التجارية

((المقـــدمة))

علاقـــات دولة الفـــونج ببـــلاد العـــرب

– حـــدود الكـــتاب :

دراسة علاقات الفونج ببلاد العرب بكل جوانبها (1505–1821م) وما نتج عـــن هذه العلاقات من أثار ثقافية وحضارية ونشاط اقتصادى وعادات وتقاليد وغيرها وتتبع هذه العلاقات حتى قيام الفتح التركى المصرى.

– أهـداف وأهمـــية الكتـــاب:

هذا الكتاب له أهمية كبيرة فى نظر المؤلف؛ لأنه يخص العلاقـــات بـــين بـــلاد السودان وبلاد العرب التى عن طريقها دخل الإسلام فى بلاد السودان واعتنقته ممالك السودان آنذاك (النوبة والبجة) وتبعته اللغة العربية جنبا إلى جنب .

العلاقات بين السودان وبلاد العرب ساهمت فى صنع نمط حضارى لسودان وادى النيل فتلاقح الثقافات ثم تمازج الأعراق هذا التمازج الذى يمثل العقـــل الـــذى حملتـــه الثقافة العربية والإسلامية فى كنفها عند مجيئها للسودان ليتمازج مع العقـــل المحلـــى المسيحى وما قبل المسيحى فهذه واحدة من اكبر عمليات التمازج التى شهدها السودان فى تاريخه وكانت نتيجتها نشوء أولى هذه الممالك الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك نـــتج عن هذا التمازج عناصر هجينه كونت قبائل جديدة ذات أصول عربية ضمن النســـيج الاجتماعى لقبائل السودان.

لقد كان واضحا اثر تلك الهجرات فى عادات وتقاليد المجتمع رغم إنهم لم يـــأتوا فاتحين لإقامة دولة بل كانت هجراتهم كإفراد وجماعات تنشد الرزق والأمن ونتيجـــة لهذا التلاحم عرف أهل السودان اللغة العربية لغة القرآن.

تتبع أهمية هذا الكتاب فى إلقاء الضوء على أحدى جذور المعرفة الإنسانية من حيث تتبع الأصل وكيفية علاقات الفونج ببلاد العرب ومعرفة أشكال هذا العلاقات وتطورها للكشف عن أحداث التاريخ وتتبع التسلسل وتدوين الأحداث وتوثيقها. كل ذلك لان هذه العلاقات تختلف باختلاف الزمان والمكان ولكل قبيلة عربية ظروفها وبالتالى أسبابها للهجرة لبلاد السودان لابد لنا من معرفة الظروف والأسباب بالدراسة.

يعد هذا الكتاب مهما لأنه يدرس علاقة متميزة بين تلك القبائل العربية الإسلامية التى تدفقت على السودان فى تلك الفترة والتى كانت تعتنق الإسلام بينما كانت بلاد النوبة تدين بالمسيحية.

تأتى أهمية هذا الكتاب فى إبراز الدور الذى لعبه العرب المسلمون فى إنشاء هذه السلطنة إذ أنها تمثل نهضة العرب الإسلامية خاصة أنها قامت فى وقت زالت فيه أعظم الدول العربية الإسلامية آنذاك (الأندلس).

رغم أهمية هذه العلاقات لم تجد اهتماما كافيا من الباحثين لهذا أردت إن تكون عنوانا لهذه الدراسة بغرض البحث فيها لما لها من أثار على شمال وشرق ووسط السودان.

إلا أن مرحلة التاريخ النوبى تعترضها صعوبات أدركها الباحثون الذين حاولوا إن يلقوا بعض الضوء على هذا التاريخ الطويل ومنشأ هذه الصعوبات ضياع معظم الآثار التى خلفها عهد الممالك المسيحية فى النوبة وقلة الآثار التى خلفها المسلمون فى بلاد السودان، الذى رغم ما كتب فيها وما نشر حولها من أبحاث فى حاجة إلى المزيد ولقد دون كثير من الكتاب العرب فى كتبهم ومذكرات رحلاتهم شهادات إلا أن هذه الشهادات الثمينة توجد فى مصادر قديمة ونادرة وغير متاحة لطلاب المعرفة فى بلادنا السودان أو مكتوبة بلغة مختلفة يصعب على القارئ الإطلاع عليها. لهذا أراد الباحث إعداد الدراسة فى موضوع العلاقات السودانية العربية فى فترة الفونج لأنها شكلت الثقافة والحضارة فى بلاد السودان وباعتبارها فترة مفصلية فى تاريخ السودان الحديث.

- تمهـــــيد :

- منهـــج الكـــتاب :

اقتضى منهج الكتاب تقسيم محتويات الكتاب إلى ستة فصول:

الفصــل الأول: العلاقة بين بلاد السودان وبلاد العرب.

أ- سقوط مملكة النوبة المسيحية.

ب- العلاقات بين السودان والعرب فى عهد المماليك 651-922هـ-1252-1517م.

ج- سقوط مملكة علوة.

الفصــل الثانى: قيــام دولة الفونـــج.

أ- دخول العرب السودان وأثرة على قيام دولة الفونج الإسلامية.

ب- اصل الفونج.

ج- العلاقة بين الفونج والعبدلاب.

الفصــل الثالث: العــلاقة الســياسية.

أ- علاقات العرب بملوك دولة الفونج.

الفصــل الرابــع: مقومات النهضة العلمية فى السودان.

أ- المراكز والمدارس العلمية.

ب- الكتب الدراسية.

ج- الأجازات العلمية.

د- دور الأزهر فى السودان.

هـ- رحلات الحج والعمرة.

الفصل الخامس: الدور المصرى الحجازى فى النهضة العلمية.

أ- العلماء والمتصوفة.

ب- الفقهاء والحكام.

ج- الطرق الصوفية.

الفصل السادس: العلاقات التجارية.

أ- المراكز التجارية.

ب- الأسواق.

ج- وسائل المعاملات التجارية (النقود).

د- الطرق

هـ- الضرائب والخراج

- اعتمدت هذه الدراسة على مصادر ومراجع ودوريات:

- المصادر العربية:

يعد معجم كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء الصالحين والعلماء والشعراء ى السودان للفقيه محمد ضيف الله سفرا فريدا يتحدث عن سيرة مائتين وسبعين عالما وهو منهل ثقافى فكرى لحياة السودانيين الثقافية والأدبية والسياسية لأنه يعكسَ روح العصر ولا غنى لاى باحث فى هذا النوع من الدراسة عنه. وأفدت منه فى هذا البحث فائدة كبيرة مما فيه حتى اشبع نهمى.

ومن المصادر التى أفادت البحث كتاب (المكتبة السودانية العربية) لمصطفى محمد مسعد الذى كرس فيه جهوده لإبراز الصفحات المجهولة فى تاريخ السودان بعد إن اطلع على كتب المؤرخين العرب المطبوعة وغير المطبوعة وجمع ما فى أربعين كتابا عن السودان فى كتابا واحدا.

وأفدت من تقى الدين احمد بن على المقريزى فى كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار) الذى جمع أخبار القبائل وأصولها ولجوئها إلى الصعيد الأعلـــى ثـــد فرارها وانتشارها فى السودان.

إما كتاب ابن عبد الحكم الذى يعد أقدم نص عربى كتـــب فـــى تـــاريخ مصـــر (276هـــ-889م) (توح مصر وأخبارها) استفدت منه فى نزوح القبائل العربيـــة مـــن الجزيرة العربية إلى مصر ثم إلى بلاد النوبة.

ومن المصادر القيمة كتاب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (العبر فـــى ديـــوان المبتدأ والخبر) المشهورة بمقدمة ابن خلدون التى قيل أنها خزانـــة علـــوم اجتماعيـــة وسياسية. واقتصادية أفاد الباحثة فى تحركات القبائل العربية خاصة جهينة.

- المراجع العـــربية:

من أهم هذه المراجع كتاب الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى لمصطفى محمد مسعد الذى كان خير معين لى فى دراسة الممالك المسيحية وعلاقة العرب بهـــا لقـــد افادنى مؤلفه إفادة كبيرة، ويعد كتاب ضرار صالح ضرار سفرا قيما عن هجرة القبائل العربية إلى وادى النيل (مصر والسودان) وهو مرجع مفيد فى هذا الصدد.

من المراجع التى افادتنى كثيرا كتاب التعليم الدينى فى الســـودان ليحيـــى محمـــد إبراهيم الذى فصل المراكز والمدارس التعليمية ى عهد دولة الفونج. ولكتاب صـــلاح الدين الشامى الموانئ السودانية الذى فصل هذه الموانئ بصورة مفيدة دور كبير فـــى أثراء الكتاب.

- المراجـــع الإفرنجـية منها:

1- Paul, A, : Ahistory of the Baja Ttribes of the Sudan, Cambridge, 1954.

فى تاريخ قبائل البجة ولعله استفاد من معرفته القريبة بقبائل الشرق لأنه عـــاش فترة بينهم.

2- Macmichael. H. A: Ahisory of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922, 2vols.

الذى تحدث فى هجرات القبائل العربية إلى مصر والسودان وهو يشكل موسوعة لا غنى عنها لباحث فى التاريخ.

3- Umer Al. Nager the Pilgrimage Radition in West Africa, Sudan, Khartoum University Press, 1979.

استفدت منه فى تحديد الطرق التى كان يسلكها الحجاج إلى الاراضى المقدسة.

- الدوريـــــــات:

رجع الباحث إلى الدوريات السودانية التى تتحدث عن موضوع الرسالة مثل:

1- دورية مصطفى محمد مسعد: بعض ملاحظات جديدة حول مملكة الفونج الإسلامية الذى أضاف فيها معلومات قيمة عن دولة الفونج.

2- دورية جامعة أم درمان الإسلامية إصدار 2002م الذى تناول فيها احمد إبـــراهيم دياب الهوية السودانية عبر التاريخ.

3- مجلة الدراسات السودانية العدد الأول الذى تناول فيه يوسف ضل حســـن القتـــل الطقسى عند الفونج. وغير ذلك من الدوريات التى تناولت مواضيع تخص الكتاب.

الفصــل الأول

العلاقة بين بلاد السودان وبلاد العرب

أ- سقوط مملكة النوبة

ب- العلاقات بين السودان والعرب فى عهد المماليك

ج- سقوط مملكة علوة

الفصـــل الأول

العـلاقة بين بـلاد السودان وبلاد العرب

أ- سقوط مملكة النوبة المسيحية:

دخل العرب بلاد النوبة فرادى وجماعات قبل الإسلام وسأركز هذا على دخـــول العرب بعد ظـهور الإسلام. حيث تشير الأبحاث إلى إن السودان كان احد المناطق التى نشأت بها أولى المجتمعات الإسلامية التى انحدرت مباشرة من الحجاز ويقول عبد الله الطيب[1] فى هجرتى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم ابنته وابن عمــه جعفر بن أبى طالب وهجرة عثمان بن عفان ربما كانتا إلى بلاد علوة والسودان. وهذه إشارة إلى عمق العلاقات بين منبع الدعوة وبين بلاد النوبة.

استمر المسلمون يلجأون إلى بلاد السودان سواء كان نفياً مثل نفى سيدنا عمر لأبا محجن الثقفى فى باضع[2] ونفى عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب إلـــى دهلـــك[3] أو لجوء كلجوء الفارين من بنى أمية إلى باضع[4].

ومنذ إن فتح المسلمون مصر اتجهت سياستهم إلى ضم بلاد النوبة وتلاقت رغبة الخليفة عمر مع قائدة عمرو بن العاص إلى غزو النوية لتأمين حدود مصر الجنوبيـــة وتأمين طريق التجارة[5] .

---

[1] مقالة فى الندوة العالمية لدراسة تاريخ العرب فى عصر الرسول والخلاء الراشدين بعنوان (تاريخ الحبشة وما وراءها من إنباء) عبد الرحمن حسب الله، مرجع سبق ذكرة ص 31.

[2] أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى: البداية والنهاية، لبنان، بيروت، دار الثقافة العلمية، 1408هـــ- 1988م - ج7.

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت: 808هـــ - 1460م) العبر وديوان المبتدأ والخبر، مصـــر، القاهرة، 1274هـــ- 1857م، ج3 - ص644.

[4] مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، مصر، القاهرة، 1960م، ص 118.

[5] أبو الحسن على بن الحسين المسعودى (ت 346هـــ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين عبد المجيد، مصر، القاهرة، مطبعة السعادة، 1948م، ج3، ص38.

تدفقت الجيوش الإسلامية فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب وبقيادة عمرو بن العاص ولكل جيش دخل الوجه البحرى من مصر فاتحاً لابد وان تمتد فتوحاته إلى الصعيد حتى أسوان وقد فعل المسلمون ذلك جنوب أسوان حيث ممالك النوبة[6].

وفى خلافة سيدنا عثمان بن عفان غزا عبد الله بن أبى السرح بلاد النوبة فى 26هـ وتجمع على الشاطئ لفيف من البجة فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح[7] ومنذ ذلك الوقت اخذ الإسلام يتسرب إلى بلاد النوبة والبجة عن طريق النيل والصحراء ويبدو من ذلك أن علاقة العرب والممالك المسيحية فى السودان كانت وثيقة ولا تقتصر على البقط؛ بل كان هناك تجارة بين الطرفين وتغلغل سلمى ويمكن إن نفسر هذا العقد بأنه معاهدة حسن جوار للاطمئنان على حدود المسلمين الجنوبية وفتح البلاد للتجارة والحصول على سواعد النوبة القوية ونشر الثقافة الإسلامية فى بلاد النوبة بالطرق السلمية ومهما يكن من أمر فإن هذه المعاهدة ظلت تمثل نوعاً من الاستقرار بين المسلمين والمسيحيين ما يقرب من ستة قرون أدى هذا الاستقرار إلى زيادة حجم التبادل التجارى بين الطرفين[8].

وخلال العصر العباسى كان هنالك العديد من الهجرات خاصة بعد مقتل مروان بن محمد حيث تفرقت بنو أمية فى البلاد حتى وصلت ارض البجة[9] ويشير المسعودى إلى جماعات من عرب قحطان وربيعة سكنوا أسوان وتقدموا جنوباً حتى مريس[10] واشتروا الأرض من النوبيين وأصبحوا أصحاب حق فى البلاد وتزاوجوا منهم[11].

---

[6] مكى شبيكه: السودان عبر القرون، لبنان، بيروت، 1991م، ص29.

[7] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت 276هـ 1875م) فتوح مصر وإخبارها، هولندا، لندن، 1920م، ص 169.

[8] إبراهيم الحردلو: الرباط الثقافى بين مصر والسودان، والخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى 1977م، ص 4.

[9] أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، مصدر سبق ذكره، ج8، ص 340.

[10] ناحية ببلاد النوبة تهب عليها فى الشتاء رياح باردة (أبو الحافظ بن كثير الدمشق، مرجع سبق ذكره، ج1، ص 294.

[11] أبو حسن على بن الحسين المسعودى: مرجع سبق ذكره، ص33.

وازدادت الهجرات بعد ضغط المماليك على القبائل العربية التي هاجرت جنوباً وتعتبر بني الكنز من كبرى القبائل التى نشرت الإسلام حيث كان لها الفضل في تحويل قبائل النوبة من المسيحية وبالتالى انتقال الملك إلى بنى الكنز ويعنى هذا إن ركنا هاما من أركان نظام الحكم فى النوبة قد انهار وهذه نقطة تحول خطيرة فى تاريخ بلاد النوبة ربما شاركت فى وضع النهاية لمملكة النوبة المسيحية.

كما إن هناك عوامل أخرى عجلت بسقوط هذه المملكة منها ما ذكره ابن خلدون عن الهجرة الكبرى التى قام بها عرب جهينة[12] من مصر إلى بلاد النوبة فقال: إن الجزية انقطعت بإسلامهم (اى النوبة) ثم انتشرت إحياء العرب من جهينة في بلادهم استوطنوها وملكوها وملؤها عبثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس فى طريقه شئ من السياسة المملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعاً لهذا وذالك ولم يبق لبلادهم رسم للملك وإنما هم رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بواد الأعراب ولم يبق لبلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام[13] ويعنى هذا إن عرب جهينة هاجروا إلى بلاد النوبة فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى بعد إن اسلم النوبيين وقطعت عنهم الجزية وان هجرتهم حدثت بعد انتقال الحكم إلى بنى الكنز ولكننى اعتقد إن ابن خلدون قصد بذلك هجرة إعداد كبيرة من جهينة مع بعضها البعض بعد اعتناق النوبة الإسلام.

لكن هذا لا يمنع من دخولهم في مجموعات مع القبائل العربية الأخرى عقب الفتح العربى على مصر ففى منتصف القرن التاسع الميلادى هاجرت فروع من جهينة إلى

---

[12] هى أحدى بطون قضاعه اليمنية هاجرت روع منها إلى الجزيرة العربية وسكنت حول يتبع وعندما جاء الإسلام كانت أولى القبائل التى دخلت فى السودان (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، ج2، ص5).

[13] المصدر السابق، ج5، ص 429.

مصر ثم جنوبا إلى بلاد النوبة مشتركة مع كثير من العرب فـي حملـة العمـرى[14] وليس من المستبعد إن تنشر هذه الجماعات الإسلام منذ تلك الفترة وتذكر المراجـع إن عرب جهينة كانوا سببا فى ضياع كثير من مظاهر الملكية النوبية مثل اللغـة النوبيـة التى لم تعد لغة الكتابة بل ظلت تمثل لغة التفاهم بين النوبيين وينسب إلى جهينة كذلك تخريب الكنائس النوبية[15] اعتقد إن دور بنى الكنز فى سقوط مملكة المقرة كان دوراً رائداً إلا إن هذا لا يعنى التقليل من شأن جهينة التى ذكرها ابن خلدون قائلاً انتشـرت ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة[16] والضعف والانهيار الذى أصاب النوبة والشـيع التى آلت إليها جهينة وتحدث عنها ابن خلدون قائلا انتشرت ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة تشير إلى الزعامات العربية التى تنتشر مع مصر حتى الحبشة وعددهم ثمانيـة من الزعماء العرب كانوا يكاتبون المماليك وهم سمره بن كامل العامرى وعبـاد بـن قاسم وكمال بن سوار وجنيد شيخ الجوابره وشريف شيخ النمامة وعلـى شـيخ دغـم وزامل الثانى أبو مهنا العمرانى[17].

ومن عوامل سقوط مملكة النوبة كذلك ابتعاد كنيسة النوبة عن كنيسة الإسكندرية حتى انقطاع الصلة نهائيا فى عهد البطريرك سيريل 1235م[18] والجـدير بالـذكر إن جميع كتابات المؤرخين العرب والمصادر القبطية تشير إلى إن بلاد النوبة قد اتجهـت فى زعامتها الروحية إلى بطريرك الأقباط فى مصر وان هذه العلاقة هى علاقة قديمة شأن الأمر فى الحبشة وهى علاقة تاريخية لها إبعادها الثقافية والاجتماعية حتى يومنا هذا فان الكنائس القبطية فى السودان تتبع إلى كنيسة مرقس الرسول فى مصر لذا شعر النوبيون إن الكنيسة النوبية غريبة عنهم كما إن الظروف التى كانت تؤدى فى كثير من الأحيان إلى عدم إرسال ما تحتاج إليه الكنائس النوبية من رجال الـدين فتبقـى هـذه

(14) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة ، ص 124.

(15) Crow Foot, J.W: Christian Nubia, JEA, 1927, X Lll, P 148.

(16) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج2 ، ص 516.

(17) يوسف فضل حسن: مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى، السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر 1981 ص11.

(18) مصطفى محمد مسعد: مرجع سبق ذكره، ص 176.

الوظائف شاغرة مدة طويلة تتعطل فيها الطقوس، وهكذا بالتدريج ضعف شعور الناس إزاء هذا الوضع دون إن يشعروا أنهم فقدوا شيئا.

وكان فى المقرة وعلوه ثلاث عشرة أسقفية[19] تابعة للكنيسة المرقسية فى مصر والملاحظ هنا إن مملكة النوبة المسيحية كانت تقاوم وحدها الضغط المملوكي ولم يتعاون معها اى من الممالك المسيحية المجاورة بل حتى إن هذه الممالك تعاونت مع المماليك أنفسهم ضد ملوك النوبة ورفضوا إيواء الهاربين وكثيرا ما سلموا الفارين إلى المماليك ثم إن رجال الدين المسيحى النوبيين تخلوا عن ملوك النوبة وانضموا للغزاة ومر بنا كيف إن القساوسة انفصلوا من حول سمامون ملك النوبة وطلبوا الأمان من المماليك ولكن يبدوا إن الجميع أدرك قوة المماليك ففعلوا ذلك موازنة مصالح أكثر من أنها قضية دينية.

إن انقطاع الصلة بين الكنيسة الأم وكنيسة النوبة ربما يرجع إلى ما تعرض له أقباط مصر من اتهام بحرق بعض إحياء القاهرة فى 663هـ / 1264م. وامتد هذا الاتهام إلى بلاد النوبة على يد القبائل العربية التى خرجت الكنائس. ولعل من أسباب انهيار مملكة النوبة النزاع المستمر حول العرش بين أفراد الأسرة المالكة لان نظام الوراثة الذى تمسك به النوبة أضحى ركنا من أركان سياستهم ولم يؤد إلى الاستقرار بين الملك وولى عهده بل خلق مشاكل عديدة وظهر الانقسام وأدى ذلك إلى الاستعانة بالمماليك لحل هذه النزاعات وقد صل المماليك فى هذه النزاعات بالحملات المكثفة على بلاد النوبة تلك الحملات التى فتت من عضد النوبيين وانتهت بسقوط بلادهم.

بعد سقوط مملكة المقرة المسيحية لم يرد شئ عن بلاد النوبة حتى عام 1366م. وكل ما يمكن معرفته نستخلصه من قول المقريزى إن المنطقة ما بين عيذات شرقا والوحدات غربا فضلا عن بلاد النوبة نسها أصبحت مسرحا للاضطرابات التى كانت

[19] تقي الدين احمد بن على المقريزى (ت 845هـ - 1441م) المواعظ، والاعتبار بذكر الخطوط والآثار، تحقيق الدكتور محمد زينهم والدكتور مديحه الشرقاوى، مصر، القاهرة، مكتبة مدبولى، 1998م ج1، ص 193.

من عمل بنى الكنز وغيرهم من القبائل العربية التى استقرت فى بلاد النوبة مثل بنـــى جعد وبنى عكرمة[20] ويفهم من حديث المقريزى إن القبائل العربية ازدادت من أسوان حتي دنقلا وعم الإسلام المنطقة وزال ما بقى من المسيحية وتكونت مجموعات نوبيـــة مستعربة وهم الكنوز السكوت والمحس. ظل بنو الكز يمثلون أقوى العناصر النوبيـــة المستعربة. بسقوط دنقلا انفتح المجال إمام الجماعات العربية للانسياب جنوبـــا علـــى طول النهر الذى يعتبر الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ.

إما تلك المجموعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط اشتملت على مجموعتين العدنانيين والقحطانيين. ويمثل العدنانيين الكواهله والجعليـــون والرشـــايده وغيرها من القبائل الصغيرة والقحطانيون تمثلهم جهينة.

وما يهمنا هنا هو متى دخلت هذه القبائل إلى حوض النيل الأوسط؟

أول من ذكر أولاد كاهل ابن بطوطة فى رحلته إلى عيذاب وسواكن فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى عندما ذكر إن أولاد كاهل يسكنون المنطقة مـــن عيـــذاب إلى سواكن وهم مختلطون بالبجه عارفون بلسانهم[21] ولكن متى اســـتقر أولاد كاهـــل بين البجه؟ غير معروف والراجح أنها كانت قبل القرن الرابع عشر بـــدليل معـــرفتهم بلغة البجه.

يعود نسب الكواهله إلى عباد من نسل الزبير بن العوام وعباد هذا جد الكواهلـــه قدم من الجزيرة العربية إلى مصر فى القرن الثالث عشر[22] ومثلهم مثل غيرهم مـــن القبائل العربية الأخرى كرهوا المماليك وفروا إلى بلاد النوبة حيث انتجع فريق مـــنهم كردفان وأخر استقر بالنيل الأبيض والثالث فى جنوب الجزيرة وشمال سنار[23].

[20] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصـــطفى زيـــادة، مصر، القاهرة، 1934م، المجلد الثامن، ص 48أ.

[21] أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى بن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، 1934م، ج1، ص 154.

[22] التجانى عامر: السلالات العربية فى النيل الأبيض، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتـــب، 1390هـــ 1971م، ص 17.

[23] نفسه، ص 19.

اختلط أولاد كاهل بالبجه ويذكر علماء الأجناس إن هناك تشابها فى الدم والتقاطيع بينهما[24]. وقد كان لبنى كاهل دور اساسى فى نشر الإسلام بين البشاريين والامرار والبنى عامر.

ومن المؤكد إن أولاد كاهل عاشوا فترة فى المنطقة الساحلية الشرقية يعملون بالتجارة ثم انتقلوا بالتدريج نحو الغرب وانتقالهم هذا على مراحل المرحلة الأولى وصولهم إلى الساحل ثم انتقالهم إلى منطقة النيل الأزرق وأخيرا نزوحهم إلى النيل الأبيض ثم كردفان.

وحسب ما تذكر الروايات الوطنية إن هجرة الجعليين من مصر إلى حوض النيل الأوسط كانت من حوالى القرن العاشر الميلادى[25] سالكة طريق العتمور لتجنب مملكة المرة المسيحية ثم لحق بها عدد كبير فى العهد المملوكى ولاسيما بعد سقوط دنقلا عن طريق النيل من الشمال إلى الجنوب حيث سكنوا فى أوطانهم الحالية على النيل الأعظم[26] ويقال إن الجعليين ينسبون إلى إبراهيم المقلب بجعل من نسل العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر الرواة إن سبب تسميتها بالجعليين ما كان يقوم به جدهم إبراهيم من كرم الوفادة والترحيب بالمستظلين به من سائر أبناء القبائل "لقد جعلناك منا[27]" حيث كان يجمع الناس حوله من كل حدب وصوب.

تدل هذه العبارة على إن الجماعات العربية التى كانت تتوغل فى هذه المنطقة كان توغلها سليماً.

يبدو إن الجعليين لم يكونوا أول قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل يجمعهم نسب متقارب وكانت هجرتهم تمت على مراحل وفى أزمان طويلة حتى استطاعوا بسط

[24] نفسه، ص17.
[25] Mac Michacl, H.A.:Ahistory of the Arabis In He Sudan, Cambridge, 1922., P. 348.
[26] Mac Michael, H, A: Op. Cit, P197
[27] محمد عوض محمد، السودان الشمالى سكانه وقبائله، مصر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة 1951م ص166.

نفوذهم على منطقة تلو الأخرى وفى الختام نجحت أسرة قوية فى تولى الزعامة وجمع شمل القبيلة وإدماجها مع السكان الأصليين.

وتشتمل مجموعة الجعليين على عدد من القبائل منها الجعليون الاصليون ويسكنون من السبلوقة إلي أتبرا والميرفاب يسكنون حول بربر والرباطاب من بربر إلى أبى حمد والمناصير من أبو حمد حتى الشلال الرابع والشايقية من الشلال الرابع إلى الدبة ويسكن الجوابره بين الدناقلة والمحس والجموعية وإتباعهم جنوب أم درمان إلى حدود الكواهله والجمع رب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد الكواهله والبديرية بعضهم فى بلاد النوبة والبعض الأخر فى كردفان وهناك قبائل أخرى مفرقة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة[28]. إما المجموعة العربية الثانية من حيث الثقل القبلى هى المجموعة الجهينية التى تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهنى[29] القحطانى عاشت جهينة القحطانية حول ينبع ثم هاجرت إلى مصر ومنها جنوبا إلى بلاد النوبة والبجة عند القرن التاسع عشر الميلادى. ثم جنوبا إلى ارض الحبشة فحاربت الحبشة حتى أرهقتها[30] فى القرن الخامس عشر الميلادى.

وتنقسم القبائل الجهينيه فى السودان إلى ثلاث مجموعات الأولى تشمل رفاعة – اللحويين – الحلوبين – العوامرة – الشكرية – وجميعهم يستقرون فى النيل الأزرق والبطانة وتشمل المجموعة الثانية دار حامد – الشنابلة – المعاليا – يستقرون وسط وشرق كردفان.

إما المجموعة الثالثة تشمل البقارة – الكبابيش– الحمر – المحاميد– المغاربة وينتشرون فى كردفان ودارفور[31] لابد وان هذه المجموعات لم تنتشر فى دفعة واحدة بل استقرت قرون عديدة حتى تكاثر عددهم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى.

---

[28] محمد عوض، مرجع سبق ذكره، ص 168.
[29] Mac Miccheal, H. A. Op. Cit, P198.
[30] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، ج5، ص 429.
[31] مصطفى محمد مسعد، مرجع سبق ذكره، ص201 -202.

وفى القرن السادس عشر الميلادى زاد ضغط جهينة على ملوك علوة فحاولوا صدهم كما يقول ابن خلدون[32] ولم يستطيعوا فصاهروهم وهكذا انتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة حسبما يقتضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين.

ب- العلاقات بين السودان والعرب فى عهد المماليك 651-922هـ - 1252-1517:

يرجع ظهور المماليك[33] فى العالم الاسلامى إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسى 198-218هـ - 813-833م إذ كان فى بلاطه بعض المماليك المعتوقين[34]. وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولى المعتصم العباسى الخلافة (218-277هـ- 833-843م) إذ كانت أمه تركية فاعتمد على العنصر التركى واتخذ من الأتراك حرسا له واسند إليهم مناصب الدولة وذلك لعدم ثقته بالعرب[35]. اخذ مبدأ استخدام المماليك ولاة مصر الإسلامية من الطولونيين إلى الاخشيدين ثم الفاطميين.

عندما تسلم زمام السلطة فى مصر احمد بن طولون (254-270هـ - 868-884م) أكثر من استخدام السودانيين فى الجيش الطولونى[36] ويذكر المقريزى إن عددتهم بلغت 40 ألف سودانى فاستوجب تعيين حاجب خاص لصرف جراياتهم[37]. كثرت إعداد المماليك فى مصر وإنفرادوا بالعزلة والترفع والغطرسة المملوكية التى أهاجت القبائل العربية فى صعيد مصر وخاصة عندما اتبع المماليك سياسة الإكثار من ذويهم[38] وإبعاد العرب الذين اجتمعوا بزعيم الجعافرة العرب الشريف حصن الدين

---

[32] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، ج5، ص429.

[33] كلمة مماليك ومفردها مملوك ويقصد بها الرقيق والمملوك هو عبد (على إبراهيم حسن – تاريخ المماليك البحرية، مصر القاهرة، 1944، ص 28 حاشية رقم 2).

[34] نفسه، نفس الصفحة.

[35] حسن إبراهيم حسن– تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، مصر، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، 1964، ج3، ص 126.

[36] تقى الدين احمد بن على المقريزى: مرجع سبق ذكره، ج1، ص 94.

[37] نفسه: ص 315، والجراية تعنى المرتبات أو المخصصات.

[38] على إبراهيم حسن: مرجع سبق ذكره، ص34.

ثعلب الذى صاح ضد المماليك (نحن أصحاب البلاد أحق من المماليك[39]) إلا انه انهزم وقضى المماليك على العرب. وعبر منهم كثيرون إلى أراضى البجه وآخرون إلى ارض النوبة اهتم المماليك بساحل البحر الأحمر وخاصة عيذاب[40] فعينت الدولة المملوكية إلى جانب واليها الحدربى[41]. واليا مصريا وقاضيا كذلك[42] يختص هذا الوالى بتصديق الشئون التى تتعلق بما يصدره التجار من ثغور سواكن وعيذاب والقصير[43] اشتهرت عيذاب بالتجارة فحاول الصليبيين توجيه الضربات إليها بقطع طريق الحجاج المسلمين والقضاء على مركزها التجارى رغم فشل الحملة الصليبية بقيادة إرناط ضد الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز سنة 1182م فان هذه الجملة حطمت ست عشر سفينة للمسلمين فى عيذاب[44] غير إن هذا الهجوم الصليبى لفت الأنظار إلى أهمية عيذاب فازداد اهتمام السلاطين والمماليك بها لسلامة البحر الأحمر من خطر الصليبيين تواصل اهتمام سلاطين المماليك بتجارة البحر الأحمر وهذا واضح من علاقاتهم بميناء سواكن مخرج تجارة ممالك النوبة المسيحية فى السودان. ففى عام 662هـ- 1264م احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك[45] لتعرضنهما لأموال المتوفين من التجار المصريين[46] والراجح إن صاحب

---

(39) Yousf Fadl Hassan: The Arabs And The Sudan, Khatoum University Press, 1979 P100.

(40) عيذاب – بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر الآن) كانت من اشهر المراس تأتى إليها سفن اليمن والحبشة والهند وكانت فى الماضى طريق الحج المصرى تسير إليها الركاب عن طريق قبرس ثم يركبون البحر منها جدوة وكانت ذات شأن عظيم للحجاج ويبدأ منها طريق القوافل إلى أسوان وقوص. (تقى الدين احمد بن على المقريزى: الخطط ج1، ص202-203).

(41) الحدارية: هم الحضارمة من حضر موت جاءوا من بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى وكانوا وثنيين ثم اعتنقوا المسيحية تشبهها ببعض البجه وهاهم يعتنقون الإسلام فى القرن العاشر. Paul, A:Ah Isory Of The Beija. Tribes Of The Sudan, Cambrige 1954 P12

(42) مكى شبيكة: مرجع سبق ذكره، ص 41.

(43) أبو العباس احمد القلقشندى: مرجع سبق ذكره، ج4، ص66.

(44) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة، ص143.

(45) اكبر الجزر المعروفة بارض بيل دهلك بالبحر الأحمر وموقعها قابلة مصوع (تقى الدين احمد بن على القريزى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك "نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة"، مصر، القاهرة، 1934 الجزء الأول القسم الثانى ص506 حاشية رقم1).

(46) المصدر السابق نفس الصفحة.

سواكن أهمل احتجاج السلطان المملوكى الذى جهز حملة لتأديب صاحب سواكن فى 664هـ – 1265م ومن نتائج هذه الحملة فرار صاحب سواكن واستقرار حامية مملوكية بها[47] وبالتالى فرض ضرائب باهظة لحساب الدولة المملوكية[48] وبهذا أصبح المنفذ البحرى لأقاليم النوبة المسيحية تحت سيطرة الدولة الإسلامية. وربما كان لسقوط سواكن فى يد المماليك معزى سياسى له أثرة على ممالك النوبة المسيحية أدى إلى قلق حكامها بعد عزلهم عن العالم الخارجى ولاسيما الإراضى المقدسة بفلسطين[49] وربما كان هذا دافع النوبيين للإغارة على إطراف مصر الجنوبية سنة 671هـ – 1272. ويضيف أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى[50]: فى محرم من سنة أحدى وسبعين وستمائة وصل داؤود صاحب النوبة إلى عيذاب فنهب تجارها وقتل خلقا كثيرا من أهلها منهم الوالى والقاضى ثم أغار على مدينة أسوان وضرب عددا من السواقى واسر كثيرا منهم وسخرهم فى بناء كنيسة سوس (المسيح) بدنقلا.

غير انه قد يفهم من حركة داؤود العدائية أخر غير التخلص من السيطرة المملوكية على سواكن وهو خدمة المصالح الصليبية عامة ولاسيما بعد إن استولى السلطان بيبرس على كثير من البلاد الصليبية وهدم إمارة انطاكيا الوريثة للزعامة الصليبية بعد ذهاب بيت المقدس على يد صلاح الدين[51] غير هذا وذاك ربما كان الهدف الاساسى فى إعتقادى هو الإحساس الدينى المشترك بين الصليبيين ومملكة النوبة المسيحية وقد ورد فى بعض المراجع إن مسيحيى النوبة كانوا يحجون إلى بيت المقدس منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر الميلادى وبلغ من كثرة ترددهم على بيت المقدس إن احد الأماكن المقدسة بها عرف باسمهم وظل يحمل اسمهم حتى القرن

---

(47) المصدر السابق، ص 550.

(48) Crow Foot, J.W: "Christian Nubia" J. E. A, Xiii 1927, Pp. 148-149

(49) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى (ت774هـ– 1373م) البداية والنهاية، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية 1408هـ – 1988م، ج13، ص278.

(50) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، مرجع سبق ذكره، ص 278.

(51) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة، ص 145.

الخامس عشر الميلادى[52] ربما يكون هناك سبب أخر لحركة داؤود ضد عيذاب وأسوان وهو تعاطف النوبيين مع أقباط مصر في حوادث الاتهام التى تعرضوا لها فى عهد السلطان بيبرس لاتهامهم بحرق بعض إحياء القاهرة سنة (663هـ - 1264م)[53] ولربما إن هدف حملة داؤود هو استيلاء المماليك على مدينة سواكن وهو سبب اقتصادى سياسى.

- معاهدة النوبة :

استمرت العلاقات سيئة بين المماليك والنوبة ففى (667هـ - 1268م) نشب خلاف بين أمراء النوبة حول الملك بعد إن أصيب ملكها بالعمى[54] وأصبح العرش موضوع خلاف بين شكندة وخاله داؤود الذى تولى الملك والمعروف إن بلاد النوبة منذ القرن الحادى عشر الميلادى انتقل الملك منها إلى ابن الأخت[55] وثبت مبدأ الوراثة على هذا النحو واضحي ركنا من أركان سياستهم التى ساروا عليها لذا تمسك داؤود بها ونفى شكندة إلى منطقة الأبواب[56].

قدم كشندة إلى القاهرة مطالبا بعرش مقره ومتظلما من خاله داؤود الذى انتزع الملك منه فصادفت تلك الاستغاثة هوى فى نس بيبرس الذى كان غاضبا على داؤود جرد جيشا بقيادة الأميرين شمس الدين اقسنقر الفارقانى الاستادار وعز الدين إيبك الافرم أمير جاندار[57] وضمت الجملة ثلاثمائة فارس وأجناد الولايات وعددا من الرماة ورجال الحراريق والزردخان واشترك فيها عربان الوجه القبلى[58] وتوغل جيش المماليك فى بلاد النوبة وخرج النوبيون إلى لقائهم على النجب. (الإبل) فى ملابس

---

(52) Crow Foot, J.W.: Op. Cit. P.P 148-149.

(53) تقى الدين احمد بن على المقريزى: المواعظ والاعتبار. ج3، ص8.

(54) Yousf Fadl Hassan: Opcit P. 106.

(55) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة، ص 84.

(56) Yusuf Fadl Hassan Op. Cit, P 106.

(57) أبو العباس احمد القلقشندى، مرجع سبق ذكره ج5، ص 277.

(58) أبو العباس احمد القلقشندى، مرجع سبق ذكره ج5، ص 277.

سود يطلقون عليها اسم الدكاديك[59] ربما علم النوبيون بمدى قوة جيش المماليك وعدم قدرتهم على مواجهته لذا لبسوا السواد الذى ربما يعنى عدم الرضا وربما هو استسلام للواقع إلا أنهم قاتلوا الجيش المملوكى قتالا انتهى بهزيمة النوبيين واستولى الافرم على قلعة الدر وقفل وسبى وزحف الفرقانى حتى وصل إلى جزائر ميكائيل قرب الشلال الثانى ونجح فى اختراق الجنادل بمراكبة وفر النوبيون إلى الجزر وتسلم شكندره هذه الفتوحات[60] ثم سارت الحملة فى بلاد النوبة فلقيهم الملك داؤود الذى هزم واسر كل من أخاه وأخته وأمة وفر داؤود إلى منطقة الأبواب[61].

يذكر أبو الفداء احمد بن كثير الدمشقى[62] إن الجيش وصل دنقلا وكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقا كثيرا واسروا شيئا كثيرا بحيث بيع الرقيق الرأس منها بثلاثة دراهم.

ويعلق المقريزى[63] على هذه الحملة بقوله انه "فضل بعد القتل والبيع عشرة" ألف نفس" وإذا صح هذا العدد يدل على مدى ما تعرضت له بلاد النوبة من نقص فى الرجال والأموال نتيجة هذه الحملة.

اعتقد إن هذه الحملة لها طابع خاص يميزها عن مثيلاتها من الحملات؛ لأنها تعتبر فتحا حقيقيا لبلاد النوبة بالإضافة إلى أنها وضعت الأسس الجديدة للعلاقات بين البلدين بدليل تلك الشروط التى قطعها شكندة على نفسه للسلطة المملوكية[64] ومن هذه الشروط:

1- إن الملك شكندة أصبح تابعا للسلطان المملوكى ونائبا عنه فى حكم بلاد النوبة.

---

(59) تقى الدين احمد المقريزى، مرجع سبق ذكره، ج1، ص202.
(60) نفسه، نفس الصفحة.
(61) نفسه، نفس الصفحة.
(62) البداية والنهاية، مرجع سبق ذكره، ج13، ص278.
(63) تقى الدين احمد المقريزى، السلوك، ج1، القسم الثانى، ص 623.
(64) Yousf Fadl Hassan: Opci P. 109-110.

2- إن يرسل ملك النوبة نصف ما يجمعه من بلاد النوبة للسلطان المملوكي ويصرف النصف الأخر على الدفاع عن المملكة بالإضافة إلى هدايا تشمل ثلاثة زرافات وثلاث لبلة وخمسة فهود إناث ومائة جمل أصهب وأربعمائة ثور مختار.

3- يسلم ملك النوبة كل ما كان يملكه داؤود للسلطان ومن قتل من عساكر المماليك فى تلك الحملة.

4- خبر السلطان ملك النوبة بين اعتناق الإسلام أو الموت أو دفع الجزية فوافق ملك النوبة على دفع الجزية وهى إن يدفع كل فرد بالغ ديناراً للسلطان ما بقى على النصرانية.

5- إن تكون منطقة المريس ملكا للسلطان.

6- إلا يترك شكندة أحدا من العربان فى بلاد النوبة ومن وجده يسلمه للسلطان.

7- إن يطلع ملك النوبة السلطان المملوكى بكل ما يصل إليه من إخبار. وكتب نسخة يمين بذلك حل عليها الملك شكنده ونسخة أخرى حلفت عليها الرعية تعهدوا ليها بالطاعة لملك النوبة[65].

رغم إن هذه الشروط لا تشير إلى اتفاقية البقط لكنها كانت ضمنا وهو عبارة عن أربعمائة راس من الرقيق وزرافة فى كل سنة وثلاثمائة وستون رأسا للخليفة ولنائبة بمصر أريعون رأسا[66].

ويقال إن هذه الحملة خربت كنيسة سوس (المسيح) بدنقلا وأخذت ما فيها من أدوات ذهبية وفضية[67] وغادرت الحملة دنقلا فى 15 ذى الحجة سنة 674هـ -

(65) مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص 151.
(66) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص 358.
(67) Yousf Fadl Hassan: Opci P. 111. ويذكر يوسف فضل إن من أهم ما نهب من كنيسة دنقلا كان الصليب الذهبى الذى تقدر قيمته – ب 4640.5 دينار.

1276م إلى القاهرة مصطحبة معها عشرين أميرا نوبيا[68] بعضهم لـه أحقيـة فـي العرش بحكم الوراثة النوبية هؤلاء اقتيدوا كرهائن من القاهرة يستفاد منهم كبديل للملك شكندا إن حاد عن شروط المعاهدة ربما كان قصدهم هـو ضـمان وفـاء الـذوبيين بالتزاماتهم تجاه مماليك بشروط المعاهدة. وتذكر بعض المراجع إن عدد الأسرى فـي هذه الحملة بلغ عشرة ألاف شخص بين رجل وامرأة بيعت في أسواق النخاسة بالقاهرة بثلاثة دراهم للرأس[69] لم تكن أهمية هذه الحملة قاصرة على المقرة فقط بـل تعـدتها جنوبا إلى الأبواب حيث أثارت مخاوف ملكها أدور الذى اقتنع بقوة المماليك وقـبض على الملك داؤود وأرسله مقيدا إلى القاهرة حيث اعتقل بالقلعة حتى مات[70].

يبدو إن المساعدة التى قدمها السلطان بيبرس لشكندة باعتلائـة عـرش النوبـة بالإضافة إلى المعاهدة التى عقدت بينهم فى اعتقادى لم تكن كافية لجعل النوبة تخضع للمماليك فى مصر إذ انه بمجرد إن يتولى احد أمراء النوبة الشرعيون الحكـم يقلـب ظهر المجن إلى من ازره ويسعه إلى الاستقلال وهذا ما حدث من شكندا ولكن بيبرس اتخذ الحيطة بإرساله الفدائى سلامة لمراقبة ملك النوبة ويقال إن سلامة اصطحب معه فدائيا أخر وظل الاثنان يعملان عيونا للسلطان بيبرس[71] ربما كان هدف بيبرس مـن أرسالة سلامة هو اغتيال الملك شكنده إن تجاهل بنود المعاهدة ولكن سلامة لـم يبـق طويلا حيث ترك النوبة وعاد إلى مصر، يبدو إن سلامة رفض العمل كجاسوس فـي وطنه ومع أبناء جلدته لذا عاد إلى مصر وبقى الفدائى الأخر الذى تسـلل إلـى قلـب الملك وأصبح حارسه الخاص وما إن تبين للمماليك إن شـكنده حـاد عـن سياسـتهم أو عزوا إلى الفدائى ففعل ومات شكنده قتيلا (695هـ – 1277م). واعتلى عرش النوبة

---

(68) Yousf Fadl Hassan: Opci P. 111.

(69) Yousf Fadl Hassan: Opci P. 111.

(70) أبو العباس احمد القلقشندى: مرجع سبق ذكره، ج5، ص277.

(71) مخطوطة تاريخ قلاوون: تشريف الأيام والعصور بسـيرة الملـك المنصـور، ج2، ص9، 3أ، 310ب. ويقال إن سلامة هذا كان أصلا من الأبواب اى انه نوبى وربما اختاره بيبرس لخبرتـه بأحوال البلاد. Yousf Fadl Hassan: Op. Cit, 111.

الأمير برك[72] غير إن الطريقة التى وصل بها إلى الحكم عقب مقتل شكنده جعلت السلطان قلاوون الذى اعتلى عرش السلطنة المملوكية 1279م لا يطمئن إليه[73].

ربما يكون هذا الملك حاول التخلص من السياسة المملوكية فتحرك السلطان قلاوون ضده بإرسال حملة إلى بلاد النوبة بقيادة الأمير سنجر المسرورى الذى نجح فى قتل الملك برك وخلفه على بلاد النوبة الأمير سمامون[74] الذى توترت علاقات المماليك معه ولم تذكر كتب المؤرخين شيئاً عن أسباب هذا التوتر فى تلك الآونة ولكن ربما يعزى ذلك إلى شروط الاتفاقية الأخيرة التى تنص على إن يدفع كل نوبى ديناراً فى وقت كان يصّعب على النوبى إن يدفع مل هذا المبلغ عينا لشظف العيش ولذلك فإنه منذ إن طبقت هذه المعاهدة كثرت ثورات ملوك النوبة على المماليك.

اقتنع ملوك علوه بقوة النفوذ المملوكى فأرسلوا الوفود محملة بالهدايا إلى السلطان قلاوون يشكون إليه من معاملة الملك سمامون لهم وفى ذلك يقول صاحب المخطوطة[75] أن تواتراً حدث فى علاقات سمامون ملك دنقلا وأدور ملك الأبواب فأرسل أدور وفودة إلى المماليك محملةً بالهدايا التى تضم فيله (أفيال) وزرافه معلنا ولاءه وشاكيا سمامون وعلم سمامون بذلك فأرسل وفوده كذلك محملة بالهدايا للسلطان. مقدارها مائه وتسعون عبداً ومائتين بقرة.

اعتقد إن الهدف من هذا التودد هو رغبه سمامون فى إبعاد الخطر المملوكى من بلادة مع التأكيد بأنه لن يحيد عن ولائه للسلطان المملوكى بمصر.

---

(72) Yousf Fadl Hassan: Op. Cit, 112.

(73) مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص152-153.

(74) مخطوطة تاريخ قلاوون:ج2، ص310أ.

(75) نفسه: ص 290 ب.

وبالرغم من هذه الهدايا التي قدمت ومظاهر الولاء التي ساقها الملك سمامون إلى السلطان المنصور قلاوون فإن هذا السلطان لم يكن راضيا عن نشاطات الملك سمامون وكيفما كان الأمر يبدو إن السلطان قلاوون استمع إلى الوفود ولم يقتنع بشكواها وحججها فأراد أن يتحقق فأرسل من القاهرة رسولاً إلى كل من المملكتين فاختار سنجر المقدومى إلى ملك الأبواب الذى اصطحب معه سفراء من الأبواب وسلكوا جميعا طريق البحر الأحمر خشية إن يتعرض لهم ملك النوبة إذا هم ذهبوا جنوبيا بطريق النيل واختار السلطان قلاوون علم الدين الحصنى رسولا إلى ملك دنقلا[76].

يبدو إن السلطان قلاوون اقتنع بان سمامون هو المعتدى ويؤكد ذلك ما ورد في مخطوطة تاريخ قلاوون[77] أيضا التي تذكر إن الأمير سنجر إثناء عودته إلى مصر قبض عليه ملك الأبواب سمامون وأراد قتله غير إن رعاياه ثاروا عليه خوفا من السلطان قلاوون قائلين: "أتريد إن يكون سببا في خراب ديارنا وإحلال المصائب بنا" ربما يكون ذلك اقنع السلطان قلاوون بتمرد سمامون ورغبته في الخروج عليه والراجح انه أراد التخلص من التبعية وكما هو معروف فما من ملك يمكن إن يقبل وصاية دولة أخرى على بلاده بأي حال من الأحوال ولئن سعى بعض ملوك النوبة إلى المماليك للمساعدة فقط وليس في الاستيلاء على العرش فلم يكن ذلك لكي يصبح المماليك السادة الذين يقررون الملك الذى ينتهجه النوبة وتمشياً مع هذا المبدأ فإن ملوك النوبة كانوا يتمردون على المماليك بمجرد تتويجهم.

استقر رأى قلاوون على إن يرسل حمله عسكرية أخرى لاستبدال الملك بملك أخر أكثر خضوعا ويؤيد هذا ما ذكره بن خلدون قائلا: (أرسل قلاوون العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط وعز الدين الكورانى وسار معهم نائب قوص عز الدين أيدمر السيفى وأولاد أبى بكر وعمر وشريف وهلال وشيبان[78] وقبائل أخرى.

[76] مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص 154.
[77] مخطوطة تاريخ قلاوون: ج2، ص310 أ.
[78] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج5، ص401.

تحركت الحملة من القاهرة وقوص فى 6 ذى الحجة 686). 6 يناير 1288م وانقسم الجيش إلى قسمين سار قسم منهم من الناحية الغربية للنيل بقيادة علم الدين سنجر وسار القسم الأخر بقيادة عز الدين أيدمر من الناحية الشرقية للنيل[79] متقدماً نحو دنقلا وأرسل سمامون إلى نائبه جريس صاحب الجبل يأمره بالتراجع بجنوده إلى دنقلا ربما قرر ذلك ليواجه الجيش المملوكى فى دنقلا بعد إن يكون قد انهكه السير الطويل وما إن ظهر الجيش المملوكى حتى خرج له سمامون ودارت المعركة وانتهت بهزيمة النوبيين وفرار سمامون[80] استمر الجيش المملوكى يطارد النوبة خمسة عشر يوماً استطاع خلالها إن يأسر جريس صاحب الجبل وابن خالة الملك[81] وأضح من مجريات الأمور فى علاقات المماليك بالنوبة إن هؤلاء الملوك كانوا يرضون السايده المملوكية على أراضيهم ويقاومونها بمجرد اعتلائهم العرش.

والمؤيدون لسمامون انفصلوا عنه وحتى القساوسة طلبوا الأمان من أيدمر وعادوا مع الجيش المملوكى إلى دنقلا[82].

حسب الدستور النوبى جرى تعيين ابن أخت الملك سمامون وأفرج عن جريس وأعيد إلى منصبه[83]. وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية بدليل ما ذكره أبو العباس احمد القلقشندى إن نسخة يمين أخذت على ملك النوبة الجديد عند تعيينه نائباً على السلطان قلاوون فى حكم بلاد النوبة ورأى قلاوون إن يبقى أيدمر وهو صاحب الفضل فى انتصار جيش المماليك ليكون أميرا مملوكياً مقيماً بجانب الملك النوبى الجديد وعاد الأمير علم الدين ببقية الحملة المملوكية إلى القاهرة[84].

---

[79] نفسه: نفس الصفحة.

[80] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص155.

[81] Yousf Fadl Hassan Op. Cit, P113.

[82] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك، ج1، القسم الثالث، ص752.

[83] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك، ج1، القسم الثالث، ص737.

[84] أبو العباس احمد القلقشندى، مرجع سبق ذكره، ص65.

ما إن غادر الجيش المملوكى دنقلا ظهر سمامون مرة حرى يحاول استرجاع ملكه فخشى منه الملك الجديد وجريس وفرا إلى مصر مستنجدين بالسلطان الذى اعد حملة ضخمة لإخضاع سمامون بلغت عدتها أربعين ألفا واشترك فيها عربان الوجهين القبلى والبحرى بقيادة عز الدين أيدمر والى قوص وبعثوا المراكب فى البحر بالاذوده والسلاح وتحركت الحملة قاصدة دنقلا وعند وصولهم أسوان مات الملك ودفن بها[85] فعين السلطان قلاوون بدله احد أمراء النوبة الموجودين بالقاهرة وهو ابن أخت الملك داؤود[86] اشترك مع هذه الحملة إعداد كبيرة من القبائل العربية كانوا يبحثون عن ملجأ لهم من الاضطهاد المملوكى فى مصر[87]. اتبع الجيش نفس الخطة التى سار عليها جيش الحملة السابقة فانقسم إلى قسمين سار أيدمر والى قوص فى نصف العسكر فى البر الشرقى على حين سار الافرم على رأس النصف الأخر فى البر الغربى وتعاون بنو الكنز تعاوناً صادقاً مع الحملة المملوكية لتأمين أهل البلاد وتجهيز الإقامات وتقدموا الجيش بصحبة جريس[88].

بدأ التعاون واضحا فى مناطق نفوذ جريس حيث خرج المشايخ للقاء الحملة وإعلان ولائهم إما المناطق التى ليس لجريس حكم عليها هجرها أهلها حتى سمامون تركها ويؤيد ذلك عبد الرحمن بن محمد بن خلدون[89] قائلاً: إن سمامون هرب واختبأ بجزيرة وسط النيل تبعد خمسة عشر يوماً من دنقلا وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر. ويرى يوسف فضل إن هذه الجزيرة هى جزيرة مقرات[90].

احتفل المماليك بهذا النصر فى دنقلا والبسوا الملك تاج الملك بعد إن حلف على الولاء للسلطان ودفع الالتزامات المقررة وعسكرت بدنقلا طائفة من العسكر السلطانى

---

[85] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج5، ص401.
[86] المصدر السابق، ج5، ص400.
[87] Yousf Fadl Hassan Op. Cit, P114.
[88] مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص157.
[89] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج5، ص400.
[90] Yousf Fadl Hassan Op. Cit, P114.

برئاسة بيبرس مملوك الأمير عز الدين والى قوص[91] ثم رجعت الحملة إلى القاهرة بعد تثبت السياسة المملوكية فى بلاد النوبة ولكن كعادته ظهر سمامون مرة أخرى وقبض على الأمير بيبرس العربى وأرسله إلى القاهرة وقبض على الملك الجديد بواد ما وجريس وقتلهما[92] وبلته سياسية بارعة أرسل سمامون رسالة إلى السلطان يسأله العفو ويتعهد بحسن السير والسلوك ودفع الالتزامات المالية ومع الرسالة عدد من العبيد والهدايا[93]. رضى السلطان قلاوون واقره على ما بيده فى بلاد النوبة[94] ويبدو إن السلطان أدرك قوة سمامون ولا يود تجهيز حملة أخرى لأنه كان يستعد لإزالة أخر معقل للصليبيين فى عكا[95] ولكن سمامون كعادته المعهودة امتنع عن إرسال البقط فور سماعه بوفاة قلاوون واثر الدبلوماسية على التمرد الواضح وهو معروف بالمكر والدهاء وسعة الحيلة[96] بعث سمامون برسالة إلى خليل بن السلطان قلاوون فى (689-693هـ - 1290-1293م) يتعذر فيها عن تأخير البقط غيز إن خليل رفض قبول عذره وانذره بعواقب الأمور كعادة الحكام المماليك تجاه سمامون قرر خليل إرسال حملة لعزل سمامون والقبض على أمير نوبى أخر يدعى أنى[97] فجرد خليل حملة بقيادة عز الدين الافرم الذى توغل جنوب دنقلا مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما إلا إن أنى هرب إلى بلاد الانج ولم يمنع المسلمين من المسير خلفه إلا قله الماء لان الطريق صحراوى[98].

إما سمامون فلا يعرف عنه شئ ربما مات أو قتل[99] وعاد الافرم إلى دنقلا بالغنائم والأسلاب واسر عددا كبيرا من السكان والجدير بالذكر إن هؤلاء الأسرى

---

[91] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك، ج1، القسم الثالث، ص752.

[92] نفسه: ص753.

[93] نفسه، نفس الصفحة.

[94] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج5، ص400.

[95] مكى شبيكة: السودان عبر القرون، ص47.

[96] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك ج1، القسم الثالث، ص737.

[97] مخطوطة قلاوون، ج2، ص310أ (يبدو إن هذا الأمر كان تابعا لسمامون وخرج عن السلطان)

[98] Mac Michael, H, A, :Op.Ci.P.185.

[99] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص161.

كانوا يوزعون كهدايا لأمراء المماليك حتى إذا اكتفى الجميع منهم بيع الباقون في الأسواق بأثمان زهيدة[100] في اعتقادى إن بلاد النوبة لا تشكل ذلك الخطر العظيم الذى يستحق هذه الحملات المتكررة عليها وان أسلحتهم لا تقارن بأسلحة المماليك المتطورة كما إن الجندى المملوكى كان له عتاده الحربى ودروعه التى لا يستهان بها وكان أبناء رماة الحدق فى عصر المسلمين الأوائل قد نسو ضرب السهام كما إن عدد رجالهم لم يكن بالكثرة التى تمكنها من مواجهة الجيش المملوكى والعربان معا، واعتقد إن هؤلاء العرب الذين كانوا فى معيية هذه الحملات كانوا يبحثون عن متنفس لهم فى أراضى النوبة هربا من النير المملوكى. وكيفما كان الأمر فقد أرسل السلطان خليل أميرا نوبياً يدعى بدمه وتم تنصيبه ملكاً فى دنقلا وحلف يمين الولاء والطاعة للسلطان وحلف رعاياه بالولاء للملك الجديد على أساس ولائه للسلطان قائلين لو لا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أمسكناك ونحن نرضى إن يقيم مولانا السلطان فلاحاً أو جبلياً فبلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته[101].

يبدو إن هذه الحملة عملت على تطهير بلاد النوبة من العناصر الخارجة وثبتت السيادة المملوكية عليها بالإضافة إلى الغنائم والأسرى ويذكر صاحب المخطوطة إن هذه الحملات المتكررة ذادت من اضطراب الأحوال فى بلاد النوبة حتى إن كثيراً من النوبيين هجروا بلادهم بعد تخريب دورهم بالإضافة إلى إلقاء الرعب فى قلوب جيرانهم[102].

استمرت السيادة المملوكية على بلاد النوبة حتى فى الحالات التى لم يكن للدولة المملوكية قدرة كافية والدليل على ذلك استمرارية السيادة في عهد الناصر محمد بن قلاوون الذى تولى عرش مصر وهو طفل لا يتجاوز العاشرة[103] رغم إن الناصر تولى السلطة فى وقت كانت البلاد تعج بالفوضى بعد مقتل أخيه السلطان خليل واختفاء

---

[100] مخطوطة تاريخ قلاوون: ص308-309أ.
[101] نفسها: ص308-309أ.
[102] نفسها، ص311أ.
[103] على إبراهيم حسن: مرجع سبق ذكره، ص65.

كبار الأمراء كان يحيط به الأمير علم الدين الشجاعي وزيراً له والأمير علم لدين سنجر وزيرا له وهذا يوضح إن السلطة كانت بيد هذه الفئة الراغبة في العرش ومما لاشك فيه إن اختلاف الطامعين في الأسرة المالكة النوبية ولجوئهم إلى المماليك ساعد في استمرارية السيادة علي النوبة.

تواصلت التبعية المملوكية على بلاد النوبة في (704هـ - 1304م) عندما ذهب اماي ملك النوبة[104] إلى القاهرة طالبا المساعدة فأمده السلطان بعدد من الجنود المماليك بقيادة طقصبا والي قوس واشترك فيها العربان وأمضت هذه الحملة تسعة عشر شهراً خلال سنتي (706-707 - 1306-1307م).

يبدو إن هذه الحملة أعدت للقضاء على كل الخارجين عن السلطة المملوكية لأنها بدأت بتأديب العربان الذين قطعوا الطريق ببرية عيذاب ومنها إلى سواكن وتذكر المراجع إن هؤلاء العربان كانوا ينهبون ما يجدونه من أغنام وماشية ووصلوا إلى حد بلاد التاكا حتى خشي ملك الأبواب منهم فأرسل لهم مائتي رأس من البقر والأغنام وكمية من الذرة ثم توجهوا إلي دنقلا ومنها إلي قوص[105] ومات اماي قتيلا سنة 711هـ 1311م وخلفه أخاه كرنبس على العرش فحاول إظهار ولاءه للمماليك لذا ذهب إلى القاهرة حاملا الجزية والبقط التي كانت مقررة على بلادة.

بعد إن ثبت كرنبس نفوذه كغيرة من حكام النوبة الذين سبقوه حاول التخلص من التبعية المملوكية فامتنع عن دفع الجزية 715هـ - 1315 وأثار بذلك سخط السلطان الناصر قلاوون الذي بلغ سنا تؤهله لمواجهه أعدائه فأرسل حملة في 715هـ - 1315م إلى بلاد النوبة بقيادة الأمير عبد الله نشلي الذي اسلم فحسن إسلامه وأجرى عليه السلطان محمد بن قلاوون رزقا[106].

---

[104] تقي الدين احمد بن علي المقريزي: السلوك، ج2 القسم الأول، ص7 ويسميه القلقشندي، ج5، ص277 امي إما ابن خلدون العبر ج5، ص 429 يطلق عليه اي.
[105] مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص49.
[106] أبو العباس احمد القلقشندي: مرجع سبق ذكره، ج5، ص277.

اعتقد إن هذا الأمير اعتنق الإسلام فى مصر خلال إقامته فيها ولم يعد بينه وبين المسيحية اى ارتباط أو ولاء.

إن السياسة التى انتهجها المماليك فى تعيين حاكم مسلم على بلاد النوبة تعتبر بداية النهاية فى تاريخ هذه البلاد وهى احد العوامل الحاسمة فى سقوط مملكة النوبة المسيحية وزوالها فبمجرد توليه عبد الله الملك ظهر بنو الكنز وكانوا قد صاهروا النوبة وتزوجوا من نبات ملوكها إذا ادعى أميرهم كنز الدولة بأحقيته فى الملك بعد خاله كرنبس حسب نظام الوراثة المعروف عند النوبيين ويذكر النويرى إن كرنبس ملك النوبة عندما علم برغبة السلطان فى تعيين حاكم مسلم على بلاد النوبة أرسل ابن أخته. كنز الدولة إلى الأبواب السلطانية وسأله شموله بالإنعام السلطانى فى توليته الملك قائلا إذا كان قصد مولانا السلطان إن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينتقل إليه بعدى. اعتقد إن كرنبس خشى على عرشه من المماليك ومن عبدالله نشلى (برشمبو) فأرسل ابن أخته الأمير كنز الدولة وهو من أمراء النوبة من جهة أمه وعربى مسلم من جهة أبيه من قبيلة ربيعة العدنانية وأمة شقيقة الملك كرنبس لذا كان من الأمراء الذين يحق لهم المطالبة بعرش النوبة لذا احتج به الملك كرنبس لكن السلطان الناصر رفض العرض وزج به فى السجن واعد حملة سنة 716هـ –1316م بقيادة الأمير أيبك جهاركى لتأييد عبدالله برشمبو وتعيينه ملكاً على بلاد النوبة، خاف كرنبس من مغبة عصيان السلطان واستقر رأيه على إن ينزح جنوبا إلى الأبواب ولكن ملك الأبواب لم يشأ إن يدخل فى صراع مع المماليك لذلك قبض على كرنبس وسلمه إلى القائد المملوكى الذى حملة إلى القاهرة وهكذا تولى عبدالله نشى (برشمبو) حكم بلاد النوبة ويعتبر أول حاكم نوبى مسلم إلا انه انتهج سلوكاً لم يقبله النوبة إذ إن نشأته المملوكية فى مصر أفسدت طباعة وجعلته يتعالى على أهله فكرهوه لذلك ولما رأوا فيه شموخ المماليك وتعاليهم ثاروا عليه ويذكر مصطفى محمد مسعد نقلا عن النويرى إن عبدالله غير قواعد البلاد وتعاطى نوعا من الكبر ولم تجر عليه عادة ملك النوبة

بمثلة وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة كرهوا ولايته[107] وفي سنة 717هـ - 1317م أفرج عن كنز الدولة[108] فألتف حوله النوبيون ونادوا به ملكاً والدليل قول النويرى" أنهم حيوه تحية الملك وهي قولهم موشاى موشاى، فهذه لفظة لا يخاطب بها غير الملوك[109] اعتقد إن مساندة النوبيين لكنز الدولة شجعته على محاولة الوصول إلى الملك فحارب نشلي (برشمبو) حتى قتلة وتولى كنز الدولة عرش النوبة.

تذكر بعض المراجع إن كنز الدولة لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم[110].

ربما كان يشعر كنز الدولة إن خاله الأمير أبرام أحق منه بالملك لان أبرام كان نزيل السجن في القاهرة وقد قرر كنز الدولة إن يحكم حتى يجئ خاله لاستلام العرش في يوم من الأيام. رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة ربما لشعوره إن كنز الدولة له القدرة على إقامة دولة قوية وبالتالي سيؤدى ذلك إلى إضعاف نفوذ المماليك ولذا دخل في مؤامرة مع الأمير أبرام خال كنز الدولة[111] وما أن وصل أبرام إلى دنقلا خرج إليه كنز الدولة وسلم له الملك وصار في خدمته[112].

وما إن استقر المقام بالملك أبرام في دنقلا حتى ألقى القبض على ابن أخته كنز الدولة ليفي بعهده للسلطان المملوكي.

---

[107] مصطفى محمد مسعد: المكتبة السودانية العربية، السودان، الخرطوم، مطبوعات جامعة القاهرة، 1972 ص167.

[108] تقي الدين احمد بن علي المقريزى: السلوك، ج2، القسم الأول، ص161.

[109] مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، ص167.

[110] المصدر السابق، ص168 ويعلق مصطفى محمد مسعد عن سبب امتناع كنز الدولة عن وضع التاج على رأسه هو إن التاج يحمل علامة الصليب وهذا لا يتفق وعقيدة كنز الدولة الإسلامية لكنني اعتقد إن السبب هو حق أخواله لأنه بعد إن غدر به خاله أبرام لبس نفس التاج. (تقي الدين احمد بن علي المقريزى: السلوك، ج2، القسم الأول ص161).

[111] مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، ص168.

[112] تقي الدين احمد بن علي المقريزى: السلوك، ج2 القسم الأول، ص161.

وسارت الأمور فى مصلحة كنز الدولة إذ إن خاله لم يعش أكثر من ثلاثة أيام[113] وبعدها أفرج النوبة عن كنز الدولة ونصبوه ملكاً على البلاد ولبس تاج الملك فى717هـ - 1317م[114] لم يقتنع السلطان الناصر بكنز الدولة حاكما على النوبة أو ربما أراد إن يفى بوعده الذى قطعة مع أبرام بتنصيب كرنبس ملكا على النوبة إذا ما قبض على كنز الدولة لذا أرسل حملة فى 7723هـ - 1323م بقيادة علاء الدين لخلع كنز الدولة وإعادة كرنبس ولكن كنز الدولة ما إن علم بهذه الحملة حتى هرب من دنقلا[115].

يبدو جليا إن السلطان المملوكى كان يخاف من استعراب ملوك النوبة أكثر من مسيحيتهم لأنه كان على ما يظهر يرى فى ذلك خطراً عربياً يحدق بالمماليك فى مصر وربما كان هذا الخطر اعنف من الخطر النوبى القابع فى بلاد النوبة لأنه المماليك كانوا يخشون على أنفسهم من العرب إذ ما قامت لهم قائمة سواء أكان هذا فى مصر أو فى بلاد النوبة ولهذا تعمقت عداوة المماليك للعرب الذين كانوا أصحاب الحق فى مصر بعد فتحها ومر بنا كيف سلب المماليك العرب نفوذهم ومدى معاناتهم فى مصر ثم اضطهادهم وطردهم وملاحقتهم حتى بلاد النوبة. لم يشأ كنز الدولة إن يلتحم مع الجيش المملوكى فى معركة بل سار جنوبا يبدو انه كان فى منعة من النوبة وعرب ربيعة لان إيدى المماليك لم تستطيع الوصول إليه كما إن يد ملك الأبواب لم تمتد إليه ولم يشأ الجيش المملوكى فى مطاردته فعاد أدراجه إلى مصر وسار كنز الدولة خلهم حتى غادروا مملكة النوبة واطل بجماعته على دنقلا وحارب كرنبس وملك منه البلاد[116].

---

[113] مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، ص168.
[114] تقى الدين احمد بن على المقريزى: السلوك، ج2 القسم الأول، ص161.
[115] نفسه، ص250.
[116] تقى الدين احمد بن على المقريزى، السلوك، ص250.

هكذا ثبتت أقدام كنز الدولة فى حكم بلاد النوبة وأسدل الستار على نهاية حكم المسيحيين وانتقال الملك إلى ملوك مسلمين وبداية لمرحلة جديدة فى تاريخ هذه البلاد إذ لا تذكر المراجع اسم ملك مسيحى لبلاد النوبة بعد كنز الدولة.

ج- سقوط مملكة علوه المسيحية:

اتسم تاريخ مملكة علوه المسيحية بالغموض بالمقارنة مع تاريخ مملكة النوبة وربما يعود ذلك إلى ضياع معظم أثار علوه من جهة بفعل عوامل التعرية[117] وكذلك لبعدها عن مصر ولا يفهم من ذلك أنها كانت فى معزله تماما عن مصر[118] فكنيسة علوه كانت تابعة للكنيسة المصرية وكانت علاقة الملوك ببطاركة الكنيسة المرقسيه طيبة هذا فضلاً عن العلاقات التجارية الموجودة منذ القدم بين البلدين وكذلك رغبة ملوك علوه فى استمرار العلاقة بينهم وبين المماليك وهذا واضح من الهدايا والسفراء الذين ظلوا يؤكدون الولاء والخضوع للسلطنة المملوكية. وعند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، قطعت العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة علوه وعليه توقف إرسال الأساقفة والقساوسة إلى النوبة فأهملت العبادات وهجرت الكنائس وأصبحوا يجهلون دينهم ولم يبق لهم عقيدة أو يأملون إن يكونوا مسيحيين[119].

يبدو إن مملكة علوه تأثرت كثيرا بسقوط مقرة واعتناق أهلها الإسلام ويذكر الفارز انه منذ وفاة أسقف علوه لم يخلفه غيرة بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة وتركت الكنائس دون رجال الدين فنسوا كل شئ عن المسيحية[120].

[117] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص183.

[118] Arkell. A.:More Of About Fung Origins, S.N.R.Xxv P203.

[119] Alvarez, F:Narrative Of The Portugece Embassy O.A Byssinia, London, 1881 P.65

الفارز هو قس برتقالى زار الحبشة بين سنتى 1520-1527م.

[120] Alvaez: Op.Ci.P.352

ويبدو إن تأثير الكنيسة في حياة الناس لم يكن قوياً؛ ذلك لان طقوس الصلاة في الكنيسة تؤدى بلغة أجنبية وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم الوثنية القديمة[121] عدم إنجاب الكنيسة النوبية علماء متخصصين في اللاهوت أو الفلسفة الدينية أو رجال دين ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين والشهداء مثلما كان في الكنيسة المصرية. لهذا ظل الجهاز الكنسى بيد رجال الدين المصريين وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين.

غير إن هذه العلاقات لم تلبث إن خضعت لعوامل سياسية فتأثرت الكنيسة النوبية تبعا لهذا التدخل من جانب السلطات الحاكمة فى مصر إذ منع الحاكم بأمر الله إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسيه السنوية إلى كل من الحبشة والنوبة[122] وبعدها توقف إرسال الأساقفة مدة من الزمن حتى جاء العهد المملوكى وتعرضت الكنيسة لنوع من الضغط من سلاطين المماليك فقدت بذلك مركزها الروحي واعتقد إن اعتناق النوبيين للمسيحية كان منذ البداية ضعيفا لان ابن سليم لاحظ ذلك بقوله: أنهم يعرفون الله ويشركون معه النجوم والأشجار[123]. غير إن هناك عوامل خارجية أدت إلى سقوط هذه المملكة المسيحية من هذه العوامل إن مملكة علوه تعرضت لا غارات مستمرة فى الزغاوه من القرن الثانى عشر الميلادى على طرق القوافل التجارية[124].

ربما أدى ذلك إلى ضعفها ثم النزاع المستمر بين ملوك مقرة وملوك علوه حيث إن مملكة المقرة كانت تشن الغارات على علوه للحصول على الرقيق لدفع البقط إذا لم يتوافر عندهم عدد كاف بالإضافة إلى انه سلعة تقوم مقام العملة فى البيع والشراء.

(121) Crow Foot. J. W. : Op. Cit. Pp. 142-143.

(122) مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص100.

(123) تقى الدين احمد بن على المقريزى، السلوك، ج1، ص133.

(124) Arkell. A..J: Opcit. P.199.

يبدو إن استمرار حاجة السلطنة المملوكية فى مصر إلى الرقيق هى التى أدت إلى استمرار هذا النزاع. إما من جهة الغرب فيعتقد (اركل[125]) إن قبيلة جزام التى رحلت مع غيرها من القبائل العربية من صعيد مصر فى حوالى 794هـ - 1391م واجتاحت مملكة الزغاوه حتى سيطرت على منطقة دارفور استطاعت هذه القبيلة شن هجمات على مملكة البرنو واسر افردها وبيعهم رقيقا حتى شكا سلطان برنو إلى السلطان الظاهر بن سعيد برقوق من هذه الاعتداءات قائلا: إن هؤلاء الإعراب الذين يسمون جزاما قد عاثوا فسادا فى ديار برنو وقد سبوا الحرائر من النساء والأطفال وضعاف الرجال وبيعهم لجلاب مصر والشام ويخدمون بعضهم[126] اعتقد إن هؤلاء الأعراب بعد إن اقتربوا من إطراف علوه ربما قد شنوا عليها حربا مما أدى إلى أضعافها.

من الواضح إن هذه المجموعات العربية التى نزحت إلى بلاد النوبة واختلطت بها ربما قد ضغطت على ملك علوه وجعلته ينقل عاصمة بلادة إلى كوسة[127] وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها كعاصمة لمملكة علوه. لكن هل انتقال العاصمة إلى كوسة يعنى انهيار مملكة علوه فى القرن الخامس عشر الميلادى؟ لا اعتقد ذلك؛ لان العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها جميع الأقاليم وذلك لعدم انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد[128] وما نستطيع ذكره هنا أنه فى هذه الفترة ظهرت ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط[129] كان لها اثر واضح فى انتشار الإسلام.

(125) Arkell, A,. J: Opcit. 199-200.

(126) أبو العباس احمد القلقشندى: مرجع سبق ذكره، ج8، ص116.

(127) Craw Ford O. G.S.: The Fung Kingdom, P. 27 Note 29.

يقول إن كوسة تقع بالقرب من زانكور عند وأدى الملك حيث عثر على بقايا خار ومبانى تشبه ما كان موجودا فى مملكة علوه المسيحية.

(128) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مرجع سبق ذكره، ج5، ص429.

(129) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ج2، ص106-107.

الفصل الثاني

قيام دولة الفونج

أ- دخول العرب السودان وأثرة على قيام دولة الفونج الإسلامية

ب- أصل الفونج

ج- العلاقة بين الفونج والعبدلاب

الفصـــل الثانـــى
قيـــام دولـــة الفـــونج

أ- دخول العرب السودان وأثرة على قيام دولة الفونج الإسلامية:

اشتركت عدة عوامل فى قيـام دولـة الفـونج الإسـلامية فـى السـودان فـى 910هـ - 1505م إلا إن أهم هذه العوامل الهجرات العربية التى كانت النواة الأولـى فى تأسيس هذه السلطنة وذلك منذ إن أخذت القبائل العربية فى الاستقرار فى السـودان آخذة فى الازدياد حتى نجحت فى السيطرة اقتصاديا واجتماعيـا ودينيـا ثـم سياسـيا بتأسيس هذه السلطة.

أولا: الآثـار الاقتصـادية :

كان السودان مقسما آنذاك إلى ثلاث ممالك هى نوباديا وعاصـمتها بجـراش[1]. والمقرة وعاصمتها دنقلا وعلوة وعاصمتها سوبا[2] والجدير بالذكر انـه فيمـا بـين 580-652م اتحدت المملكتان الشماليتان نوباديا والمقرة وعرف الاتحاد باسم النوبة[3]. وتمتد من أسوان حتى كبوشية وعلوة تمتد من كبوشية شمالا إلى القطينة جنوبا وشملت جهات الاتبرا والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقا وبعض جهات دارور وكردفـان غربا[4] وقد عاصرت هذه الممالك مملكة البجة بشرق السودان[5]. كان هـذا الوضـع سائدا فى بلاد السودان الذى تعرض لهجرات عربية مستمرة عرفها قبل ثلاثـة آلاف

---

(1) هى مدينة فرس على الحدود

(2) تقى الدين احمد بن على المقريزى: المواعظ، ج1، ص193.

(3) نفسه، ص200 نص عقد الصلح الذى عقدة عبد الله ابن سعد لعظيم النوبة وأهل مملكتـه (حتـى ارض أسوان إلى حد ارض علوه).

(4) مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص79.

(5) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، المجلد الثالث، ص277.

سنة قبل الميلاد[6] سلكت في دخولها عده طرق أولها طريق الحبشة[7] وطريق البحر الأحمر من موانئ عيذاب وباضع وسواكن وجموع هذا الطريق سارت في اتجاهين اولهما عبر الصحراء إلى داخل السودان والثاني من الحبشة عن طريق النيل الأزرق ثم طريق مصر والذي يمر عبر أسوان وكرسكو إلا إن قلة السيادة قللت من فعاليته لهذا سلك المهاجرون طريق النيل إلى دنقلا[8] ثم عن طريق وادي الملك ووادي المقدم حتى وصلت جموعهم مملكة الكانم والبرنو في نهاية القرن الرابع عشر وكانوا قد بلغوا تلك الجهات قبل أزمان طويلة عن طريق المغرب.

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة لاتصال العرب ببلاد السودان إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانئ السودان من ناحية أخرى. واتخذ التجار العرب من بعض النقاط على الساحل مراكز لهم يتوغلون منها بسلعهم حتى وأدى النيل[9] وبعد الفتح الاسلامي إلى مصر كفلت الدولة الإسلامية الحماية لهؤلاء العرب فطاب لهم المقام في أجزاء مختلفة من السودان[10].

ازدادت جماعات العرب ببلاد البجة خاصة قبيلتي جهينة وربيعه اللتان أغراهما وجود الذهب والزمرد في وأدى العلاقي الذي وصفة اليعقوبي بأنه كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم وبه أسواق وتجارات وبه قوم من ربيعة وجهينة وذكر ابن خلدون إن جهينة كاثرت الأمم في الاراضي السودانية[11].

---

[6] محمد سعيد القدال: تاريخ السودان الحديث، 1821~1955، مصر، القاهرة، شركة الأمل للطباعة والنشر، 1993م، ص1.

[7] الشاطر بصيلي عبد الجليل: معالم تاريخ سودان وأدى النيل (في القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر) مصر، القاهرة، مطبعة أبو فاضل، 1955م، ج1، ص7.

[8] يوسف فضل: مقدمة في تاريخ الممالك، ص12.

[9] محمد عوض محمد: مرجع سبق ذكره، ص40.

[10] احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي: البلدان، هولندا، لندن، نشر دي خويه، 1851، ص122.

[11] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكرة: ج5، ص929.

إما مملكة علوة فتعود علاقتها بالعرب منذ القرون الأولى لظهور الإسلام ويروى اليعقوبى إن المسلمين كانوا يترددون على سوبا فى أيامه[12] وكذلك ذكر المقريزى عن ابن سليم الاسوانى إن المسلمين كان لهم رباط خاص فى سوبا[13].

وعلى كل حال فقد كان لموقع بلاد النوبة (الوسط بين ممالك السودان) اثر اقتصاديا مميز، لأنها أصبحت معبرا للتجارة إلى داخل السودان ومن جهة أخرى لعبت تضاريسها دورا فى إن تكون محورا للزراعة والرعى فضلا عن وجود بعض المراعى فى بلاد علوه[14] كما كانت توصف بكبر مساحتها التى تفوق الحبشة آنذاك ثم لكثرة المدن والعمارة ويخترقها النيل[15] وقد بلغت حدودها صعيد مصر شمالا حتى البحر الأحمر شرقا وضمت أراضيها كثيرا من السهول التى يصعب سلوكها إلى داخل السودان[16] .

ويمكننا إن ندرك حالة تلك البلاد من خلال ما ذكره المقريزى من إن المدن المزدهرة بها كانت تقع على النيل مما سهل على القوافل التجارية التى تغدو إليها وقدر إن المسافة بين أسواق دنقلا تبلغ أربعين يوما فى عمائر متصلة[17] وكانت دنقلا حاضرة دولة المقرة مركزاً تجارياً مهماً كما إن المسافة بينهما وبين أول بلاد مملكة علوة تفوق المسافة بين أسوان ودنقلا مما سهل السير عبر هذه المسافات ما كانت تحتوية من قرى وضياع ومدن وجزائر متلاصقة[18].

وبلاد علوه أوسع من بلاد النوبة وتقع بين النيلين الأزرق والأبيض وهذه المساحة تغطيها الزراعة ويحتاج الداخل إلى جهاتها إلى حوالى ثلاثة اشهر للوصول إلى قراها

[12] احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى، مرجع سبق ذكره ص122.
[13] تقى الدين احمد بن على المقريزى، المواعظ، ج3، ص262.
[14] مصطفى محمد مسعد: الإسلام، ص101.
[15] أبو القاسم إبراهيم محمد الفارسى الاصطخرى: مسالك الممالك، مصر، القاهرة، مطابع دار القلم، 1961م، ص36.
[16] أبو القاسم محمد بن حوقل: صورة الأرض، هولندا، ليدن، نشر كرامرز، 1910، ص59.
[17] تقى الدين احمد بن على المقريزى: المواعظ، ج1، ص191.
[18] نفسه، ص192.

ويحتاج إلى ثلاثة أيام للوصول إلى اقرب نقطة بها[19] وتعتبر سوبا هى حاضرة الدولة ومركزها التجارى وفيها أبنية حسان ودود واسعة وكنائس كبيرة الذهب وبساتين[20] وحقول ومزارع كما إن النيل يتشعب حتى يصل إلى إطراف النهر الذى يجف[21] ومتملك علوه أكثر مالا من متملك المقرة وبلدة أخصب وأوسع[22].

يتضح من وصف ابن سليم ما تتميز به هذه الممالك خاصة علوة التى تميزت باتساعها وهطول الأمطار فيها وتور المراعى والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية التى زحفت من كل حدب وصوب فطبيعة أراضى علوة تناسبهم أكثر من رقعة دنقلا الضيقة لذا استوطنتها جماعات عربية مما جعل ممتلك النوبة يطالب بعقد صلح مع العرب الذين يمرون ببلاده تجارا غير مقيمين[23]. وعلى الرغم من إن هذه الاتفاقية تمنع بقاء العرب فى بلاد النوبة إلا إننا نجد جماعات من جهينة قد حطت رحالها فى أرض النوبة وذلك ما بين الشلال الأول والثانى حيث نزل الجوابرة أحفاد جابر الصّحابى بين الشلال الأول وفى السبوع نزل الكنوز وبين جبل دوسة والشلال الثالث نزل جماعة ينسبون إلى قريش[24].

واصلت القبائل العربية تدفقها فى سهول السودان فانتشرت بنو هلال فى شمال كردفان واستقرت بها واستوطنت الكبابيش والتعايشة بمناطق البقارة الحالية وواصلت قبائل ربيعة سيرها متتبعة نهر النيل والنيل الأزرق حتى استقروا على خدود إثيوبيا كما سيطرت الشكرية على سهول البطانة[25].

---

(19) احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى: البلدان، ص90.

(20) تقى الدين احمد بن على المقريزى، المواعظ، ص193.

(21) ربما يقصد به نهر الدندر (مكى شبيكة: السودان عبر القرون، ص53).

(22) مصطفى محمد مسعد: المكتبة السودانية، ص102.

(23) تقى الدين احمد بن على المقريزى، مرجع سبق ذكرة، نفس الصفحة.

(24) محمد إبراهيم أبو سليم: الساقية، السودان، الخرطوم، معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية، الطبعة الأولى، 1980، ص208.

(25) عبد المجيد عابدين: من الأدب الشعبى السودانى، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ص 5-8.

أما بالنسبة لبلاد البجة فقد ذكر ابن حوقل بأنها بلاد صغيرة طويلـــة تمـــر فـــي الجنوب بين نهر النيل وبحر القلزم وهي فيما بين الحبشة والنوبة[26] اعتقد إن ذلك كان أغراء للعرب بجانب ما كانت تزخر به بلادهم من مناجم الذهب والزبرجد والزمـــرد وأنواع أخرى من المعادن تنتشر حقولها بطول بلادهم[27] كمعادن الفضـــة والنحـــاس والحديد والرصاص؛ بل أنها تفردت بوجود معدنين ذكرتهما المصادر وهما المرقتشـــا والجميشت[28] بالإضافة إلى ذلك وجدت بعض الحجارة التي تعر ببشط والتـــي أشـــيع أنها إذا بلت بزيت أضاء مثل الفتيلة ويبدو إن هذه المعادن تميزت بالجودة كلما اتجهت إلى الداخل جنوبا فكان هذا سببا في جذب وانتشار العرب داخل بـــلاد البجـــة[29] لـــذا نجدهم انتقلوا إليها بالعيالات (بالأزواج) والذرية[30] وهذا دليل على استقرارهم.

ومما شجع العرب على الإقامة بأرض البجـــة إن البجـــة كـــانوا لا مـــدن لهـــم ولا زرع[31] وبجانب ذلك أنهم لا يميلون إلى العمل بالتعدين[32] بل يشتغلون بتربيـــة الماشية ويتبعون مراعيها حيث ما كانت منتقلين بخيامهم التي يشيدونها من الجلـــود[33] والبجة ليسوا أشرارا هم أهل سلم وليست دارهم بدار حرب[34] ويتصفوا بـــأنهم أهـــل كرم وسماحة[35] بالإضافة إلى أنهم لا يسرقون ولا يغيرون علـــى غيـــرهم[36] وهـــم يقاسمون من يعمل معهم في المعدن[37]، إلا إن الهدندوة وهم فرع من البجـــة بحكـــم نشأتهم في البادية وخارج المدن بدأوا يغيرون على الطـــرق فـــي بورتســـودان لـــيلا ويشيعون القلق والرعب للاهالي في خور اربعات وغيرة ولا أستطيع إن أعمـــم ذلـــك علي كل القبيلة.

[26] أبو القاسم محمد بن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص55.
[27] احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي: مرجع سبق ذكره، ج1، ص155.
[28] نوعان من المعادن انتشرت في بلاد البجة.
[29] تقي الدين احمد بن علي المقريزي، مرجع سبق ذكره، ص194-195.
[30] مصطفى محمد مسعد: المكتبة السودانية، ص14، هامش رقم2.
[31] نفسه، ص59.
[32] تقي الدين احمد بن علي المقريزي: المواعظ، ج1، ص195.
[33] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص119.
[34] أبو القاسم محمد بن حوقل، مرجع سبق ذكره، ص56.
[35] تقي الدين احمد بن علي المقريزي، مرجع سبق ذكره، ص280.
[36] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص119.
[37] أبي جعفر محمد بن جرير الطبري مرجع سبق ذكره، ج8، ص203-204.

على كل أدت صفات السلم والسماحة التى اتصفوا بها إلى جذب القبائل العربية إلى منطقتهم وعبور البحر الأحمر طلبا للثراء والكلأ والمراعى حتى إن سفنهم كانت تتردد بصورة منتظمة بين شواطئة وهى تنقل العاج اللبان والذهب والرقيق[38] وأول إشارة لتملك العرب زمام التجارة بأرض البجة كانت فى عهد الرومان حيث ألت السيادة لقبيلة بلى اليمنية والتى عهد إليها الرومان بإدارة مشروعاتهم التجارية عبر البحر الأحمر كما إن رجالها يقومون بنقل المتاجر بين شاطئة ويوفرون الحماية للتجارة وسرعان ما أدى هذا إلى استقرارهم فى بلاد البجة[39] واخذ هذا الاستقرار فى التنامى فى العهد الاسلامى حتى سيطرت على العمل بالمناجم بقيادة ربيعة وزعامة بشر بن مروان الذى عرف بصاحب المعدن[40] وكذلك نزلت بالمعدن جماعات من بلى وجهينة وبنى سليم ومضر قاصدون التبر[41]. وبجانب هذا فقد سيطر المسلمون على العمل التجارى ببلاد البجة بما كانوا يأتون به من بضائع تمتاز بالجودة[42] وخاصة القطنية والصوفية[43].

ثانيا : الآثار الاجتماعية :

بعد إن صارت للعرب السيطرة التجارية وأصبحت لهم الغلبة العرقية والسلالية وأسهموا فى الحياة الاجتماعية خاصة بعد دخول العرب فى أراضيهم فى شكل قبائل مثل قبيلة بلى اليمنية التى استقرت فى أراضى البجة وكان لها تأثير واضح فى حياتهم[44] والجدير بالذكر إن الفتوحات العربية لمصر شكلت حلقة مهمة فى تدفق القبائل العربية لهذه البلاد بعدما اتجهت قواتهم لضمان المحافظة على إطراف مصر من ناحية الجنوب وتامين طريق التجارة[45] وقد بلغت جيوشهم بلاد النوبة ثم اتجهوا

[38] عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى الخلافة العباسية، مصر، القاهرة، دار النهضة للنشر، 1976م، ص43.
[39] نفسه، ص27.
[40] مصطفى محمد مسعد، السلام، ص 14-15.
[41] تقى الدين احمد بن على المقريزى، مرجع سبق ذكره، ص278.
[42] احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى: مرجع سبق ذكره، ص90.
[43] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص42.
[44] عطية التوصى: مرجع سبق ذكره، ص27.
[45] أبو الحسن على بن الحسين المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين عبد المجيد، مصر، القاهرة، 1367هـ - 1948م، ج3، ص 38-39.

إلى بلاد البجة ولكنهم عدلوا عنها بعد ما قيل لهم إن ليس لهم ملك[46] ويرى ابن حوقل إن جماعات من عرب الحوف خاصة قيس عيلان هاجمت البجة لتعديهم على أهل فقط[47] ولا يبعد إن يكون هؤلاء قد استقروا بتلك الجهات[48].

ولما زادت غارات البجة على المسلمين بريف مصر هاجمهم عبد الله بن الحبحاب السلولي ووقع معهم هدنة[49] 107هـ- 725م اتاحت للعرب الدخول إلى بلاد البجة وعملت على استقرارهم وبهذا استطاعوا إن يفدوا في شكل قبائل ينزلون منازل المعدن.

هجمات البجة هذه لفتت أنظار المسلمون لغزوها بهدف تامين حدودهم وتجارتهم فكان إن توجه إلى ديارهم عبدالله بن الجهم 232هـ-841م الذى هزم البجة وانتهى الأمر بينهم بعقد معاهدة بينة وبين رئيسهم كنون بن عبد العزيز[50] تعتبر هذه المعاهدة مهمة في تاريخ العلاقة بين العرب والبجة. وموضع الأهمية هنا إن بلاد البجة أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية. ولم يكد يمضى أكثر من ست سنوات على حملة بن الجهم حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة فى عام 238هـ -838م إلى العلاقى بعد إن وصلتها أبناء المعادن[51].

ومما لاشك فيه إن هذه الجماعات الإسلامية تركت لونا من التأثير فيمن اختلطت بهم من البجة بل إن بعضهم تخلف فى بلاد البجة وتعلم اللغة البيجاوية والدليل على ذلك إن ذكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبدالله بن إسماعيل القرشي قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداويه[52].

[46] تقى الدين احمد بن على المقريزى: مرجع سبق ذكره، ص199.
[47] هى قوص بصعيد مصر (احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى، مرجع سبق ذكره، ص 171).
[48] أبو القاسم محمد بن حوقل، مرجع سبق ذكره، 57.
[49] أبو القاسم عبد الرحمن القرشي بن عبد الحكم، مرجع سبق ذكره، ص189.
[50] تقى الدين احمد بن على المقريزى، مرجع سبق ذكره، ج1، ص195.
[51] أبو القاسم محمد بن حوقل، مرجع سبق ذكره، 53.
[52] تقى الدين احمد بن على المقريزى، مرجع سبق ذكره، ج1، ص196.

أغار البجه مرة أخرى على صعيد مصر فما كان من الخليفة المعتصم إلا إن أمر قائدة عبدالله القمى بالهجوم على البجة الذى نجح فى الانتصار عليهم. والجدير بالـــذكر إن هذه المعركة كانت الحد الفاصل لقوة البجة العسكرية إذ لم يحاولوا مهاجمة العرب بعدها مرة أخرى وأصبحت بلادهم تستقبل المزيد من القبائل العربية لاستغلال منــاجم الذهب والزمر وبات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية.

ويتضح اثر العرب فى بلاد النوبة من استقبالها للمهاجرين العرب مـــن ربيعـــة وجهينة ويبدو إن هذه القبائل ارتبطت معرفتها بهذه البلاد بالتجارة وان العرب كـــانوا كثيرا ما يفدون إليها مما أغرى بعضهم بعد الفتح الاسلامى بالاشتراك فـــى حمـــلات التأديب التى أرسلت لبلاد النوبة وانتهت بعقد اتفاقية البقط التى وردت الإشـــارة فيهـــا لحفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينة دنقلا وهذا يدل على إن العـــرب كـــانوا بالقدر الذى اتاح لهم بناء المسجد لممارسة شعائرهم[53] هذه الاتفاقية اتاحـــت للعـــرب فرصة الدخول لبلاد النوبة تحت حماية ملوكها والاستقرار فيها والدليل قول المسعودى (بان ملك النوبة اشتكى إلى الخليفة من إن العرب اخذوا فى شراء الأرض فى بـــلاده وامتلاك الضياع فيها)[54].

هذه الاتفاقية اتاحت للعرب الاستقرار فى بلاد النوبة والاحتكاك بأهلها ومعرفـــة عقيدتهم ولغتهم وقد رحب النوبة بهذه المصاهرات التى ضمنت لهم سندا قويـــا وســـط عوامل الضعف التى اجتاحت البلاد[55] وهكذا انتسب العرب إلى المناطق التى حلو بها فأصبحت تعرف بأسمائهم خاصة القبائل صاحبة النفوذ مثل دار الشايقية ودار جعل[56] ووضح اثر استقرار العرب فيما ذكرة ابن سليم بان لهم رباطـــا فـــى ســـوبا[57] هـــذا بالإضافة لإدخال العرب وسائل النقل فى الجزيرة العربية حتى إن ابن سليم أشار إلـــى أنها خيل عتاق وصهب عراب[58] سارت هذه القبائل متتبعة المراعى حيـــث اتجهـــت

---

(53) نفسة، ص200.

(54) أبو الحسن على بن الحسين المسعودى، مرجع سبق ذكره، ج2، ص42.

(55) شوقى عطا الله الجمل، مرجع سبق ذكره، ص236.

(56) النشاط بصيلى عبد الجليل، مرجع سبق ذكره، ص4.

(57) تقى الدين احمد بن على المقريزى: مرجع سبق ذكره، ص193.

(58) نفسه، نفس الصفحة.

نحو جنوب غرب كردفان وجنوب شرق نهر عطبرة إلى النيل الأزرق وقد وجدت هذه القبائل فى إقليم كردفان مراعى صالحة لتربية الإبل[59] ولم تلبث جهينة بعد إن تكاثرت فى السودان القبلى إن تتجه نحو الغرب وكونت المجموعة الجهينية فى دارفور[60] وهكذا ظهرت فى تلك المناطق قبائل مثل بنى جرار والمحاميد وغيرها.

ظهرت فى شرق دارفور الرزيقات والتعايشة وبنى هلبة ثم البديرية فى غرب دارفور والحمر وبنى خزام وفى وسطها فزارة والهلالية[61].

من المؤكد إن هذه القبائل لم تدخل كلها دفعة واحدة بلى كان ذلك تدريجيا مما هيأ لها فرصة الاحتكاك بالاهالى ونتج عن ذلك التأثير الواضح فى كل مجالات الحياة.

وكان لمعاملة العرب الحسنة لأهل البلاد الأصليين والتى جذبتهم إليهم وتسمى المولدون منهم بأسماء عربية. إما اللغة العربية فقد لازمتهم؛ لأنها لغة القران وتؤدى بها صلاته مما دفعهم إلى تعليمها[62].

يبدو إن تأثير العرب في بلاد البجة كان كبيرا وتجدر الإشارة إلى تلك القرية التى كان يسكن فيها العرب والمسلمون فى خور نبت بالقرب من مدينة سنكات فقد عثر على بعض شواهد لقبور عربية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى الهجرى منتصف القرن الثامن الميلادى (760م)[63] هذا بالإضافة إلى قبور يعتقد أنها لاكسوميين مثل قبر اكسوم يعلوم مما يدل إن تأثير العرب الاسلامى كان كبيرا فى تلك الجهات.

---

(59) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، مصر، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1963م، ج1، ص106.

(60) رجب محمد عبد الحليم: العروبة والإسلام فى دارفور فى العصور الوسطى، مصر، القاهرة، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى، ص 294.

(61) نفسه نفس الصفحة.

(62) الشيخ الأمين محمد عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى عهد مالى وسونغى، السعودية، جدة، المجمع العلمى، الطبعة الأولى، 1979م ص27.

(63) Crawford. O.G.S: He Stone Tombes of the N.E.Sudan. Kush. No.2 . 1954. P.86.

يبد إن الأمر المهم فى هذه القرية التى استقر فيها العرب المسلمون هو إن بعض سكانها كان يعرف الكتابة العربية وكان بها مدرسة لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة.

هذا الموقع لا يزال بكرافا المنبين لم يكتشفوا بعد إبعاده الأثرية وعسى إن تجى بعثات تهتم بالآثار العربية الإسلامية لتكتشف ما أغلق علينا حتى الآن وأخيرا ادخل العرب نظام توريث الابن بدلا عن توريث البنت وابن البنت[64].

ثالثا: الآثار الدينية:

طلائع الدعوة الإسلامية كانوا من التجار ورغم أنهم غير محترفين للدعوة لكنهم نجحوا فى جذب الناس عن طريق القدوة الحسنة والعمل الطيب[65] ونلمس اثر ذلك فى بلاد البجة قوافل الحجيج التى كانت تمر بديارهم ثم المسجد الذى ورد فى شروط اتفاقية عبدالله بن أبى السرح بن الجهم ولقد كان للمسجد دوزة فى نشر الدعوة الإسلامية[66] هذا بالإضافة إلى جمع صدقات من اسلم من البجه[67] هذا دليل على إقامة بعض المسلمين في هذه الجهات.

إما بلاد النوبة التى ذكر إن سكانها صاروا لا هم بالمسيحيين ولا بالمسلمين ولا باليهود[68] فقد أضبح أمرهم يختلف، لان العرب نشروا عقيدتهم منذ الفتح الاسلامى ونستقرئ ذلك من اتفاقية البقط التى ذكرت مسجدا للعرب طلبوًا من ملك النوبة كنسة واسراجه وتكرمتة[69].

---

[64] الشيخ الآمين محمد عوض الله، مرجع سبق ذكره، ص60.

[65] إبراهيم احمد العدوى: التاريخ الاسلامى إفاقة السياسة وابعادة الحضارية، مصر، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، 1976م. ص385.

[66] تقى الدين احمد بن على المقريزى: المواعظ، ص200.

[67] نفسة، ص195.

[68] توماس ارنولد: الدعوة الإسلام، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرون، مصر، القاهرة، 1947م، ص 132-133.

[69] تقى الدين احمد بن على المقريزى: مرجع سبق ذكره، ص200-202.

وبهذا تمتعت العقيدة الإسلامية بحماية الدولة مما ساهم في إن يتعرف عليها الاهالي من خلال إقامة المسلمين بالمسجد وحتى لا ينسى المسلمون في هذه البلاد عقيدتهم وإخوانهم الداخلين معهم في الإسلام فقد ارسلو لبغداد فأتتهم بعثة لتعلمهم أمور دينهم[70].

أورد نعوم شقير خبرا لمسجد يقول عنه إن في دنقلا العجوز جامعا قائما على خرائب كنيسة قديمة كبيرة وفي واجهة الجامع حجر من الرخام مكتوب عليه بالعربية[71] كان له دور في نشر العقيدة.

في عهد الدولة الفاطمية قويت العلاقة بين النوبة والعرب إذ أرسل القائد جوهر الصقلي عقب فتحة لمصر الداعية الاسلامي عبدالله بن احمد بن سليم الاسواني إلى بلاد النوبة ليدعو الملك قيرقي (جورج) إلى الدخول في الإسلام[72] وهكذا أخذت الدعوة الإسلامية تتسرب إلى بلاد النوبة حتى إننا نجد إن المسلمين بلغوا في سوبا من الكثرة بالقدر الذي جعلهم يسعون لأخذ الإذن لبناء مسجد في سوبا حاضرة مملكة علوه[73] كما أحاطت الدولة المسلمين برعاية فائقة بالدرجة التي جعلت الوزير بدر الجمالي يرسل احد امرائة للتحقيق في نبأ مردة إن ملك النوبة هدم للمسلمين مسجدا في بلدة[74].

وكثيرون من الفقهاء الذين جاءوا إلى دولة الفونج وكان لهم دور فعال في تعليم الناس أمور الدين أمثال أولاد جابر والشريف حمد أبو دنانة وغلام الله بن عائد واحفادة.

---

[70] حسن الفاتح قريب الله: التصوف في السودان إلى نهاية عهد الفونج، السودان، الخرطوم، آداب جامعة الخرطوم 1987م – ص10.
[71] تحدثنا عن هذا المسجد في فصل سابق وتعتقد الباحثة انه غير المسجد الذي ورد في اتفاقية البقط (راجع ص).
[72] مصطفى محمد مسعد: المكتبة السودانية، ص91.
[73] ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، السعودية، جدة، مطابع سحر، 1989م، ص7.
[74] راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مصر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 1948م، ص235-236.

رابعاً: الآثـار السـياسـية:

نتج عن اشتغال العرب بالتجارة واستقرارهم فى بلاد السودان ثم نشرهم لعقيدتهم إن كان لهم تأثير سياسى على اهالى تلك البلاد ونتبين ملامح ذلك من وجود مستعمرة عربية قديمة عاشت لأكثر من قرن 203هـ- 345هـ/ 825-940م فى خور نبت علـى بعد سبعين ميلا شمال شرق محطة هيا وكان ذلك بأرض البجة[75].

ثم إن الاتفاقيات التى ابرمها العرب مع ملوك البجة والتى تضمنت فى بنودها بان يدفع ملوك البجة لخليفة المسلمين الجزية تضمنت أول مظاهر السيادة للعـرب علـى أمور هذه البلاد[76] ومن ثم أدى استقرار العرب بتلك البلاد إلى توثيق صلتهم بأهلهـا خاصة البيت الحاكم وقد كانت المصاهرات أداة مهمة فى تطوير العلاقات السياسية بين الشعوب المختلفة هذه المصاهرات مارستها القبائل العربيـة فـى مختلـف العصـور فساعدتهم على إن يستولوا على ملك البجة ذلك إن البجة كانوا على عادة الأعاجم فـى توريث البنت مما ساعد على انتقال الملك إليهم.

والمعلوم إن العرب وجدوا مقاومة عنيفة من النوبيين وساعدهم فى هذا جغرافيـة بلادهم[77] التى حالت دون دخول العرب إليها بالإضافة إلى مهاراتهم فى فن الحـرب والرمئ حتى عرفوا برماة الحدق.

اعتبرت اتفاقية البقط التى فتحت بها بلادهم المؤشر السياسى الأول الذى اخضـع ملوك النوبة للمسلمين وجعلهم يدفعون مع الجزية ثلاثمائة وستين عبدا سنويا[78] هؤلاء كانوا نواة الجيوش الإسلامية وللدعوة فى بلادهم وكذلك كانت مصاهرة العرب للنوبـة سببا فى إن يؤول عرش النوبة إلى بنى الكنز فعملوا على إسقاط ملك النوبـة وتـولى السلطة بمساعدة الفاطميين[79].

---

[75] حسن مكى محمد احمد: من مضامين الثقافة السنارية، مجلـة الدراسـات الأفريقيـة، السـودان، الخرطوم، العدد الثامن، ديسمبر 1999م، ص 18-19.

[76] أبو العباسى احمد القلقشندى، مرجع سبق ذكره، ج5، ص78.

[77] حسن إبراهيم حسن: مرجع سبق ذكره، ص103.

[78] أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى: مرجع سبق ذكره، ص92.

[79] محمد ربيع القمر: قراءة جديدة فى اتفاقية البقط، السودان، الخرطوم، مجلة الداره، العدد الثـانى، 1416هـ، ص162.

وأخذ نفوذ بنى الكنز يمتد حتى منطقة عيذاب وبلغ من شدة تأثرهم ببلاد النوبة أنهم احتفظوا باللهجة النوبية حتى بعد اعتناق النوبة الإسلام فى القرن الثالث عشر[80].

وبهذا نجح العرب فى نقل المجتمع السودانى من مجتمع رعوى متفكك إلى مجتمع زراعى مستقر وبهذا عاشوا حياة أساسها القبيلة تلك التى عرفوها فى الجزيرة العربية وكذلك ادخلوا نظام شيخ القبيلة ثم شيخ المشايخ يتولاها شيخ أقوى القبائل[81] وبهذا فتح النظام القبلى المجال لكى يذوب أهل السودان فى مجتمع العـرب[82] وانتقلـت ملكيـة الأرض بعد إن كانت خاصة بالملك أصبحت للجماعة القبلية توزع عليهم فـى مقابـل ضريبة تؤدى إلى زعيم الدار[83].

لما وضحت عملية الإسلام وشيوع الثقافة العربية والإسلامية وانتشـار القبائـل ظهرت دويلات ومشيخات إسلامية نشأت على ما كان قائما من دويلات وكانت هـذه الدويلات والمشيخات قد استكملت مراحل تطورها وأخذت تتطلع إلى زعامـة سـلطة مركزية[84].

ب- أصـــل الفـــونج:

اكتنف ظهور الفونج كثير من الغموض وذلك لقلة المصادر الوطنيـة ولصـمت المصادر العربية المعاصرة[85] ولا توجد اليوم إمام المؤرخين سوى روايات متضاربة حول اصل الفونج الأمر الذى أثار جدلا لم ينته بعد حتى ينجح علماء الآثار واللغـات فى كشف النقاب والوصول إلى رأى قاطع حول أصلهم.

---

[80] بركات موسى الحواتى: جهينة وربيعة رأس الرمح العرب الاسلامى فى السودان، مجلة حروف، السودان، الخرطوم، العدد الرابع، يونيو 1993م. ص52.

[81] حسن إبراهيم حسن: مرجع سبق ذكره، ص103.

[82] ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص10، وأيضا عون الشريف قاسم: السودان فـى حياة العرب وأدبهم، مجلة الدراسات السودانية العدد الأول، المجلد الأول، يوليو 1968م، ص18، عبد الحميد متولى: تطور نظم الحكم فى السودان منذ أقدم العصور، مصر، القـاهرة، الطبعـة الأولى، 1969م، ج1، ص107.

[83] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص3.

[84] مصطفى محمد مسعد: السلام، ص205.

[85] يوسف فضل حسن: مرجع سبق ذكره، ص45.

يرجع الباحثون اصل الفونج إلى واحدة من ثلاث مناطق هي:

1-الأصل الاموى:

معظم النسابة السودانيون ينسبون الفونج إلى بنى أمية وتذكر المصادر العربية إن بعضا من أمراء بنى أمية الذين هربوا من ضغط العباسيين بعد سقوط دولتهم[86] ولجأوا إلى الحبشة وعلم بنو العباس بهم فأرسلوا إلى النجاشى يريدون منه تسليمهم؛ وألا أقاموا عليه حربا فحار النجاشى لأنه لم يرد أن يسلم قوما دخلوا فى حماة إلى أعدائهم ولا أن يتحمل عناء الحرب فأرسل هدية إلى العباسيين وأمر الأمويين فخرجوا وسكنوا الجبال التى فى أعالى الجزيرة[87] وكان سكانها من السود وكثر تسريهم فغير ذلك من لونهم[88]. إما الفونج أنفسهم يؤكدون أنهم من ذرارى الأمويين ويشير إلى ذلك كل من المقريزى والمسعودى عن بقايا هجرة الأمويين إلى بلاد النوبة وساحل البحر الأحمر ويبدو أن بعضهم استقر فى بلاد النوبة ثم انتقل منها إلى ارض الجزيرة أو أنهم لجأوا إلى أراضى الحبشة ومنها إلى الجزيرة وان استقرارهم فى مناطقهم هذه يرجع لعام 132هـ (714م)[89].

وقد ترجع أقدم أشارة خطية إلى صلة الفونج بالأمويين فى وثيقة ترجع إلى الربع الأول من القرن السابع عشر بعثها السلطان محمد بادى (ولعلة بادى سيد القوم) إلى بنى أمية الساكنين دار دنقلا يوضح فيها انه اموى مثلهم[90]. ويبدو أن هدف الوثيقة تأكيد نسب الفونج الاموي لأهل دنقلا لان تاريخ الوثيقة يوافق توتر علاقات الفونج بالعبدلاب إلى أن اقتتل الطرفان فى معركة كركوج حيث تمت هزيمة العبدلاب وهرب بعضهم إلى دنقلا وأعلنوا رأيهم فى نسب الفونج ولم تصف العلاقات إلا بعد وساطة إدريس ود الأرباب. وهناك مخطوطة ترجع إلى القرن السابع عشر الميلادى تفيد بان الفونج من العمرين سلالة سليمان بن عبد الملك بن مروان الاموى الذى هرب من

[86] Macmichael H. A:Op. Ci, P. 36-37.

[87] الجزيرة المقصود بها المنطقة الواقعة بين النيلين الأبيض والأسود وتحد شمالا ملتقى النهرين وجنوبا بالخط الذى يفصل بين كوستى على النيل الأبيض وسنار على النيل الأزرق.

[88] نعوم شغير: مرجع سبق ذكره، ص307.

[89] شوقى عطا الله الجمل: مرجع سبق ذكره، ص307.

[90] Yousf Fadl Hassan Op. Cit, P 45.

نشام إلى الحبشة ومنها إلى السودان حيث تزوج سليمان بنت الملك وولد منها ولـدين هما داوود وانس أو اودون واونسه[91]. إلا أن عبد الله وعبيد الله ابنا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هربا بعد سقوط الدولة الأموية فى سنة 168هـ - 750م ولم يسمح لهما ملك النوبة بالبقاء فى بلادة فعادوا إلى الحجاز عن طريق بواضع وفى طريقهما عبر بلاد البجة قتل عبدالله وعبر عبيد الله البحر إلى الحجاز. ومن ثم ليس هنـاك مـا يؤكد بقاء فئة منهم منذ ذلك التاريخ[92]. ويضيف السمر فندى إن سلالة انـس وداوود تزاوجوا بين السودانيين حتى أصبح من الصعب التفريـق بيـنهم[93]. إلا أن بعـض الباحثين البريطانيين لم يرق لهم أن يكون الفونج من العرب واخذوا يبحثون عن اصل آخر ومنهم جيمس بروس[94] الذى اعترض على انتساب ملك الفونج إلـى الأمـويين قائلا أن سواد لونه وتجاعيد شعره يدلان على انه من الشلك[95] ولكن مـن الخطـأ إذا حسبنا أن عروبة المرء شكلة ولون بشرتة ومع كل أننا نرى أن بيت الزعامة الونجية لا يعدو أن يكون من البيت الاموى وقد تزوج واختلط بعناصر أخرى كان لها اثر فى تغيير سحنة جماعتها إلى اللون الأسمر فى بشرة الأنجال ونذكر هنا أن الأمير احمد بن الخليفة الظاهر العباسى الملقب بابى العباس الذى دخل مصر بعد غزو التتر لبغداد سنة (653هـ - 1255م) كـان شـديد السـمرة وكـان وصـول هـذا الأميـر إلـى مصر سنة 659-1260م واستقبلة السلطان الظاهر بيبرس ثم بايعة بالخلافة[96]. وقـد قام العرب فى مختلف الأصقاع التى رحلوا إليها بالتزاوج من سـكان تلـك الأقـاليم فنتج عن ذلك منهم الأسود والأسمر وغيرهم. ولهذا فإنه ليس هنـاك مـا يمنـع مـن أن يصبح الأمويون بهذا اللون الذى رآهم به جيمس بروس والذى قال بسببة انه يظـن أنهم من الشلك.

---

[91] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص9.

[92] Yousf Fadl Hassan Op. Cit, P45

[93] Mac Michael, Opcitp 105

[94] بروس جيمس. رحالة سكتلندى زار سلطنة سنار عام 1772 وكتب كتاب بعنوان.
Travels O Discover The Cource Of The Nile In The Years 1768-1773. 6vols

[95] Bruce, VII/P90.

[96] ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية إلى وأدى النيـل (مصـر والسـودان)، السـعودية، الرياض، مكتبة التوبة (1421هـ-2001م) ص 349.

واعتقد أن وصول الأمويين إلى منطقة جنوب سنار كان بعد رحلات طويلة وقرون عديدة. ويرجح يوسف فضل أن اصل الفونج يرجع إلى فئة من عرب جهينة[97] الذين أشار إليهم بن خلدون قائلا أنهم بلغوا أطراف الحبشة ويجب أن لا نهتم بالتفاصيل التى تتحدث عن الأصل الاموى لأنها. ترجع إلى القرن الثامن الميلادى وحتى لو تأكد هذا النسب فإن الاختلاط والتزاوج والمصاهرة التى تمت بين القبائل العربية الوافدة مع العناصر الوطنية السوداء هذا الاختلاط نتج عنه محو كل ما يميز العرب عن السود وفى النهاية هم شعب اسود قدم من اعالى النيل الأزرق وسيطر على الجزء الجنوبى من الجزيرة[98].

2- الأصل الشلكاوى:

يعتبر جيمس بروس أول من نسب الطبقة الحاكمة من الفونج إلى اصل الشلك ويبدو انه جمع معلوماته من احمد سيد القوم مدير شئون القصر الملكى آنذاك وخلاصة ما جمعة هو إن أمه من السود تعرف بالشلك تسكن الشواطئ الغربية للنيل الأبيض إذ هجموا على الولايات العربية وهزموها فى معركة اربجى وعند قيام مملكة الفونج كان الملك وجميع الشلك عبده الأوثان ولكنهم اسلموا بغرض التجارة مع القاهرة وفسر كلمة الفونج بمعنى سادة أو أحرار[99]. يبدو إن قول بروس غير صحيح؛ لان كل المؤرخين اجمعوا إن الملك عند قيام دولة الفونج كان مسلما ونحن نعلم إن الصلة بين السودان ومصر قديمة قدم التاريخ وهذه الصلة التى أسهمت فى ازدياد نفوذ المسلمين فى السودان.

الشلك من القبائل النيلية التى تسكن فى منطقة فشودة على الشاطئ الأيسر للنيل الأبيض والأيمن للنيل الأزرق وكانت ديارهم تمتد إلى منطقة الجزيرة أبا ولكننا نلاحظ إن النسابة لم يستطيعوا التوفيق بين سواد بشرة الفونج وادعائهم الأصل العربى الاموى فربطوا بين اصل الفونج والشلك. الدينكا ينسبون إلى حسن الهلالى وهو بن امة سوداء[100].

---

[97] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص47.
[98] محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 39 هامش رقم 3.
[99] نفسه، ص 50-51.

[100] Mac Michael, Opci, P-127.

ومما يرجح وجود صلة بين الشلك والفونج تشابة القتل الطقس عند الفونج مثلما كان منتشرا عند الشلك[101]. ثم إن وجود بعض المقاطع مثل (با) و (فا) فى أسماء القرى عند الشلك وقرى منطقة فازوغلى وانتشار نفس الأسماء فى المنطقتين وذلك يقوى وجود الصلة بين الشلك والفونج إما عن طريق الغزو أو الهجرة[102] أو الجوار. وان تعذر إثبات وجود صلة عرقية بين الشلك والأسر الحاكمة في مملكة الفونج هذا لا ينفى وجود علاقات لغوية وثقافية بين الشلك والشعوب القاطنة جنوب مملكة الفونج فى المنطقة التى تعرف باسم فازوغلى أو جبال الهمج والتى توصل بعض المؤرخين إلى أنها مهد الأسرة التى أنشأت تلك المملكة مع العلم بأن دولة الشلك امتدت إلى الكورة (أليس) على النيل الأبيض حتى منطقة الجبال (موية– بيوت– دود) وهى حلقة الوصل[103] بين كوستى حاليا على النيل الأبيض وسنار على النيل الأزرق.

3– الأصل البرناوى:

نسب المؤرخ اركل[104] اصل الفونج إلى البرنو بعد إن جمع قدرا من الروايات المتداولة فى دارفور وصلتها بملكة برنو وخلاصة راية إن عمان ابن سلطان برنو بعد هزيمته نزح إلى حوض وأدى النيل حيث سيطر على الشلك ثم علــى مملكة سوبا ويؤيد نظريته بأن البرنو والفونج يدينون بالمذهب المالكى ويضيف بأن اسم عمارة يكثر فى منطقة برنو لكن المذهب المالكى دخل مملكة الفونج من مصر وان منطقة برنو هاجر إليها العلماء من المغرب والصلة الثقافية ليست دليلا على وحده الموطن وكذلك تشابة الأسماء.

(101) يوسف فضل: القتل الطقس عند الفونج، مجلة الدراسات السودانية، السودان، الخرطوم، مجلد 2 عدد أول، 1970 م، ص32–42.

(102)Crawford: The Funj Kingdom Of Sennar, Glouceser, P127.

(103) يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص54.

(104) اركل هو احد مفتشى الحكومة الثنائية فى السودان وكتب كتابا وعدة مقالات فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات S.N.R وهو ليس راوية مثل جيمس بروس إنما باحث وراية أخذه من البرنو عندما كان مفتشا فى مديرية دارفور.

- الخاتمـــة:

ابعد هولت والباحثة تويدة فى انتساب الفونج إلي اصل البرنو وذكر إن واحدا من المخطوطتين اللتين تؤرخان لملوك البرنو لا تذكر شيئا عن طرد عثمان بن كادى من بلادة[105]. ومن ثم قام هولت بدراسة اصل الفونج على ضوء ما جاء فى مخطوطة كاتب الشونة نسخة فينا حيث ابعد قرة انتساب الفونج إلى بنى أمية وتقول المخطوطة (الشائع إن كبارهم يجتمعون عند كبيرهم وياتون بالطعام فأكل من سبق اكلوة ويقيمون بالجيلى حتى جاءهم رجل من السافل فنزل بينهم ونظر أحوالهم فأشار عليهم وصار كلما جاء طعام يحبس حتى يجتمع فيقوم ويفرق عليهم فكانوا يأكلون ويفضل الباقى فقالوا رجل مبارك لن يفارقنا فزوجوه بنت ملكهم وولدت ولدا فلما كبر مات جده فاتفق رأيهم إن يجعلوه محل جده ويتبعوه ففعلوا ذلك ويذكر نادلر[106] رواية مشابهه لرواية كاتب الشونة يقول فيها إن عبد الله بن عبد الحكم الاموى لجأ إلى الحبشة بعد قيام الخلافة العباسية ودرس القرآن ودرسة وكسب عطف الناس وعلمهم طريقة الآكل الصحيحة فنزلت البركة على ما يأكلون وفرح به الملك وزوجة بنته وكان من أبنائه عمارة دونقس.

والفونج سواء أكانوا ينتسبون إلى بنى أمية أو من الشلك وهو الأرجح عندى فهم قوم جاءوا من اعالى النيل الأزرق واختلطوا بالسكان وسيطروا على جنوب الجزيرة[107].

والملاحظ في التشابة بين رواية كاتب الشونة ونادلر زواج الرجل من بنت الملك وتولى ابنة العرش مستغلا نظام الوراثة عن طريق الأم ذلك النظام الذى كان موجودا فى شرق وشمال وجنوب السودان وهناك ما يشبه الإجماع فى هذه الروايات من انه عربى مسلم وربما كان أمويا. وهناك أسطورة صومالية تذكر بأن هنالك أسرة

(105) Holt: Op. Cit, J.A.H, Iv. L.P40-42.
(106) Nadler, L. F. "Fung Origins," S.N.R, Xiv Part 1 (1931), 63-64.
(107) محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 39 هامش رقم3.

صومالية تعرف باسم (عيلة فون) رحلت من الصومال واستقرت فى الاراضى السودانية وأطلقت اسمها على منطقة عليفون واشتبكت مع الحاكم النوبى بموأزرة العرب المسلمين واستولت على الحكم فى الاراضى السودانية حيث ظهرت إلى الوجود باسم سلطنة الفونج(108) ولا نشك فى إن قبول القبائل العربية فى السودان لزعامة الفونج لابد أنها بسبب قوى يعود إلى زعامة تاريخية وليس هناك من يستحق ذلك سوى آل هاشم أو آل أمية. ومن ثم فإن الفونج وغيرهم من القبائل الشمالية ما هم إلا خليط من أب عربى وأم شلكاوية أو دينكاوية أو اى من قبائل جنوب السودان فالعرب لم يحضروا نساءهم فتزوجوا بأهل البلد الأصليين واسترقوهن أو سبوهن وأصبحن أمهات لأولادهم.

- التحالف السياسى بين عمارة دنقس والعبدلاب:

فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى لفظت مملكة علوة المسيحية آخر أنفاسها حيث تكاثر العرب فى إقليمها واعتنق كثير من رعاياها الإسلام واختلطوا بالعرب وتحدثوا العربية وفى هذا التاريخ تم ميلاد دولة الفونج الإسلامية التى اشتملت على عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية لذا نجدهم ذوى ثقافات مختلفة ومختلطة ويصف حالهم صاحب الطبقات(109). قائلا لم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ويقال إن الرجل يطلق المراة ويتزوجها غيرة فى نهارة من غير عدة وهذا يوضح مدى الجهل الذى كان يعم المنطقة آنذاك .

نشأت مملكة الفونج الإسلامية فى 1504م بتحالف كل من الفونج والعبدلاب ويروى الشيخ عبد الدافع(110). انتقل الفونج من جبال الجنوب(111) إلى جبل موية المجاور لجبل سقدى على مقربة من سنار وكان كبيرهم عمارة ود دنقس وفى جوارهم قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد ألباس يقال له عبد الله جماع

(108) ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل، ص357.
(109) محمد النور بن ضيف الله، ص39.
(110) نعوم شقير: مصدر سبق ذكره، ص386.
(111) جبال الجنوب يقصد بها جنوب منطقة كوستى حتى ملكال وجنوب جبل موية حتى فازوغلى على النيل الأزرق.

فاتحد عمارة وعبد الله على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ونزع الملك من ايدى العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج فى سوبا وقتلوهم شر قتلة واخربا سوبا ثم سارا إلى قرى فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة 910هـ - 1505م. ويؤكد ذلك صاحب الطبقات قائلا (إن الفونج ملكت ارض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطاها الملك عمارة دونقس[112]. على اسم جارية فسميت البلاد باسمها[113]. وعرف وأدى النيل من بلاد الحبشة على النيل الأزرق إلى مشو فى إقليم دنقلا بمملكة سنار[114].

امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث إلى أقصى جبال فازوغلى شمالا ومن سواكن على البحر الأحمر إلى النيل الأبيض شرقا وغربا[115] وكان الحد بين مملكة سنار ومشيخة قرى مدينة اربجى (الحصاحيصا الحالية) التى قيل أنها اختطت قبل سنار بثلاثين سنة[116]. واختطها رجل يسمى حجازى فمن اربجى جنوبا كان تابعا لملوك الفونج ولا دخل لمشايخ قرى فيه ومنها شمالا إلى الشلال الثالث كان تابعا لإدارة مشيخة قرى تحت سيادة ملوك الفونج[117] ويستبعد يوسف فضل امتداد نفوذ العبدلاب من الجهة الجنوبية الشرقية إلى الحبشة ويذكر أنهم كانوا يسيطرون فقط على الأجزاء المتاخمة لهم من ارض البطانة[118]. هذه البلاد يحكمها شيوخ يختارهم ملك سنار أو وزيره وهم أقرباء الملك أو الشخصيات الكبيرة فى بلاطة ويسمون الفونج والسكان من النوبة والوثنيين[119] وكان ملك العبدلاب يعرف بالمانجل[120]. أو الملك.

---

[112] أمحمد النور بن ضيف الله مرجع سبق ذكره، ص39.
[113] نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ص386.
[114] مكى شبيكة: تاريخ شعوب وأدى النيل، ص318.
[115] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص387.
[116] يوسف فضل: تاريخ الممالك، ص62.
[117] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص387.
[118] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص62.
[119] نسيم مقار: الرحالة الأجانب فى السودان، ص12.
[120] مانجل وما مجلق ومانجلك لقب عرف به ملوك العبدلاب فى مملكة الفونج واصل الكلمة ومعناها مختلف عليه قال يوسف فضل أنها الوزير بلهجة الهمج وقال نعوم شقير أنها مشتقة من مانجل إلا إياك وقيل أنها من امانوكيل بلهجة الطوارق وتعنى زعيم القبيلة (عون الشريف قاسم، قاموس اللهجة العامية فى السودان، ص2، 11).

وكان حكمهم المباشر ينحصر بين حجر العسل واربجى وكانت قرى حاضرتهم أول الأمر ثم انتقلوا منها إلى حلفاية الملوك فى القرن الثامن عشر[121]. اعتمد العبدلاب على سلسلة من المشيخات ذكرها نعوم شقير[122] قائلا ربما كانت زعامات نوبية قديمة انتقلت السلطة فيها من النوبة إلى العرب بعد إن صاهروهم وأول هذه الممالك فى الجنوب مملكة الجعليين بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى ثم المجاذيب ومركزهم الدامر ويمثلون الزعامة الدينية ثم مشيخة الميرفاب ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية واشتهروا بالكرم والشجاعة ثم مشيخة الرباطاب والمناصير والشايقية ومملكة الدفار ودنقلا والخندق وأرقو ومن هذا يتضح إن العبدلاب سيطروا على رقعة واسعة.

هذا التحالف الذى تم بين الفونج والعبدلاب يمثل نوعا من الحكم الثنائى الذى يعطى الفونج المقدمة فى إدارة البلاد وعلى الرغم من إن عمارة وعبد الله كانوا كالاخوين إلا إن رتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله ويذكر كاتب الشونة[123] إن عمارة كان الملك بعد إن قاتل العنج وتمتاز حكومة مملكة الفونج الإسلامية باللامركزية حيث كانت المملكة مقسمة إلى عدة ممالك ومشيخات من سود ونوبة وعرب وحضر وبادية وكان كل ملك أو شيخ يدفع الجزية لملك سنار إلا إن له نوعا من الاستقلال[124] وكان تدخل سلاطين الفونج فى شئون الأقاليم لا يتعدى الضرائب وتعيين شيخ أو زعيم وهو ما يعرف بالملك وذلك فى المملكات التى تخضع لهم مباشرة بما فى ذلك ملوك العبدلاب[125] وإذا رفضت المشيخات تسديد ما عليها من ضرائب أو الامتثال لاختيار السلطان لشخص معين ومن ثم فان قوة جيش الفونج الرادعة كانت صمام الأمان لكثير من حالات التمرد[126]. وإذا مات للعبدلاب ملك

---

[121] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص62.
[122] جغرافية وتاريخ السودان ج2، 424-431.
[123] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره ص6.
[124] نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ص387.
[125] يوسف فضل: تاريخ الممالك، ص67.
[126] نفسة، ص60.

اختار أهل الحل والربط من البيت خليفة له من ابنائة أو إخوانه ويجب إن يؤيد من ملك الفونج[127]. الذين يختارون أكثر الأشخاص ملاءمة لهم لتنفيذ سياستهم.

كان سلاطين الفونج يحكمون الجزء الجنوبي من الجزيرة بين اربجى وسنار حكما مباشرا ويشرفون على المشيخات شبه المستقلة والتى أوردها نعوم شقير فيما يلى[128]:

1- مشيخه خشم البحر التى تقع على النيل الأزرق بين رنقة والروصيرص ويقال شيخ البحر كان من القواسمة إلا أنهم صاهروا الفونج.

2- مشيخه فازوغلى بالقرب من الروصيرص وتدل أسماء ملوكها التى أوردها نعوم شقير بأنهم لم يختلطوا كثيرا بالعرب وببينهم كثير من عبده الأوثان.

3- مشيخه الحمدة وقامت على نهر الدندر ومشايخها يخاطبون بلفظ مانجل.

4- مشيخه بنى عامر وقامت على البحر الأحمر وتشمل أربع قبائل هى البجة والخاس وبنو عامر والفايتاب منحهم ملك سنار ككر وطاقية ولغتهم العربية.

5- مشيخه الحلنقه فى جبل كسلا على القاش.

كانت مشيخة العبدلاب فى سلطنة الفونج تشبة دولة داخل دولة لها نظامها المتميز فى مجال الحكم والقضاء والنظم المالية والعسكرية وجرى حكمها على أساس نظام الوراثة المحصورة فى أبناء وأحفاد عبدالله جماع.

واعتمد الفونج مثل العبدلاب على عنصر المصاهرة لتقوية علاقاتهم بالقبائل فكانوا يزوجون حكام الأقاليم من زعماء القبائل من أميرات بلاطهم فيضمنوا بذلك مراقبة الزوجات لأزواجهن الزعماء ويضمنون كذلك تنشئة خلفائهم على الولاء للفونج[129]. اعتمدت مملكة الفونج فى تنفيذ سياستها على جيش مدرب أهم عنصر فيه الخيالة ذوو الأسلحة الثقيلة وهى عبارة عن قميص من الحديد وخوذة نحاس ورمح

[127] نفسة نفس الصفحة، نفس الصفحة.

[128] جغرافية وتاريخ السودان ج2، ص421-423.

[129] قيصر موسى: فترة انتشار الإسلام والسلطنات،(641-1821 السودان الخرطوم، ص58.

وسيف ودرع وكان الجنود من السود يركبون جيادا سوداء وهذا[130] الجيش يتكون من الرقيق والمرتزقة[131]. وحسب ما ذكر بروس لم يكن عدد الجيش كبير ولكن يبدو انه في حالة الحرب يجمعون خيالة ومشاة من سائر القبائل. وفى عهد السلطان بادى أبـــو دقن قل الاعتماد على الجنود التقليديين (جنود لولو) بعد الإعداد الكبيرة من الأســـرى الذين سبوهم من غزو الفونج لمملكة تقلى والنوبة حيـــث شـــيد الملـــك لكـــل جنـــدى مكانا للسكن وصاروا من جملة جنوده وتناسلوا فيها وكل حلة أطلق عليها اسم الجـــيش الساكن بها[132]. ازداد عددهم حتى اعتبرتهم العناصر التقليدية فى جيش الفونج خطرا عليها. وهذا الجيش يذكرنا بالحرس الذى اتخذه الخليفة المعتصـــم بـــالله وثـــار عليـــه المماليك في مصر. وأول احتجاج على هذا الجيش كان فى عهد السلطان بادى الأحمر (1692–1716م) من الفونج والعبـــدلاب إلا إن الســـلطان بـــادى هـــزمهم وتمكـــن (جنود لولو) من عزل ابنه اونسه الثالث (1716–1720) ولعل دواع العـــزل كانـــت احتضانه للرقيق كابية[133] ويبدو إن وجود هذا النوع من الجنود سيكون لـــه رد فعـــل سئ على استمرارية الدولة.

بدا الاختلال بين ميزان القوى الذى ينظم العلاقات بين الحليفين الفونج والعبدلاب وظهر الصدام بينهم وتختلف الروايات فى تحديد أسباب هذا الصدام وتـــذكر روايـــات العبدلاب إن السبب هو اختلاف فى المسائل الدينية ولكـــن بـــدو إن العبـــدلاب أرادوا التخلص من تلك التبعية بعد إن أحسوا بشئ من القوة ويرجع يوســـف فضـــل ســـبب الصدام إلى السياسة التنظيمية التي ابتدرها السلطان دكين بن نايـــل (1563–1570م) الذى يروى عنه انه رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها احد من جميع مملكته وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا معلوما ويبدو إن هـــذا التصرف أدى إلى اختلال فى ميزان القوى مما جعل الشيخ عجيـــب يستشـــير الـــولى

---

[130] Bruce, J.:Op.Cit, P391.

[131] شوقى عطا الله الجمل: مرجع سبق ذكره، ج1، ص310.

[132] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص9–10.

[133] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص69.

الشيخ إدريس ود الأرباب قائلا إن الفونج غيروا العوايد علينا[134] فأشار عليه الشيخ بعدم حربهم ولم يسمع الشيخ عجيب النصح وعصا سلطان الفونج فبعث له السلطان عدلان ولدداية (1612-1640م) جيشا بقيادة بادى بن رباط الذى هزمهم وقتل الشيخ عجيب[135].

أضعفت سلطة الفونج بعد تسلط الوزراء الهمج علهم وذلك بعد انتقال السلطة إلى السلطان نول الذى تربطة صلة قربى بالاونساب عن طريق امة[136]. وفى عهد السلطان بادى طرد أعيان الفونج واعتمد على الرقيق وحتى يتخلص من منافسية بعثهم فى جيش لمحاربة المسبعات فى كردفان سنة 1747م.

وبدأ تسلط الهمج[137] على الحكم وتوارث وزراؤهم الآمر حتى سقوط دولة الفونج وشهدت الأربعون سنة الأخيرة من حكم الفونج سلسلة من الحروب الأهلية والثورات الداخلية ولما زحف الجيش التركى عام 1820م لم يجد مقاومة إلا من الشايقية فى الشمال وخضعت له البلاد بعد إن مزقتها الخلافات القبلية وصراعات الفونج والهمج فيما بينهم.

ج- العلاقة بين الفونج والعبدلاب:

لم تجد العلاقة بين الفونج والعبدلاب تقويما دقيقا من الباحثين وربما يرجع ذلك إلى ندرة المصادر الأصلية التى بحثت فى هذا الموضوع مع العلم بان اغلب الكتاب الأجانب[138] الذين كتبوا عن دولة الفونج حددوا العلاقة بأنها علاقة حاكم بنائبة

---

[134] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره، ص63.
[135] نفسه ص64.
[136] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص71.
[137] هم بقايا الشعوب الأصلية التى كانت تسكن الجزيرة عند قيام مملكة الفونج ويقول البعض أنهم خليط من النوبة والعرب (نفسة، ص72).
[138] من هؤلاء الرحالة بوركهاردت وطايو وبروس وكرمب وبونسية وجميعهم قصدوا سنار ووجدوا الترحيب من ملوكها وربما دونوا منهم هذه المعلومات (انظر نكولز، الشايقية، ص22) لذا ربما انحاز هؤلاء الرحالة إلى جانب الفونج هذا بالإضافة إلى إن بروس جمع معلوماتة من احمد سيد القوم الذى يحسب من أفراد البيت المالك لهذا يمكن إن تعد كتابات هؤلاء الرحالة تمثل وجهة نظر الفونج.

أو وزيرة وحتى الباحثين المحدثين الذين جاءوا بعدهم رددوا هـذا الـرأى[139] إلا إن مصادر العبدلاب لها موقفا مغايرا لذا رأينا إن نوضحة قبل محاولة الوصول إلى رأى نراه جديرا بالترجيح ترى مصادر العبدلاب إن الفضل فى إسقاط مملكة علـوة وقيـام مملكة سنار يرجع إلى عبدالله جماع الذى نجح فى جمع شمل القبائل العربية وتوحيـد كلمتها لمحاربة العنج واستطاع إن يفتح مدن مملكة علوة الواحد تلو الأخرى[140] ولهذا هم ملوك البلاد الحقيقيين.

إن هنا يتبين للقارئ صورة الدولة والحكم الذى كان قائما فى السودان فى الفتـرة من 910-1236هـ - 1504-1821م هى دولة لها قاعدتان أحداهما سنار وزعامتهـا على السود والجزيرة والنيل الأزرق حتى الروصيرص والكرمك والجبـال المتاخمـة للحبشة والثانية فى قرى وزعامتها على العرب من الحبشة جنوبا إلى أسـوان شـمالا والى سواكن شرقا والى سلطنة الفور غربا[141] وكل من العبـدلاب والفـونج يتصـر بحرية فى منطقتة وله السيادة المطلقة لاسلطان لاحدهما على الآخر إلا التفـاهم فـى الأمور التى تهدد البلاط بخطر وتذهب روايات العبدلاب إلى انه حـين أتـوا دنقـلا احضروا معهم الفونج وعينوا منهم وزراء وهـذا يـوحى إن السـيطرة كانـت فـى يد العبدلاب وتقول مصادرهم إن سبب عدواتهم مع الفونج فى عهد عجيب هـو زعـم الفونج إن هناك اتفاقا يمنح الفونج حق الأفضلية على العبدلاب ولم يكـن فـى وسـع

---

[139] من هؤلاء المحدثين مصطفى محمد مسعد الذى ذكر إن شروط الحلف إن يكون عمارة هو المقدم على عبد الله فى الزعامة وحمل لقب ملك وان يحل عبدالله محله مدة غيابة اى انه بمثابة نائـب الملك. مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، مصـر، القـاهرة، مكتبـة الانجلو المصرية، 1960م ص208 ومنهم كذلك محمد عوض الذى وصف شيخ العبدلاب بنائب الملك، السودان الشمالى سكانة وقبائلة، مصر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، الطبعة الأولـى، 1951م، ص218، وكذلك حسن محمد الفاتح قريب الله، التصوف فى السودان فى نهاية عصـر الفونج، لسودان، الخرطوم، آداب جامعة الخرطـوم 1987، ص125، وعبـد العزيـز أمـين عبد المجيد، التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر، مصر، القاهرة، 1949م ج1، ص28.

[140] محمد صالح محى الدين: مشيخة العبدلاب وإثرها فى تاريخ السودان السياسـى 910هـ، 1236هـ، 1504م-1821م. السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب 1392هـ -1972م، ص17.

[141] محمد صالح محى الدين: مشيخه العبدلاب وإثرها فى تاريخ السودان الحديث (910هـ - 1236هـ، 1504م-1821م) السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، 1972م، ص19.

عجيب إلا إن ينكر ويؤكد انه الملك الأوحد ثم ساق جيشة وطرد الفونج من سنار[142] وعلى ضوء ما سبق يتبين لنا من مصادر العبدلاب المخطوطة إن كل واقعة تنطق بالاستقلال الكامل للعبدلاب وتنفى التبعية جملة وتفصيلا حتى إن الحرب التى نشبت بين الفونج والمسبعات فى (1160هـ – 1754) ذكرت مصادرهم انه كانت بينهم وبين مسبعات باعتبار إن كردفان كانت تتبع لهم وتعرضت لغزو مسبعات ولما حاربهم شيخ العبدلاب قتل ومعه أخوة وابن اخية ولما سمع ملك سنار خشى إن يثأر شيخ العبدلاب الجديد لأبية وعمة وابن عمه فتدخل حسب العهود التى كانت مبرمة بين الحكومتين[143] وهكذا فان مصادرهم تحررهم من اى نفوذ.

– استقلال العبدلاب:

ورد فى كتاب الطبقات ما يوحى باستقلالية العبدلاب ووجود حكومتين منفصلتين فى السودان فيقول ود ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى عندما يتحدث عن العلماء الذين قدموا للسودان فيقول: (وقدومهم فى دولة الملك بادى أبو رباط وفى قرى الأمر داير بين قنيصى وعجيب)[144].

إذا كانت سنار فقط لاكتفى بذكر ملك الفونج لكنه ذكر قرى كذلك باعتبارهما دولتين مستقلتين وعندما يترجم للشيخ بدر الدين أم بارك يقول (هو احد الأئمة الأربعة الذين كانوا فى عصر واحد وانقادت لهم العرب والعجم[145]) من يتأمل هذا النص يقرأ بان كل منها دولة قائمة بذاتها دولة للعرب وأخرى للعجم.

وفى ترجمة الشيخ النور أبو قصه يقول (اعطاة الله قبولا عند ملوك الفونج والعرب) وإذا كان العرب جزء من الفونج لاكتفى ود ضيف الله بذكر الفونج ولكنة فصل الفونج عن العرب.

---

(142) نفسه، ص20.
(143) محمد صالح محى الدين، مرجع سبق ذكره، ص40.
(144) الطبقات: (نسخة صديق)، ص5–6.
(145) نفسه، ص37.

ثم يتحدث عن تاج الدين البهارى قائلا (وقدومة أول النصف الثانى مـن القـرن العاشر أول ملك الشيخ عجيب المانجلك[146]) هو من الأهمية بمكان ويـدل إن شـيخ العبدلاب كان أوسع شهرة من ملك الفونج والدليل يؤرخ بمدة حكمة. كثيرة نصـوص الطبقات التى توحى بوجود حكومتين وربما عبر عنها صاحبها وهو لا يقصد فيقـول فيه ترجمة الشيخ حمد بن إدريس ود الأرباب (ولى الخلافة بعد أبية وقام مقامـة فـى الهيبة والقبول والسكينة والوقار وعجز العرب والفونج)[147] ويقول كذلك (الشيخ بدوى تهدى له سنار وقرى)[148] وسنار عاصمة الفونج وقرى عاصمة العبدلاب وبهما يشار إلى الدولتين.

اعتقد إن استقلال العبدلاب يظهر بوضوح فى حرية التصرف فى ارض المناطق التى تخضع لنفوذهم بهبة الأرض أو هبه غلتها أو إسقاط خراجها ويقول ود ضيف الله فى ذلك إن الشيخ حمد ود أم مريوم كانت له ارض زراعية مفـروض عليهـا نـص الخراج ولما حمل ما عليها لشيخ العبدلاب سألهم عن صاحبها فعلم انه فقيه فقال شـيخ العبدلاب الأرض وغلتها تصدقنا بها عليه[149]. كثيرة هى نصـوص الطبقـات التـى توضح بان كلا من العبدلاب والفونج قائم بذاته ولا تتبع دولة أحداهما للأخر.

وتروى الطبقات إن محمد ولد أبو سنجر ذهب من الحلفاية (تابع للعبدلاب) إلـى سنار ليطلب من الشيخ عمار بن عبد الحفيظ إن يشفع له عند الشـيخ عجيـب شـيخ العبدلاب (كان العلماء لا ترد لهم شفاعة) ليعفية من إخراج رض على أرضة[150] هذا دليل على إن العبدلاب لهم سلطان على مشيختهم.

[146] نفسه، ص44.
[147] الطبقات: نسخة صديق، ص58.
[148] نفسه، ص39.
[149] نفسه، ص39.
[150] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره، ص117-118.

نستنتج من مخطوطة كاتب الشونة إن الملك بادى أبو دقن منح العبدلاب الامتياز الذى أعطاه لنفسه عندما شيد لنفسه قصر الحكومة وتقول المخطوطة (وعين لكل واحد من كبرياء دولته بابا يدخل منه ويخرج ... إما الباب التاسع فلا يدخل منه احد ولا يخرج إلا الملك نفسه أو ولد عجيب[151]) هذا اعتراف ضمنى بمساواة العبدلاب مع الفونج.

ويروى كروفورد[152] كيف إن ملك الفونج أرسل طبيبه الخاص كرمسب رغم مرضه لمعالجة شيخ العبدلاب حرصا منه على العلاقة التى كانت تربط بين الدولتين.

يتضح مما تقدم إن العبدلاب كانوا يسيطرون على مشيختهم دونما تدخل من الفونج إلا إن ما ذكرة إبراهيم عبد الدافع يخالف ذلك حيث يقول (ولما تم لهم النصر على النوبة واستولوا على محلاتهم اتفق رأى عمارة بان يكون هو الملك عوضا عن ملك علوة التى هى سوبا كونه الكبير وعبد الله يكون فى مكان ملك قرى وكان عمارة وعبد الله كالأخوين إلا إن رتبة عمارة أعلى ورتبة عبدالله دونه إذا كانا حاضرين فيكون المقدم وإذا غاب عمارة يكون عبد الله هو المقدم على الجميع ويعامل بما يعامل به عمارة ولم تزل تلك العادة جارية بين ذراعيهم إلى انقضاء مملكتهم[153]) .

إما مخطوطة كاتب الشونة والتى هى اصل كل المخطوطات فيرى صاحبها (... وقطع أشجارها (غابة سنار) الملك عمارة دونقس وهو أولهم وصار ملكهم بها بعد إن قاتل الفونج مع عبدالله القريناتى القاسمى أبى عجيب الكافوتة ورجع إليه وبقى ملكة فيها والشيخ عبدالله المذكور فى قرى[154]).

---

(151) أحمد بن الحاج أبو على: مرجع سبق ذكره، ص10.

(152) Crowford, O.G.S: The Fung Kingdom Of Sennar, Pp, 221.

(153) أحمد بن الحاج أبو على: تاريخ ملوك السودان واقاليمة تحقيق مكى شبيكة، السودان، الخرطوم، مطبوعات كلية غردون، 1947م – ص5-6.

(154) أكد الشاطر بصيلى محقق هذه المخطوطة: أنها من وضع الشيخ احمد بن الحاج أبو على كاتب الشونة وأنها اصل كل المخطوطات واصحبها (مقدمة مخطوطة كاتب الشونة).

لم يرد فى هذه المخطوطة الجزء الذى أخذناه من مخطوطة عبد الدافع والذى يبدأ بـــ (ثم اتفق رأى عمارة بان يكون هو الملك ... الخ) مما يدل على أنها مـــن وضـــع إبراهيم عبد الدافع ويؤيد الشاطر بصيلى ذلك بقوله (إن الشيخ إبراهيم (1800–1882) قام بتنقيح هذه النسخة من ناحية الصياغة أضاف إليها وغير وبدل)[155].

ومما سبق أرجح إن تكون العبارات التى ميزت عمارة دونقس على عبدالله جماع لم يقلها كاتب المخطوطة الأصلية وإنما أضيفت لاحقا وعليه هنالك احتمال إن يكـــون عبدالله جماع وهو الأساس فى قتال الفونج[156] وهو ما استنتجة مكى شبيكة عندما قال (إن عمارة حارب الفونج مع عبد الله جماع ولا يتضح لنا زمام المبادأة كان بيد عمارة أم عبد الله ولكن مفهوم العبارة يوضح إن عمارة كان المساعد لعبـــد الله جمـــاع[157]) وهنالك احتمال أخر ذكرناه سابقا وهو إن كل منهم اختار المنطقة التى ألف بيئتها دون ضغط من عمارة كونه الكبير. وإذا صح إن عمارة ساعد عبدالله جماع حتى نجحا فى وضع نهاية مملكة علوة واختار كل منهما مكانة المناسب إذن عبارات التبعية التى تفهم من بعض الصياغات لا وجود لها إذ لا يدل عليها المصدر الاساسى القديم واستبعد إن يقبل عبدالله جماع إن يكون اقل من عمارة وهو الذى حقق هذا النصر.

يضيف كاتب الشونة: (ثم ملك بعده الملك عدلان ولد ولدداية وهو صاحب قتـــاب كركوج وهو الذى قتل الشيخ عجيب الكافوتة لما عصاه وخرج عن طاعته سار إليـــه من سنار ويقال انه نزل بألتى[158]) هذه السطور توضح نفوذ الفونج علـــى العبـــدلاب وهذا يناقض ما ذكرناه عن استقلالهم وان صحت هذه الرواية ونحن نشك فى ذلك لان واقعة كركوج حدثت فى 1017هـ – 1609م وكتب احمد أبو على مخطوطة الشونة فى 1250 هـ–1842م[159] وكما هو واضح هناك فترة زمنية تقرب من القرنين والنصـــف

[155] نفس المخطوطة، المقدمة.
[156] جمعت عن ذلك كل مصادر العبدلاب ويوسف فضل وهولت وما كمايكل.
[157] مكى شبيكة مملكة الفونج الإسلامية، ص25.
[158] احمد بن الحاج أبو على: مرجع سبق ذكره، ص8.
[159] انظر مقدمة المرجع السابق.

القرن إذن خبر هذه المعركة نقل إلى كاتب هذه السطور ربما عن طريق أحفاد الفونج الذين يروون لصالحهم أو ربما هذا الكاتب كان ينحاز لجانب الفونج ويروى تـاريخهم من وجهة نظرهم ويهمل تاريخ العبدلاب لعدم اطلاعة على أحوالهم[160].

ويروى كراوفورد تمرد عجيب على ملوك الفـونج ويقـول إن سـبب الحـرب هو سعى عجيب إلى توسيع رقعة دولته على حسـاب مملكـة الفـونج[161] وتقـول مصادر العبدلاب إن السبب المباشر هو إن فرض الملك عبد القادر الثـانى (1003هـ-1009هـ، 1599م-1605م) على القبائل الخاضعة للعبدلاب الفروض والجبايات واخـذ يقسو فى تعاملة معهم[162].

- ظاهـرة الاستـقلال والتبعـية:

رغم ما ذكرناه من استقلال للعبدلاب إلا إن أكثر الإحداث تشير إلـى إن الفـونج سطع نجمهم وعلت شهرتهم وراسلهم وقصدهم الرحالة الأجانب وحملت اسـمهم أول دولة إسلامية فى السودان فقيل مملكة الفونج وحتى المراجع التـى ذكـرت اسـتقلال العبدلاب أوضحت نوعا من الامتياز مع مراعاة عدم انتهاك سيادة العبـدلاب وارجـع بعض الكتب هذه العلاقة إلى مصاهرة تمت بين البيتين لم تتحدث عنها كتب التـاريخ وقال هذه المصاهرة نستوضحها من العلاقات التى نشأت بين ذرية عبـدالله وعمـارة دونقس[163] ربما استند هذا الكاتب على ما جاء فى مخطوطة كاتب الشونة انـه بعـد انقطاع نسل الفونج بوفاة أونسا بن بادى الأحمر وانتقل الحكم من سـنار إلـى الملـك نول[164] حتى تغيرت العلاقات بين الطرفين ويفسر أبو سليم هذه العلاقة على ضوء ما ذكرة الشيخ محمد الأمين والشيخ بادى بن مسمار اللذان أشارا إلى العلاقة بينهما وبين

---

[160] المرجع نفسه، ص83.

[161] The Fung Kindom of Sinner, P, 66.

[162] صلاح محى الدين: مرجع سبق ذكره، ص41.

[163] حسن إبراهيم حسن: الإسلام والثقافة العربية، ج1، ص318.

[164] احمد بن الحاج أبو على: مرجع سبق ذكره، ص20.

السلطان حيث ذكر أنهما أمينا أسراره ومنفذا احكامة وقد يدل هذا على درة السلطة المركزية عليها أو على نوع من الوفاق والمودة بين بلاطي سنار وقرى[165].

والملاحظ إن هذه التبعية تقضى بان يدفع شيخ العبدلاب قدرا من المال – عينا أو نقدا لدولة الفونج رمزا لهذه التبعية ويذكر (نكولز) إن ولاية دنقلا قد أدت لسلطان سنار فى القرنين السادس عشر والسابع عشر نوعا من الجزية ونحن لا نعرف ما إذا كانت سنوية أو كانت تؤدى بنظام ما، وما هى قيمتها[166] وبالإضافة لهذه الجزية كان لسلطان سنار حق اختيار من يخلف الحاكم المتوفى من أفراد أسرته[167] ويذكر بونسية[168] انه شاهد إثناء وجودة بسنار شيخ العبدلاب جاء إلى سنار ومعه قدر من المال والخيل والعبيد وهى ترسيخ الصداقة بين الحليفين وربما إن موارد سنار كانت محدودة[169] والأرجح أنها لم تكن جزية لأنه ليس هنالك دليل على ذلك والجزية تفرض على أهل الذمة[170] والعبدلاب مسلمين إذن هى دعم من العبدلاب للفونج وبعد إن ساءت العلاقة دفعها العبدلاب لاتقاء شر الهمج الذين عرفوا بالضعف ويشير بوركهاردت إلى إن ملك العبدلاب كان يقدم لملك سنار مالا مقابل الاعتراف به خلفا للملك المتوفى[171] هذا الاعتراف له ثمن أو بمثابة رشوة كما أُطلق عليها نكولز[172] حتى يأمنوا جانب الأتراك.

---

[165] محمد إبراهيم أبو سليم فى تحقيقة للوثائق التى صمنها كتاب (الفونج والأرض) ص22.

[166] و. نكولز الشايقية، ص22.

[167] نسيم مقار: اقتصاد السودان، ص9.

[168] Crawford: The Fung Kingdom of Sennar, P. 89.

[169] احمد بن الحاج أبو علي، مرجع سبق ذكره، ص39.

[170] أية 39 من سورة التوبة، الجزية هى ضريبة امن ودفاع وخدمات عامة وضمان اجتماعى ينال بموجبها الدافع كل صلاحية المواطنة وتقدم له كل الخدمات التى تقدم إلى اخية المسلم قدما بقدم وساقا بساق ويتم تأمين املاكة وعرضة وحمايتة. ويعفى من كل ما تقدم المسلم بدفعة من زكاة أو ضرائب يقتضيها الحال ولا تفرض الجزية الأعلى المستطيع ويعطى المحتاج من أهل الزمة من بيت مال المسلمين (ضمان اجتماعى).

[171] بوركهاردت: رحلات بوركهاردت فى بلاد النوبة والسودان، ترجمة فواد اندراوس، مصر، القاهرة 1959، ص172.

[172] الشايقية، مرجع سبق ذكره، ص32.

ولكن يبدوا إن هذا المال الذى يدفعة العبدلاب. وفى مقابل المساعدة العسكرية لهم وفي ذلك يقول الشاطر بصيلى (وكان على السلطان – كما ذكرت روايات العبدلاب لن يساعد قرى فى حالة الحرب)[173] على هذا يمكن إن نقول إن العلاقة بين الفونج والعبدلاب لا هى علاقة ملك بوزيرة كما ذكر البعض ولا العبدلاب هم الأصل والفونج اقل منهم حسب ما جاء فى مصادر العبدلاب بل وحتى لم يتساوى العبدلاب بالفونج.

ولما كان الفونج أصحاب ملك قديم واعرق حضارة ويمتازون بشهرة واسعة لذا منحوا هذا الجزء من موارد مشيخة العبدلاب وما نريد إن نذكرة هنا هو إن العبدلاب بعد ثورة عجيب نالوا استقلالهم فى 1180هـ – 1770م[174] وبعدها كانت شخصية شيخ العبدلاب أو ملك الفونج من حيث القوة والضعف هى التى تحسم العلاقة بين الطرفين.

[173] معلم تاريخ سودان وادى النيل: مرجع سبق ذكره، ص71.
[174] حسن احمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ج1، ص320.

الفصل الثالث

العلاقة السياسية

أ- علاقات العرب بملوك دولة الفونج

الفصـــل الثالـــث
العـــــلاقة الســـياسية

أ- علاقـــات العـــرب بملوك دولـــة الفونـــج:

- السلطان عمارة دونقس 5910 – 940هـ، 1505– 1534م:

هو عمارة بن عدلان أول من اشتهر من سلاطين مملكة الفونج الإسلامية وتذكر المخطوطة (أن الفونج ملكت ارض النوبة وتغلبت عليها فى أول القرن العاشـــر بعـــد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطها الملك عمارة دونقس[1] وهو أولهـــم) وأول مـــن وصفه هو المغامر اليهودى داوؤد روبينى الذى قدم من اليمن ومكث نحو عشرة اشهر من 1522م وحتى 1523م فى ضيافة الملك عمارة وقال عنه انه اسود اللون ومســـلم ويحكم شعبا من البيض والسود[2] ويقصد بالبيض القبائل العربية التى اســـتقرت فـــى المنطقة والسود هم السكان الاصليون. وكان قبل توليه السلطة يقيم فى النيـــل الأزرق فى منطقة خور العلكو[3] إذ كان معلما للقرآن وعلوم الشريعة وكان الناس يجتمعـــون حوله حتى ضاق بهم المكان ثم انتقل إلى جبل موية وسقدى غربـــى ســـنار وبعـــد إن استقر بها خاطب زعماء العشائر الآخرين شمالى البلاد وخاصة الشيخ عبد الله جمـــاع فقاما بعمل عسكرى ضد العنج ولما تم لهم النصر واتفق رأى عمارة بأن يكـــون هـــو الملك عوضا عن ملك علوه وان عبد الله فى مكان ملك قرى وبعدها توجه عمارة إلى سنار وذلك فى 910هـ – 1505م وجعلها عاصمة مملكته وأقام فيها[4] ووصـــف روبينى

[1] ورد الاسم فى بعض المصادر عميره دونقس لقب اتخذه السلطان عميره ومعناه (النجاشى العظيم) لفظ دو معناه عظيم وقس معناه نجاشى (يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص 40).

[2] نفسه، نفس الصفحه.

[3] من روافد النيل الأزرق.

[4] أحمد بن الحاج بن على: مرجع سبق ذكره، ص7.

عمارة بأنه كثير التنقل فى أجزاء مملكته وكان يصحبه عدد كبير من الإتباع والخدم ومنهم كبار ضباطه وحكام الأقاليم والقضاة وعدد من الفرسان[5] يتضح إن عمارة كان يتخذ نظاما إداريا يمكن وصفه بأنه لا مركزى وبسط نفوذه على أراضية الواسعة بتنقلاته ومروره على رعاياه بدلا من أن يقبع فى مكان واحد وهذا يدل على انه كان ملكا مستقرا يقوم بجولاته العادية غير إن ما نسعى إليه هو تحديد المكان الذى وجد فيه عمارة آنذاك حيث يذكر روبينى انه قابلة فى مدينة على راس النيل اسمها لأمول[6] ويذكر كذلك انه عندما فكر فى الرحيل خرج من لأمول مقر الملك على النيل ومر فى طريقة على انهار ورأى الأفيال ومر بنهر من الطين وفى ثمانية أيام وصل سنار[7] وهذا يعني انه وجد في مكان غير سنار وربما كان لعمارة عاصمة عسكرية أخرى يجتمع فيها مع أهلة من الفونج فى منطقة (لمل) وقد ذكر موضع لمؤل أولول فى أكثر من مصدر. تذكر مخطوطة كاتب الشونة إن ابتداء أمر الفونج كان يعرف بلول وان بلول فى الصعيد اى فى منطقة إعالى النيل الأزرق التى كانوا بها على قدر ما أراد الله إقامتهم به ثم انتقلوا إلى جبل مويه[8] ويشير نفس المصدر فى موضع أخر عند الحديث عن الملك اونسه بن بادى (1127-1130هـ، 1715-1718م) فلما بلغ أهله الفونج ذلك عزله هم وجنود لولو وهم الذين يعزلوه ويولوا قبل ملك الهمج عليهم[9] ويشير لفظ الهمج إلى السكان الوطنيين الذى يقطنون المنطقة الجبلية الواقعة غرب وجنوب فازوغلى وعرفت بدار الفونج بعد إن بسط الفونج نفوذهم عليهم ومركز بلاد الهمج هو جبل كيلى[10] وعبارة هم وجنود لولو توحى أنهما فئتان مختلفتان إلا إن نسخة تاريخ ملوك السودان فى نفس النقطة توضح أنهما مجموعة واحدة عندما تذكر (حتى بلغت

---

[5] مكى شبيكه: مملكة الفونج، ص39.
[6] مكى شبيكه: مملكة الفونج، ص29.
[7] نفسه، ص31.
[8] جبل بالقرب من سنار على خط عرض 13.28 درجه وطول 33.52 درجه (احمد بن الحاج أبو على، تحقيق الشاطر بصيلى، ص5.
[9] نفسه، ص19.
[10] نفسه، ص5.

أخباره إلى الفونج بالصعيد وهم جنود لولو)[11]. رجح الشاطر بصيلى إن البيت الفونجى كان يمارس سلطاته فى جنوب غرب ارتريا قبل إن ينتقل إلى النيل الأزرق ويتخذ سنار عاصمة له[12] وهو فى ذلك ربط بين لول التى وردت فى المصادر المحلية ولمؤل روبينى بجزيرة لامو على ساحل شرق إفريقيا بين كينيا والصومال ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق تبعد ذلك الموضع ويرجح يوسف فضل إن تكون هناك ثمة صله بين لمؤل ولول وجبل أولو الواقع (على خطى 10.43 شمال 34.20 شرق) غرب كيلى وهو يقع على بعد ثمانية أيام جنوب سنار وقد حكم الفونج جبل أولو قبل مجيئهم إلى النيل الأزرق[13] وهكذا تكون أولو فقدت أهميتها بعد إن اختط الفونج سنار عاصمة لهم لكنهم لم يهملوا موطنهم القديم وذلك حسب ما جاء فى زيادة عمارة دونقس كما إن عادة القتل الطقسى بين تلك الأسر على نمط ما كان سائدا من ملوك سنار وجنود لولو يعزل السلطان إذا ما ارتكب ما يقلل من هيبة الملك يؤكد هذه الصلة. وفى اعتقادى إن من واجبنا إلا نأخذ ما ذكره روبينى مسلما به ونرجع إلى الروايات المحلية التى تلقى الضوء على وطن الفونج الذى سبق تأسيس دولتهم فى سنار ففى بعض النسخ من مخطوطة كاتب الشونة والتى رمز إليها الشاطر بصيلى بحرف (ف) تقول المخطوطة عن اصل الفونج (قيل إنهم من بنى أمية لما انتزع منهم الملك وطاردهم بنو العباس جاء منهم رجلان إلى هذا المحل واستولدوا النساء وان الفونج من نسلهم وقيل إنهم بنى هلاله والشائع إن كبارهم كانوا يجتمعون عند كبيرهم ويأتون بالطعام فأكل من سبق الآكل حتى قدم رجل من السافل فنزل بينهم ونظر فى أحوالهم وصار كلما جاء طعام يحبسه حتى يجتمعوا ويفرقه عليهم ويفضل الباقى فقالوت رجل مبارك لا يفارقنا فزوجوه بنت ملكهم ولدت له ولدا فلما كبر مات جده اتفق رأيهم إن يجعلوه محل جده وتبعة الكل ولذا سموا بالأنساب ولما أرادوا الانتقال عملوا لملكهم

---

[11] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص42.
[12] تاريخ حضارات السودان الشرقى والأوسط، ص 208.
[13] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص43.

سريرا ولزوجته كذلك وحملوه حتى نزلوا بهم جبل مويه ولما صار لهم الملك صار لهم السرير عادة فحين يملكون ملكا جديدا يزوجوه من نسل تلك المراة ويسمونها بنت عين شمس ويحملونها إلى حوش الجنوى ويحبسونه سبعة أيام ويخرجون إلى حوش معروف لهم فيه عوايد) هناك تشابه شديد بين ما ذكر فى هذه المخطوطة وما ذكره الشاطر بصيلى عن تتويج ملك الفونج فى فازوغلى فى 1944م ويدعى حميد رجل ابادير إذ إن الملك يحمل إلى حوش الجنوب ويحبس مع عذراء لمدة سبعة أيام ولا يتعرض لضوء الشمس لان ذلك فيه مخالفة للعوايد[14] إذا أضفنا إلى هذا التشابه فى عادات أهل فازوغلى مع الفونج فى وطنهم الأول قبل سنار ما ذكره كاتب الشونة عن لولو التى هى فى الصعيد وكلمة الصعيد يقصد بها جنوب المنطقة ولا تبعد كثيراً عن العاصمة وهذا يدل على إن جنود (لولو) لقربهم يتدخلون فى الأزمات فى تولية وعزل ملوك سنار وعلى هذا فان موطن الفونج الذى بسطوا نفوذهم منه هو منطقة النيل الأزرق حتى حدود الحبشة.

فى خلال عهد عمارة قدم السلطان العثمانى سليم إلى سواكن ومصوع وسيطر عليهما ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار ويقول نعوم شقير (انه خاطب ملكها يدعوه إلى الطاعة) وكان لحسن تدبير عمارة إن السلطان العثمانى عاد أدراجة وعدل عن غزو سنار مقتنعا بحجة عمارة التى شرحها فى رسالة يقول فيها (أننى لا اعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى فان كان لأجل تأييد الإسلام فاننىَ أنا وأهل مملكتى عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وان كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر أهل مملكتى عرب بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ولا شئ عندهم تجمع منه جزية سنوية) وأرسل مع الخطاب كتاب انساب قبائل العرب الذى جمعه له الأمام السمرقندى احد علماء سنار ولما وصل هذان الكتابان إلى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار[15]. ويتضح مما تقدم إن عمارة دونقس منذ 1505م ظهر

---

[14] الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان، ص275.

[15] نعوم شقير: مرجع سابق، ج2، ص388.

كزعيم لدولة ناشئة على أساس اسلامى وبسط نفوذه على حوض النيل الأزرق وكـــان كثير التنقل فى مملكته وان سنار قد اختطت فى عهده كعاصمة ولكنه لم يســتقر فيهـــا عندما زاره روبيني.

خلف عمارة دونقس ثلاثة ملوك لم تفدنا المصادر شيئا سوى أسمائهم ومدة حكمهم وان كان هناك اختلاف فى ترتيبهم الزمنى ربما يرجع ذلك إلى أن كتابة هذه الروايات كانت بعد قرنين من ظهور عمارة وحسب ما ورد فى مخطوطة كاتب الشونه انه بعد عمارة دونقس خلفه ابنه عبد القادر الذى حكم 940–952هـ، 1534–1544م[16] وفـــى عهده حاصر الفونج جبلى سقدى وموبه وهزموا سكانها ثم اسروا زعيميها وقادوهمـــا في سلاسل من ذهب إلى سنار وهناك بعد إن اعتنقا الإسلام وقـــبلا دفـــع الضـــريبة أعادوهما إلى منصبيهما[17].

– السلطان نايل بن عمارة حكم من 952 – 962هـ، 1544–1555م:

تولى الحكم بعد أخيه عبد القادر وكان محبا للعلم والعلماء وخطى عنده الشيخ بانقا الضرير بالشفاعه[18] .

– السلطان عمارة أبو سكيكين 962–970هـ، 1555–1563م:

هو بن عمارة وأخ السلطان نايل ورابع ملوك الفونج يرجح يوسف فضـــل انـــه اعتلى العرش بعد السلطان عبد القادر وذلك حسب رواية مسيو كايو فى تسلسل ملوك الفونج[19] ولعل ابرز حدث فى عهده كان توليته للشـــيخ عجيـــب المانجلـــك مشـــيخة العبدلاب وشهد عهده استقرارا انعكس على الحياة العلمية والدينية للسلطنة ويتضح ذلك من وفود العلماء والمتصوفة أمثال الشيخ إبراهيم البولاد من مصر والشيخ تاج الـــدين

[16] أحمد بن الحاج أبو على مرجع سبق ذكره، ص7.
[17] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص63.
[18] نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ص401.
[19] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 40 هامش رقم 9.

البهارى من بغداد هذا بالإضافة إلى بزوغ نجم الكثيرين من المشايخ واتصالهم بعلماء فى الخارج[20].

- السلطان دكين بن نايل الادل 970-985هـ، 1563-1578م:

هو دكين بن نايل بن عمارة بن عدلان تذكر عنه مخطوطة الشيخ احمد المنقحة ما يلى: (هو من افخر ملوك الفونج رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها احد من جميع أهل مملكته وجعل لكل جهة جهات مملكته رئيسا معلوما وقنن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا الأعلى فالأعلى فى جلوسهم إمامه وتقول المخطوطة انه معروف بملك العادة[21] ويقول يوسف فضل لا أعرف شرحا لهذه التسمية ولعل اهتمامه بتنظيم مرافق الدولة كتعيين القضاة كان سببا[22] ويرجح مكى شبيكه إن تكون هناك صلة بين هذه التسمية والجلوس على الككر ولبس الطاقيه التى عرفت منذ حضارة الفراعنة وحضارة النوبة إذ أنها وجدت فى صور آثار النوبة[23] واعتقد إن سبب هذه التسمية هو تنظيمه لكل أمور الدولة حيث أصبحت عادة إن يعرف كل شخص حدوده ومهامه وواجباتة ويعتاد عليها حيث تركز الهيكل الإدارى للدولة فى عهده في مشيخات تحكم الأقاليم[24] وهذه التنظيمات الديوانية تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية وأثرها على سنار حيث كان لباشوات سواكن ومصوع الأتراك وكلاء تجاريين فى سنار واربجى[25] وتفوى السلطان دكين فى 985هـ-1578م بعد إن نجح فى وضع سياسة تنظيمية جديدة لدولته.

---

[20] نفسه، ص40-41.
[21] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص8.
[22] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص255 هامش رقم 4.
[23] مكى شبيكه، مملكة الفونج، ص46.
[24] نفسه، ص59.
[25] الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص 253.

– السلطان طمبل الأول 985–997هـ، 1578–1589م:

هو ابن السلطان عبد القادر بن نايل بن عمارة بن عدلان لم تدون المصادر شـيئاً أكثر من ذلك عن السلطان أونسه الأول 997–10007هـ، 1589–1599م. ولم تـدون له المصادر أكثر من ذلك عنه.

– السلطان أونسه الأول 997–1007هـ، 1589–1599م:

ولم تدون له المصادر أكثر من ذلك.

– السلطان عبد القادر الثاني حكم من 1007–1013هـ، 1599–1605م:

حسب رواية كاتب الشونه وقد شهد عهده بروز خطر خـارجي يهـدد السـلطنة من جهة الحبشة ويرى زاهر رياض إن سلطنة الفونج خضعت لإثيوبيا عـام 1012هـ 1604م أيام الملك عبد القادر الذى عزل عن العرش بسبب هذا الخضوع فأقـام فـى تشليجه لإثيوبية وهى تقع شمال بحيرة تانا[26] فى حين إن الشاطر بصيلى يذكر إن هذا السلطان عزل بسبب لهوه وخلاعته وهرب إلى تشليجه والتجأ إلى النجاشى الذى منحه حق الإقامة ويضيف الشاطر بصيلى قائلا ومما يؤخذ على هذا السلطان انه عقد اتفاقـا مع النجاشى اعتراف فيه بتبعيته للحبشة وقبل نقاره محلاة بسلسلة ذهبية وتبادل الهدايا مع النجاشى[27] غير إن المصادر الحبشية لا تذكر اى عقد يؤكد ذلك ويقول مصـطفى محمد مسعد إن السلطان عبد القادر كانت له علاقات طيبة مع ملك الحبشة بالقدر الذى جعله يتبادل معه الهدايا ومن هذه العلاقة رجح البعض تبعية سلطان سنار للحبشة ولعل منشأ هذه التبعية يعود لاضطرابات داخلية بين أبناء البيت المالك فى سنار مما أدى إلى عزل السلطان عبد القادر الثانى نفسه من منصبة ويقال بأنه لجأ بعد ذلك إلـى حـدود الحبشة وأبدى خضوعا وولاءً لإمبراطورها ربما فكر القادر باللجوء إلى الإمبراطـور

[26] زاهر رياض: السودان المعاصر، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1966م، ص14.
[27] تاريخ وحضارات السودان، ص254.

الحبشي عله يسنده في محاولاته لاسترجاع ملكه. وقد كان لوجود عبد القادر في بلد حبشي أسوأ الأثر على العلاقات بين الحبشه وسنار.

- السلطان عدلان بن دآية 1013- 1020هـ، 1605 - 1612م:

هو أخ السلطان عبد القادر يقول عنه مصطفى محمد سعد أنه أغتصب العرش من أخيه حتى الجأة إلى الحبشه[28] ومن ثم عمل على إدخال تعديلات كثيره على بعض العادات والتقاليد المرعية الأمر الذى سبب قلقا وتزمرا كان من نتيجته قيام حركة تمرد وعصيان من جانب العبدلاب مما دفع الشيخ عجيب الكافوتة إن يستشير إدريس ود الأرباب قائلا : إن الفونج غيروا العوايد علينا[29] ولعله يقصد أن الفونج غيروا في النظم والتقاليد التي تنظم العلاقات بين الفونج والعبدلاب فأشار عليه الشيخ إدريس بعدم حرب الفونج ولكنه أعلن عصيانه فخرج عليه ود عدلان من سنار ويقال انه نزل (بالتي) وأرسل الجيش فتلقاهم الشيخ عجيب ومعه عبد الوهاب بن الفقيه حمد صاحب مسجد اسلانج الذى خرج لقتال الفونج في 1611م[30] واقتتلوا في مكان سمى ابن عمارة جوار كركوج[31] وفيه قتل الشيخ عجيب مما أدى إلى هروب ذريته إلى دنقلا[32] . ويعد هذا أول صدام مسلح بين طرفي التحالف وربما يعود لإحساس العبدلاب بشئ من القوه فحاولوا إن يثأروا لهزيمتهم في اربجي وكذلك التخلص من التبعيه للفونج.

واعتقد أن السبب المباشر هو السياسة التي ادخلها السلطان دكين بن نايل (980-987هـ، 1563-1570م) هي التي أدت إلى اختلال في ميزان القوى بالإضافة إلى أغتصاب السلطان عدلان للعرش ربما حاول العبدلاب التدخل لإعادة السلطان

[28] بعض ملاحظات جديدة في تاريخ مملكه الفونج ص14-15.
[29] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص63.
[30] نفسه، 288.
[31] كركوج قرية جنوب الخرطوم بحرى شرق النيل الأزرق تعرف الآن بالجريف كركوج (محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص153 حاشية رقم 6).
[32] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص8-9.

الشرعى لدولة الفونج وظل هذا الخلاف مستمرا إلى إن تدخل الشيخ إدريس ود الأرباب وهو ممن كانت له الشفاعه لدى سلاطين الفونج فلحق بهم فى دنقلا واستطاعت وساطته إن تؤتى آكلها فى الحصول على العفو عنهم ومنحهم الأمان وجاءوا معه وشيخوا من بينهم الشيخ عجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب خليفة لأبية[33] وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كير من العلماء من مصر والمغرب والجزيرة العربية إلى السودان ومن هؤلاء الشيخ حسن ود حسونة من الأندلس والشيخ محمد المصرى وغيرهم.

اختلفت الروايات المحلية فى مدة حكم هذا السلطان فالمخطوطات تذكر انه حكم ثلاث سنوات وتوفى بينما تذكر الطبقات فى ترجعه الشيخ صغيرون إن الملك عدلان بعد ما قتل الشيخ عجيب فى كركوج سار بجيوشه إلى دنقلا فلما جاء فى حفير مشو عزله الفونج عن الملك وولوا بدله بادى سيد القوم[34] هذه مسألة جديرة بالتحقيق وتعوزها الوثائق وإنا أشك فى إن عدلان هذا كان ملكا على سنار وربما كان يشغل وظيفة سيد القوم الذى مهامه قيادة الجيش وربما كان يتمتع بشخصية قوية حجبت السلطان.

– بادى الأول بن عبد القادر بن رباط سيد القوم حكم من 1020–1023هـ، 1612–1615م:

هو بن السلطان عبد القادر الذى خلع من العرش ولجأ للحبشة تولى بادى السلطة بعد موقعة كركوج مباشرة ويقال إن الإمبراطور الحبشى بعث بهدية للسلطان بادى مكونة من عقد من الذهب وكرسى مذهب[35] ربما قصد من ذلك إعادة علاقات حسن الجوار بينه وبين سنار على النقيض من السلطان بادى الذى خشى إن يفسر قبول الهدية بأنه صار تابعاً للإمبراطور ولما كانت مثل هذه الهدايا ترسل من السيد إلى

(33) احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص9.
(34) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 235.
(35) يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص65.

المسود الأمر الذى أغضب بادى فأرسل إلى النجاشى اثنين من الخيل الهرمة العرجاء العمياء[36] تحقيراً له وهده إن يشعر النجاشى إن سنار لا تدين بالولاء للحبشة وخاصة وان والده المقيم فى تشليجه كان يزاول نشاطا يتنافى مع علاقات حسن الجوار فقد تعاون مع النجاشى فى حملته على الملكة صديقة والتى كانت تحكم المنطقة المجاورة لحدود الحبشة[37] يبدو أن تطور العلاقات بين البلدين قد أدى إلى إخراج عبد القادر من الحبشة غير إن ذلك لم يحسن العلاقات خاصة بعد إن هاجم نايل ود عجيب زعيم رفاعة الشرق إقليما فى الحبشة فاحتج الأحباش ولزم السلطان بادى الصمت[38] ثم لجأ غالب حاكم مقاطعة مزقه ودخل سنار بفرسانه ونحاسه وطلب الإمبراطور بإرجاع النحاس ولم يأبه ملك سنار بالأمر[39] ولعل ملك سنار فى تصرفاته هذه كان متأثرا بموقف والده من الإمبراطور والعلاقات الحسنة التى كانت سائدة بينهما مما جعله يظن إنها مدمه لدخول والده سنار بمساعدة الإمبراطور لإعادة ملكة الذى نجاه عنه أهلة الفونج.

لم يستطيع النجاشى الانتقام من السلطان بادى بسبب هديته المهينة وما تلاها من إحداث وذلك بسبب مشاغلة الداخلية إلا أنه قرب إليه نايل ود عجيب ليهاجم ويخرج ممتلكات الفونج[40].

– السلطان رباط بن بادى 1023–1052هـ، 1615–1643م:

ترك بادى تركة مثقلة بالمشاكل خاصة مع الأحباش فما إن بدأ عهد السلطان رباط حدثت المواجهة بين البلدين فى شكل مناوشات وحروبات صغيرة وكان رد السلطان رباط إرسال اثنين من قوادة هما عبد الله وعون الله إلى مدينة سركى[41] لحمايتها

(36) يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص65.
(37) الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص255.
(38) مكى شبيكه: مرجع سبق ذكره، ص60.
(39) يوسف ضل، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.
(40) نفسه نفس الصحة.
(41) قرية سناريه ملتقى طرق القوافل التجارية.

فهاجما قرية تابعة للأحباش وقتلا حاكمها محمد سعيد وما إن علم الإمبراطور بذلك حتى أرسل قوة هزمت الفونج وقتلت عبد الله وتمكن عون الله من الهروب[42] استمرت هذه المناوشات خلال عامي (1618-1619م) واعتبر الأحباش أنفسهم منتصرين ولم تذكر المصادر السودانية شيئا عن هذه الحرب ربما لعدم أهميتها أو إن خسائرهم كانت بسيطة، استأنف الأحباش الهجوم ويقول مكي شبيكه: إنهم قسموا الجيش إلى ثلاثة فرق، فرقة اتجهت لسنار ولكنها لم تصل غايتها مكتفية بغنائم الحدود والثانية اتجهت نحو القضارف حيث عادت بالجمال والطبول إما الثالثة فكانت نحو التاكا ولم تصل للإمبراطور غنائم[43] وربما استولى عليها قادة الجيش واضح من هذه الهجمات الصد منها الحصول على الأسلاب.

– السلطان بادي الثاني بن رباط أبو دقن حكم من 1052-1088هـ، 1643- 1678م:

كان يمثل العهد الذهبي لسلطنة الفونج حيث شهدت سنار في عهده طفرة إدارية إذ عمل على اظهار ابهة السلطنة عليها وذلك ببنائة قصر الحكومة والذى جعله من خمس طوابق ثم بنى مخازن للأسلحة والذخائر وعمل على تشييد ديوان الحكومة وبناء ديوانين أحداهما جعله خارج القصر وأحاط ذلك كله بسور له تسعه أبواب جعل ثمانية منها لأمراء دولته كل منهم يدخل إلى ديوانه الخاص للنظر في الشئون المتعلقة به وجعل التاسع خاصا له ولولد عجيب شيخ قرى ثم جعل كل هذه الأبواب تفتح في حائط واحد وجعل إمام كل منها رواقا له دكه تسمى بدكه من نادالك[44] . وهد بذلك إلى إظهار اهتمامه بالعدالة ورفع المظالم لان هذه الدكه خصصت لإفراد الرعية لإسماع شكواهم لأذان الملك بطريقة واضحة دون إن يقف في طريقهم الحجاب وقام كذلك بتنظيم إدارة المراسم ثم بنى مسجدا جامعا في وسط سنار أحاطه بكل مظاهر

[42] مكي شبيكه، مرجع سبق ذكره، ص61.
[43] نفسه نفس الصفحة.
[44] هى مكان لسماع الشكاوى مخصوص لذلك أحمد بن الحاج أبو علي، مرجع سبق ذكره، ص11.

الفخامة[45] واعترض كراوفورد على وجود هذا القصر وذكر إن الرحالة بونسيه وكرمب الذين زاروا سنار لم يذكروا قصرا بهذه الصفة وفى الوقت نفسه فان المسيو كايو الذى راق حملة إسماعيل بن محمد على إلى سنار شاهد آثار قصر متداع متعدد الطبقات واخبره بادى ملك سنار الأخير إن هذه الخرائب هى كل ما بقى من آثار قوة أسلافه[46] ويذكر نعوم شقير لما تضعضع حال الفونج وتغلب الهمج تهدم كثير من البيوت وتداعى القصر الكبير وبقيت إثارة حتى الفتح المصرى[47] وقد يكون هذا الشك فى محله ولكن إلا يحتمل إن يقابل الملك هؤلاء الزائرين فى احد الدواوين التى ذكرتها المخطوطة سواء كان خارج الحائط أو بداخلة والديوان إلى وقتنا الحاضر هو بناية منفصلة خاصة بالرجال. شهد عهد بادى تطورا فى العلاقات الخارجية واعتقد إن سبة تسامحه الدينى إزاء أصحاب الديانات الأخرى وتمثل ذلك فى النشاط التبشيرى الذى قامت به البعثات التبشيرية بدعم مادى من بابا روما وذلك محاولة منه لبسط نفوذهم وفتح أسواق جديدة عبر أراضى مملكة سنار[48] .

ويبدو ان هذا التسامح الذى عرف به كان نتيجة لتعظيمة للعلماء واكرامة لهم حتى ان عطاءة كان يصل الى علماء الازهر فى مصر مما حدا بالشيخ عمر المغربى ان يمدحة بقصيدة طويلة[49] .

ويعتبر أكرامة لعلماء الأزهر وعطاياه الجزيلة ما هو إلا استمرار لسياسة ملوك دولة الفونج منذ إن أنشأها عمارة دونقس مؤسس هذه الدولة. شهد عهده ثلاثة حروب داخلية.

---

(45) نفسه ص16.

(46) مكى شبيكه، مملكة الفونج، ص65.

(47) جغرافية وتاريخ السودان، ج1، ص394.

(48) Crow Fofd : The Fung Kindom Of Sunnar, P212.

(49) للإطلاع على القصيدة انظر أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص 11-16.

– **أولا :** غزوة لقبيلة الشلك التى كانت تسيطر على النيل الأبيض وتشكل بغاراتها المتكررة خطرا كبيرا على المجموعات العربية التى تسكن الجزيرة واحتل معبر أليس[50] الشهير حتى يضمن السيطرة على القوافل التى تعبر النيل الأبيض ونجح بادى في قتل الشلك واخذ منهم أسرى كثيرين والباقى هرب منه[51] وربما اخذ الأسرى معه لتقوية جيشه أو لخدمته فى الطريق.

– **ثانيا:** غزا مملكة تقلى الإسلامية والجبال المجارة لها يذكر يوسف فضل إن سبب هذه الحرب يرجع للغرور الذى أصاب ملوك تقلى بعد إن اتسعت رقعة مملكتهم وفرض السلطان قيلى أبو قرون ضريبة على أحد أصدقاء السلطان بادى أبو دقن وأساء معاملته بل تحداه ظنا منه إن الصحراء الواقعة بين مملكته والنيل الأبيض تحول بينهما[52] وتقول مخطوطة كاتب الشونة إن ملك تقلى اخذ من صاحب السلطان بادى مالا وتحداه ولما علم الملك اجمع على حربة وسار عبر بأجه أم لماع (وهى صحراء رملية موحلة) حتى بلغ جبال النوبة وصار يحاصرها ويسبى منها حتى وصل تقلى وكان ملكها يقاتلهم بالنهار ويرسل لهم الضيافة ليلا فسر الملك بادى منه وصالحة وجعل عليه خراجا معلوما[53] لم تحدد المصادر تفاصيل هذا الخراج لكن يرجح إنها كانت تدفع من الرقيق إذا تأكد ظننا وافترضنا إن السلطان بادى هدف من هذه الغزوات إلى جمع العبيد، يكون بهذا الصلح حقق هذا الهدف بطريقة سلمية.

---

(50) بلدة تقع على النيل الأبيض بالقرب من مدينة الكوة (على خطى 13.44 درجة شمال 32.30 درجة شرق) ولم يبق منها الآن إلا خرائب ويقال إنها كانت حاضرة لقبيلة الشلك ولأهميتها فى مراقبة النيل الأبيض وكردفان وضع الفونج حماية عسكرية فيها (محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره ص84 هامش رقم 7).

(51) أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص10.

(52) يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص97.

(53) أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص10-11.

ويذكر مكى شبيكه إن غزو بادى لمنطقة تقلى لم يكن ردا للإهانة التى لحقت بصديقة فحسب بل هى حمله مدبرة ذات إغراض توسعية[54] .

واعتقد إن غرضه الاساسى الحصول على الأسرى لتجنيدهم فى جيشه بدليل هذه القرى التى اسكنهم فيها بعد عودته من غزو تقلى وجبل الداير وتذكر المخطوطة (واتخذهم سندا وبطانة له وتناسلوا بتلك الحلالات[55] وإذا كانت دولة الفونج فى عهد بادى أبو دقن قد أخذت تقلل من اعتمادها على الجنود التقليديين الذين يجمعون من القبائل أو على (جنود لولو) الذين قاموا بدور قيادى فى دولة الفونج فهى أذن فكرت فى البديل بل وحرصت على زيادته بدليل قول يوسف فضل (ثم تكاثر عددهم بالشراء)[56] وهذا يؤكد ما وصلنا إليه وهو إن من أهداف الحملة خلق جيش من الرقيق.

- **ثالثا:** انفصال الشايقيه عن دولة الفونج فى عهد بادى حيث أعلنوا استقلالهم وقصة انفصالهم يرويها نكولز فى كتابه الشايقيه قائلا (إن خارجا على سلطة الشيخ الأمين ود عجيب مانجل العبدلاب وصاحب السيادة على سنار بما فيها الشايقيه التجأ إلى الشيخ عثمان ود حمد العمرابى شيخ وزعيم الشايقيه آنذاك ورفض عثمان تسليمه للامين أو قتله وإزاء هذا التحدى زحف شيخ العبدلاب لتأديب الشايقيه وعند وصوله معسكرا فى جزيرة دلفه بالقرب من مروى متنكراً ولجأ إلى حيله تجعل قوته بأكثر من حقيقتها فكان يدهن خيله بلون خاص ويجعلها ترد النهر حيث يراها شيخ العبدلاب على الضفة المقابلة ثم يغير اللون وترد النهر مرة ثانية وهكذا عدة مرات وجازت الحيلة على الأمين ورأى الصلح مع الشايقيه بدلاً من المخاطرة وأرسل إلى عثمان الذى جاء بمفردة راكبا فرسه وعندما اقترب أشار الأمين إلى أحد أتباعه

[54] مملكة الفونج الإسلامية، ص64.
[55] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص11.
[56] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص68.

بالقبض على عثمان عندما يصل غير إن أحد الشايقيه رفع صوته قائلا (وحياة الرب شرك أو حبيبة في رقيبتك طب فهم عثمان المقصود وعاد مسرعا واتفق مع قومه على مهاجمة العبدلاب في الليل فأعدوا البهائم وربطوا على ظهرها حزما من القش وساقوها إمامهم في صمت وعندما قاربوا المنطقة التي كان العبدلاب يعسكرون فيها أشعلوا النيران في ذلك القش الذي كانت تحمله تلك البهائم فانطلقت القطعان مجفلة في اتجاه المعسكر والناس نيام فأحدثت بينهم زعراً وانطلق عثمان ورجالة خلف هذه الكتل المشتعلة وهم يتصايحون صيحات الحرب ولازت جيوش العبدلاب بالفرار وفرش الشيخ الأمين ود عجيب فروته وجلس في انتظار الموت ووقف عثمان شاهراً سيفه واعداً بالعفو إن ضمن استقلال الشايقيه ولبى الأمين ذلك[57] وتأكد استقلال الشايقية) من المحتمل أن تكون هذه الإحداث قد وقعت ما بين 1000 – 1100هـ، 1680–1690م لان الرحالة يونسيه الذي زار دنقلا 1108هـ – 1698 ذكر إن منطقة الشايقيه لم تكن مأمونة للعبور فيها بسبب ثورة الشايقيه ضد ملك سنار وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيدا عن متناول الشايقيه كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية من العبابدة والبشارين لحمايتها من تعدى الشايقيه[58] .

– السلطان أونسه الثاني بن بادى حكم من عام 1678–1689م ، 1088–1100 هـ:

اعتلى العرش بعد عمه بادى أبو دقن على حد قول الروايات المحلية ويرجح الشاطر بصيلى إن يكون السلطان عجلان بن محمد قد حكم بعد بادى أبو دقن ودليلة خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد يعود إلى 1083–1095هـ، 1673–1674م. يقول فيه يا من يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا .. الخ وربما كان الشاطر بصيلى على حق لان قائمة السلاطين التي أعطيت إلى الرحالة بروس كتبت بعد ما يقرب من مائه عام من حكم عدلان.

[57] ونيكولز ، الشايقيه، ص 22–26.

[58] ونيكولز الشيايقيه ترجمة عبد المجيد عابدين، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، 1972م، ص 71.

حدث في عهد أونسه زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان وكان ذلك في 1093 هـ - 1683م وتسبب عن ذلك إضرار جسيمة وغلاء شديد حتى أكلت الناس فيه الكلاب لذلك عرفت هذه السنة بسنة أم لحم[59] وانتشر الجدرى في صورة وباء وعرف عن هذا السلطان بإكرامه للعلماء.

- السلطان بادى الثالث (الأحمر) حكم في الفترة 1100-1127هـ، 1689-1715م:

هو ابن أونسه الثاني لم يكن موفقاً في إدارته لفساد أخلاقة وفجوره[60] بدأت في عهده ظاهرة جديدة لأول مرة حسب الروايات التى دونت ووصلت إلينا وهى محاولة خلع السلطان بالقوة وقد عرنا ملوكا سابقين خلعوا من العرش لكن بدون حرب وربما بمجلس من كبار الفونج. إما السلطان بادى خرج عن طاعته أهله الفونج ومعهم الشيخ عجيب وحاربوه وملكوا عليهم ملكا أسمة أوكل وعندما جاءوا لقتاله كانوا نحو ألف فارس وهو ما معه إلا خمسة وأربعون فقاتلهم وطردهم إلى خور العطشان وقتل الأمين أرداب ورجع الملك سالما وبقى فى ملكة إلى إن مات[61] اعتقد إن هذه بلا شك مؤامرة اشترك فيها الفونج والعبدلاب على بادى الأحمر من كل الجوانب بدليل قول ود ضيف الله ان ملك الفونج لما خرجت عليه العساكر من قرى وسنار واليس نحو ألف فارس ولا تذكر المراجع أسبابها وبواعثها لكنها تدل على ظلم مشترك بين الفونج والعبدلاب وحتى عبيدة[62] اشتركوا في هذه المؤامرة وربما كان السبب هو عدم الاعتماد على جنود لولو بإيجاد البديل (جيش مملوكى) لذا كان هذا أول احتجاج مسلح على هذه البدعة لكن لماذا يثور العبيد وهم الذين جاء بهم من النوبة وتقلى منذ عهد بادى أبو دقن وسكنوا سنار لكل جنس حلة معلومة وصاروا وبطانة لملوك الفونج[63].

---

[59] محمد النور بن ضيف الله، الطبقات في خصوص الاوليا والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، السودان، الخرطوم، 1992م، ص71.

[60] الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر، مصر، القاهرة، النهضة العامة للكتاب، 1972م، ص260.

[61] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص17.

[62] محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص203 حاشية رقم (1).

[63] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص11.

ربما أحس هؤلاء العبيد بالظلم حتى اضطرهم للاشتراك في هذه الثورة على السلطان وشجعوا ملكا أخر والغريب انه انتصر عليهم بجيش قليل. لكن يبدو انه فعلا كان مفسدا بدليل ما ذكره ود ضيف الله انه عندما أحاطت به العساكر من كل جانب وقتلوا جميعا من كان معه وما بقى إلا ثلاثين فارسا اختفى السلطان فى حوش أخته كمير التى ذهبت إلى الشيخ خليل شاكية ضياع ملك أخيها فرد الشيخ قائلا: (أخوك الظالم المفسد)[64].

وحدث في عهده كذلك حسب ما ورد فى الطبقات أن احد مشايخ الصوفية ويدعى حمد ود الترابى وهو من عرب رفاعة الهوى سافر إلى الحج بزوجته وسبعين تلميذا وهناك ادعى المهدية فأرسل حواره ميرفى إلى سنار ليعلن ظهوره إلا إن الملك بادى قتل هذا المبعوث أطفاءاً لنار الفتنة[65] ومن الإحداث الهامة التى جرت فى عهد بادى الأحمر ما أوردة كراوفورد من ازدياد لنشاط البعثات التبشيرية الكاثوليكية بين مصر والحبشة متخذين سنار طريقا لهم[66] .

وتتكون هذه البعثات من فريقين الأول الفرنسسكان ويؤيدهم بابا روما والثانى الجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ملك فرنسا عن طريق قنصله فى مصر دى ميلين[67]. ويشير مكى شبيكه إلى إن الفرنسيسكان أسسوا بعثة تبشيرية فى بلدة أخميم بمصر أطلقوا عليها بعثة أخميم والفونج وإثيوبيا وهدفها تحويل كنيسة إثيوبيا من الاورثوذكية كنسية إلى الكاثوليكية[68]. وبدأ السابق عندما علم الجزويت بأن إمبراطور الحبشة يريد طبيبا لابنه المريض فسارع الجزويت بإغراء بونسيه ليكون هو الطبيب وأرسلوا معه راهبا ويقول مكى شبيكه انه خلع لباس الكهنوت وسار الاثنان مع حاج على فى قافلة سودانية[69] الغريب فى الأمر إن الفريقين من طائفة واحده فى المسيحية

---

[64] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص203.

[65] نفسه، نفس الصحة.

[66] الشاطر بصيلى مرجع سبق ذكره، ص262، Crow Ford : Opeit., P.202-212.

[67] مكى شبيكه، مرجع سبق ذكره، ص69.

[68] نفسه، نفس الصفحة.

[69] نفسه، ص70.

هى الكاثوليك وإذا كان الهدف واحد وهو التبشير لاتحدا سويا ولعل هذا أول تدخل أوروبى سافر لإحداث الفرقة والشقاق بين أبناء النيل (مصر والسودان) وإثيوبيا لأنه من المعلوم إن الكنيسة القبطية ظلت لها السلطة الروحية لمدة ألف عام على الكنيسة الإثيوبية والوجود القبطى فى السودان خير شاهد ولعل اكبر محاولة لإحداث الفرقة والفتنة بين شعوب وادى النيل كان هذا التدخل.

اعتقد إن الفرنسيسكان ربما كانوا فعلا مبشرين لان بابا روما يسندهم وهو الذى يسعى لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكى إما الجزويت لا اعتقد إن هدفهم دينى ويؤيدهم ملك فرنسا العلمانى وإذا كان الغرض كذلك لما خلع الراهب لباس الكهنوت ؟. ويذكر مصطفى محمد مسعد انه فى نفس الوقت الذى كانت بعثة الفرنسيسكان دائبة النشاط فيما بين سنار والحبشة عينت الحكومة الفرنسية دى رول سفيراً لها فى الحبشة محددة أهدافها وهى التبشير الدينى والتجارة وفتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها وأخيرا التجسس لجمع معلومات عسكرية[70]. ويمضى مسعد فيقول: عند وصول حملة دى رول قابلها السلطان بالترحيب وتسلم الهدايا التى بعث بها إليه ملك فرنسا ولكن الفرنسيسكان قاموا بنشر دعاية مفادها إن الجزويت يسعون لتحويل مجرى النيل الأزرق عن سنار مما كان سببا فى أيغار صدر السلطان بادى فأمر باللحاق بالحملة وقتل أفرادها واستعاد الهدايا منها[71]. ومن سوء طالع تلك البعثة إن الفيضان فى عام 1705م وهو العام الذى وصلت فيه إلى سنار كان منخفضا مما أكد الإشاعات.

-السلطان أونسه الثالث حكم من 1127- 1130هـ، 1715-1718م:

هو أونسه بن بادى بن أونسه بن بادى بن ناصر لم يتمكن من إدارة السلطنة لان بلادة فى عهده كانت تموج بالفتن والاضطرابات غير انه لم يبال. وقد وصفة صاحب

---

[70] مصطفى محمد مسعد، بعض ملاحظات جديدة حول تاريخ مملكة الفونج، ص15.
[71] الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، 264.

المخطوطة باللهو واللعب وارتكاب الفواحش[72] ونظراً لمسلكه المشين عزله جنود لولو من العرش باستخدام حيلة مؤداها إن يقتل وزيرة دياب حتى يتركوه قائما بالحكم فلما أجابهم إلى طلبهم عزلوه وخرج من سنار بعد ما ولوا مكانة السلطان نول[73] وربما بجانب اللهو والفواحش احتضن الرقيق كأبية وجده واتخذهم جنداً وبطانة له مما جعل جنود لولو يحضرون من الصعيد ويعزلوه بأنفسهم وبعزل هذا السلطان كانت نهاية حكم البيت السنارى أو أخر سلالة بين الملك الاصلى (الاونساب)[74] من نسل عمارة دونقس.

- السلطان نول حكم من 1132–1136هـ، 1720–1724م:

بعد عزل الملك أونسه بقى العرش شاغراً 1719–1720م ربما لأنهم لم يجدوا من عائلة الفونج من له الكفاءة لتولى هذا المنصب وأخيرا اجتمعت كلمة أهل الرأى من الفونج وزعماء الدولة على اختيار نول سلطانا على دولة الفونج[75] وهو من غير الاونساب سلالة ملوك الفونج لكن تربطه بهم صلة قربى عن طريق امة[76] وصفه كاتب الشونة بأنه رجل محسن عادل حتى إن قومه سموه (نوم) من شدة عدله[77] ويستشف من عزل أونسه وتعيين نول عدم رغبة النبلاء فى بلاط الفونج من بقاء الجيش المملوكى الذى أدى وجودة إلى صدام مع القوى التقليدية فى الدولة. وفى نهاية عهد السلطان نول دخلت السلطنة فى مرحلة من الفوضى والحروب الأهلية بسبب عوامل داخلية وخارجية أهمها اغتصاب وزراء الهمج للسلطة من السلطان وتوليته وعزلة كما يتراءى لهم وهكذا تعطلت التجارة أكثر وكثر السلب والنهب[78] زد على ذلك الحروبات بين المسلمين والحبشة ثم وجود العثمانيين فى البحر الأحمر.

---

[72] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص18.
[73] نفسه، نفس الصفحة.
[74] مكى شبيكه، دولة الفونج الإسلامية، ص82.
[75] الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص287.
[76] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص69.
[77] أحمد بن الحاج أبو على، ص18.
[78] الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص 286.

- السلطان بادى أبو شلوخ حكم من عام 1136-1175هـ، 1724-1762م:

هو بادى بن نول المعروف بأبى شلوخ من اشهر ملوك سنار وهو على حد قول الروايات المحلية أخر ملوك الصولة والشوكة وقد اتسم النصف الأول من عهده بالعدل والرخاء حيث عاونه فى إدارة دولته وزيرة الحكيم دوكه وبعد وفاة هذا الوزير اختل النظام واستقل السلطان بادى بإدارة شئون الدولة وأسرف فى الطغيان وارتكاب الجرائم[79] وأطلق يد أولاده وبطانته فارتفعت الشكاوى فأنزل العقاب بمن يطالب بحقه المغتصب ويذكر كاتب الشونة إن بادى أبو شلوخ أباد بقية الاونساب وطرد الأعيان التقليديين أو أهل الأصول وتعضد بالانواب[80] وأعطاهم ديار أهل الأصول ولم يوقفه من تصفياته تلك سوى الحرب الخبشيه على بلاده التى انتصر فيها وبالتالى زادت شهرته. وتذكر بعض المراجع إن سبب هذه الحرب يعود لمقتل دى رول[81] لكن لابد من وجود أسباب أخرى لان هناك فارقا زمنيا بين الحادثتين لان مقتل دى رول كان 1117هـ - 1705م وبدأت الحرب الحبشية فى 1156هـ - 1744م[82] اى بعد تسعة وثلاثين عاما تقريبا. وربما كان مقتل دى رول سببا من أسبابها ويذكر الشاطر بصيلى إن اضطراب الأحوال الداخلية بعد موت النجاشى تقلا هيمانوت والانقسام الذى حدث نسبة للتنازع على العرش[83] لكن يبدو إن الصراع المذهبى بين الفرنسيسكان والجزويت كان له أثرة فى التطاحن الداخلى بالإضافة إلى إن النجاشى اياسو الثانى الذى تولى الملك اهتم ببناء القصور وأهمل الرعية. مما أثار الاهالى. وحتى يتخلص من تذمرهم اعد العدة لغزو السلطنة السناريه. ويذكر كاتب الشونة إن إمبراطور الحبشة خرج قاصدا سنار فلما سمع الملك بادى جهز جيشا وأمر بإخلاء مدينة سنار

---

(79) نفسه، ص287.

(80) جمع نوبة والمقصود بها الأسرى الذين اسروا فى حملات الفونج لكردفان واتخذهم ملوك الفونج عضدا لهم ضد العناصر التقليدية (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 169 حاشية رقم 1).

(81) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ج2، ص396.

(82) الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص288.

(83) نفسه، نفس الصفحه.

قبل إن تعبر إليها جيوش الأحباش. وقاد الجيش الأمين ود عجيب شيخ قرى وطلب بادى من جميع المراتب الدعاء فاجتهدوا فى ذلك واقبلوا على الله بالدعوات فأجابهم من يجيب المضطر إذا دعاه.

ويقول الشاطر بصيلى إن الأمير خميس وهو من الفور اقترح إن يقود الجيش ويواجه الأحباش من الخلف وهكذا تقابلوا مع الإمبراطور اياسو فى معركة الذكيات واقتتلوا مع عساكره وهو جالس فى خيمته مع خاله ود لول وهو فى حكم السطيح وهزم اياسو في هذه المعركة هزيمة نكراء[84] ونجا من الموت بأعجوبة وفر هاربا تاركا البنادق والمدافع والتاج وبعض أدوات الحكم وفيها ما هو دينى بالغ الأهمية وأرجعت هذه الأخيرة بعد إن دفع الأحباش مبلغا من المال لاسترجاع هذه الأدوات[85]. لم تذكر المراجع تفاصيل هذه الأدوات واعتقد أنها ربما تكون تاج الملك الذى يحمل الصليب وهو من أدوات الحكم لذا دفع الأحباش المال لاسترجاعه ويعلق كاتب أشونة على هذا النصر قائلا: فرح الملك بادى وأهل سنار بهذا النصر ووفوا بنذورهم وعملوا وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام[86]. هذه الحرب كما رأينا أخذت طابعا دينيا وقوميا يظهر الطابع الدينى فى توجه الملك إلى الأولياء والصالحين وعامة الشعب طالبا منهم الدعاء والابتهال لنصر الإسلام ذلك النصر الذى ابتهج له حتى خليفة المسلمين فى تركيا. واعتقد الناس إن هذا النصر هو استجابة لدعواتهم وتضرعاتهم حتى إن قائدهم ولدلول كان راقدا بقوة إلهية. إما الطابع القومى هو اشتراك أصحاب الكفاءات القتالية أمثال الأمين ود عجيب شيخ قرى والأمير خميس جنقل المسبعاوى الذى قام بدور هام فى انتصار الفونج[87] ربما كانت الخطة التى وضعها خميس سببا فى ذلك النصر حي جعل فريقا من الجيش يعبر الضفة الشرقية

---

[84] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص19.
[85] مكى شبيكه، مملكة الفونج الإسلامية، ص85.
[86] محمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص19.
[87] الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص288.

للنيل الأزرق خلسة حتى نجح في محاصرة الأحباش بقائدهم ود لول في زاوية التقاء الدندر بالنيل الأزرق في مكان يقال له الذكيات[88] وهكذا انهزم جيش الأحباش على كل نجت سنار من خطر الغزو الحبشي بفضل تجميع كل القوى.

قويت شوكة الملك بادى بعد هذا النصر وطمع في التوسع نحو كردفان لقتال المسبعات[89] الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي منها (كردفان) وقد اختلفت الروايات في أسباب هذا الغزو كما اختلفت في أمر القوات التي ارسلت فيقول كاتب الشونة ان السلطان بادى ارسل جيشا بقيادة ود تومه[90] والشيخ عبدالله ود عجيب وأخوه شمام وكان مع الجيش السنارى محمد أبو لكيلك وتقابل الجيشان الجيش السنارى ومعه جنود قرى وجيش السلطان هاشم المسبعاوى في موقعة القحيف[91] التي انتهت بهزيمة الجيش السنارى ومقتل ود تومه والشيخ عبد الله ود عجيب تذكر مخطوطة الشونة الأصلية عن قتال جيش سنار والمسبعات ودور أبو لكيلك فيها مما أدى أخيرا الى تسلمة السلطة الفعلية في دولة سنار ويتضح من المخطوطة إن أبو لكيلك تمتع بقوة الشخصية واحترام الناس فيقول (وانطبعت عليه قلوب العساكر والفته النفوس وخضعت له كل الرؤوس[92]) وبعد النصر الذى حققه على المسبعات نجح في بناء جيش يطمئن له[93] ومما هو جدير بالذكر إن مصادر العبدلاب المخطوطة[94] تذكر إن هذه الحرب نشبت أصلا بين العبدلاب والمسبعات على اعتبار إن كردفان كانت تتبع العبدلاب وتعرضت لغزو مسبعات فوجب عليهم الدفاع عنها ومن هنا ذهب شيخ العبدلاب لطردهم فقتل ومعه أخوة وابن أخيه ولما سمع سلطان سنار بذلك خشى أن يقوم شيخ

---

[88] مكان على نهر الدندر الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.

[89] مسبعات اسم يطلق على بيت من دارفور جده السلطان دالى، احمد بن الحاج أبو على، مخطوطة كاتب الشونة، تحقيق الشاطر بصيلى، مصر، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي، 1961م، ص24.

[90] نفسه، ص20.

[91] القحيف مكان في غرب السودان الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، ص90.

[92] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص24.

[93] يوسف فضل، مرجع سبق ذكره، ص720.

[94] صلاح محى الدين الشيخ مخطوطة تاريخية عن ملوك السودان، مجلة الخرطوم، السودان، الخرطوم، العدد الرابع، يناير، 1968، ص7.

العبدلاب- وهو حدث - بأخذ ثأر أبيه وعمه وابن عمه لذا تدخل ملك الفونج إلى جانب العبدلاب . ونعود الى الملك بادى الذى تمادى فى ظلمة ولهوه واتبع هواه وأكثر من النساء وتقول المخطوطة (إن بادى صنع أمورا غيرت خواطر الفونج حتى قالوا هذا الملك كرهناه[95]) ومن جملة ما صنعة قتله الخطيب عبد اللطيف[96] خطيب مسجد سنار ويقول ود ضيف الله الذى ترجم له انه لما قبض عليه قال: (عسى إن يكون قتل فقير بخراب أمير) وهذا ما تم فعلا حيث كانت نهاية المطاف للملك بادى الذى نفسى وطرد وقتل أولاده حتى صار حوش ملكهم كناسة ومأوى للكلاب[97] لان أبناء الملك كانوا كأبيهم عاشوا فسادا ولم يردهم عن غيهم وحتى العلماء إصابتهم سهام طغيانه ففرض عليهم الضرائب وما كانوا يدفعونها من قبل بل كان يغدق عليهم الملوك المنح والهدايا. وحتى مقاديم الفونج الذين كانوا يحاربون فى كردفان فرض عليهم الضرائب[98] وما زال يزداد ظلما وطغيانا فكل من غضب عليه قبضه وأرسله إلى حلته العكوره[99] يحفر مع العبيد فى حفيره كل هذه الأفعال أثارت حفيظة الاهالى وجعلتهم يكرهونه ومما أثار الراى العام الدينى قتله الخطيب عبد اللطيف وطلبه من رجال الدين والعائلة المالكة دفع الضرائب ولهذا قرر الفونج عزله بمعاونة محمد أبو لكيلك وتقول المخطوطة (واجتمع عليه أهل الحراب من كل النواحى بعد إن وصلت الأخبار إلى مقاديم الفونج فى كردفان وطلبوا من محمد أبو لكيلك عزله[100] فقاد الأخير جيشه وزحف من كردفان إلى سنار واتصل بناصر ابن الملك لملاقاته على النيل الأبيض[101]) وهكذا أبقى الملك بادى وحده فى الميدان. ولم يهب لنصرته احد

---

[95] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص20.

[96] هو من علماء الفونج درس جميع الفنون واجتمع بعلماء المغرب والحجاز ومدحه علماء الحرم قالوا (عالم الديار السناريه وعلامة الأقطار الإسلامية) محمد النور بن ضيف الله الطبقات، تحقيق يوسف ضل، ص299، هامش رقم2.

[97] نفسه، ص300.

[98] مكى شبيكه: مرجع سبق ذكره، ص90.

[99] العكوره جزيرة وقرية قرب واد مدنى (أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص23).

[100] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص23.

[101] مكى شبيكه، مرجع سبق ذكره، ص91.

لان أصحاب المصالح انفضوا من حوله عندما أيقنوا زوال ملكة. ويقول كاتب الشونة فخرج في ذله وقلة[102]. وتربع ناصر ابن السلطان المخلوع على العرش ولكن تركزت السلطة الفعلية في يد أبو لكيلك الذى كان الحاكم الفعلي حتى وفاته في عام 1164هـ - 1776م وكان ذلك بداية لتسلط وزراء الهمج على الحكم الذى توارثوه كحكام فعليين حتى سقوط سلطنة الفونج[103] وتقول المخطوطة ومن تلك المدة صار الحل والربط بيد الهمج وتغلبوا على الفونج ولا اعتبار للملوك ودخل محمد أبو لكيلك سنار من غير قتال وتولى السلطة ناصر بن بادى وحكم 1175-1182هـ - 1762-1769م ولما كان السبب في توليته السلطة محمد أبو لكيلك قد غير راية وانقلب عليه. من خلال دراستنا لشخصية الشيخ محمد أبو لكيلك نجده احتفظ لنفسه بجميع سلطات الملك الذى صار رمزا لا حول له ولا قوة وتوقف بقاؤه في كرس الحكم على رضاء الوزير. وبهذا التغيير أصيبت التجارة بضربة قوية وتحولت معها إلى تنظيمات للحكم اقرب إلى الإقطاع وكان هذا التحول سببا في تذمر الزعماء في المناطق المتحالفة مع سنار وخاصة بعد العزل والتعيين الذى صار منهج أبو لكيلك وكان يهدف إلى الاحتفاظ بالوزارة في أسرته ونحن لا نعلم عن ماضية سوى انه من الهمج وكان قائدا في الجيش السنارى الذى حارب النجاشي اياسو في 1744م وهكذا نجد أبو لكيلك بعد تعيينه للسلطان ناصر نفاه في إلى قرية البقرة[104] بعد إن أدرك إن ناصرا بذا يتآمر مع بعض الفونج لقتله فأرسل له بادى ود رجب على راس قوة قتلت ناصر في منزله ويذكر كاتب الشونة إنهم لما أرادوا قتله وجدوا المصحف عن يمينه والمؤطا[105] عن يساره وكان عارفا بالله ذو خط جميل[106] ثم ولي الشيخ محمد أبو لكيلك أخاه إسماعيل.

---

[102] احمد بن الحاج أبو علي، مرجع سبق ذكره ص24.
[103] محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص213 حاشية رقم9.
[104] البقرة قرية في منطقة الجزيرة.
[105] الموطأ كتاب الإمام مالك رضي الله عنه.
[106] احمد بن الحاج أبو علي، مرجع سبق ذكره، ص26.

– السلطان إسماعيل بن السلطان بادى حكم من عام 1182–1191هـ، 1769–1778م:

يقول عنه كاتب الشونة انه رجل دين عادل أزال المظالم وأحسن إلى الفقراء والفقهاء فدعوا له بالبركة[107] وحدث فى عهده غلاء شديد فى عام 1184هـ 1770م ويطلق عليها كاتب الشونة سنة الكبسة[108] ثم أعقبها زيادة شديدة فى النيل 1185هـ – 1772م ولقد زار الرحالة بروس سنار فى نفس هذا العام ووصف ذلك السلطان بأنه يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما ويجلس على مرتبة ويلبس قميصا من القطن ازرق اللون من مصنوعات الهند وفى أطرافة حرير ابيض ورأسه حافيا وكذلك قدماه ويميل لونه إلى البياض مثل العرب[109] وكان كسابقة العوبه فى يد وزيرة الشيخ عدلان[110] بالإضافة إلى ذلك فقد ركائز من زعماء سلطنته أمثال عدلان ود صباحى شيخ خشم البحر ومحمد أبو لكيلك الذى توفى 1190هـ – 1777م وخله ابن أخيه بادى ود رجب شيخا للهمج. اجتمع الفونج عند الملك إسماعيل يريدون خلع بادى ود رجب والتخلص من سطوة الهمج وسرعان ما علم بادى بهذه المؤامرة وعزل الملك إسماعيل ونفاه إلى سواكن[111] وملك ابنه عدلان[112] وأصبح بادى ود رجب شيخا للهمج وصاحب السلطة فى دولة الفونج وفاق عمه أبو لكيلك فى الشجاعة والقهر والبطش[113]. تولى السلطة الرمزية فى دولة الفونج وشهد عهده ذروة طغيان الهمج وعلو شأنهم حيث خرجت قبيلة الشكرية عن طاعة بادى ود رجب فخرج بعساكره وحاربهم فى البطانة حتى قتل شيخهم أبا على واجبرهم على الطاعة[114] وكذلك عزل الشيخ أمين ود مسمار مانجل العبدلاب وعين صباحى ود عدلان على مشيخة خشم البحر[115] ثم حدث سوء تفاهم مع

(107) احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص27.
(108) نفسه نفس الصفحة، المقصود بسنة الكبسة هى السنة التى حدث فيها الغلاء والفقر والقحط.
(109) مكى شبيكه، مرجع سبق ذكره، ص93.
(110) الآن مورهيد: النيل الأزرق ترجمة إبراهيم عباس، لبنان، بيروت، دار الثقافة ببيروت، الطبعة الأولى 1969م، ص65.
(111) أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص27.
(112) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ج2، ص398.
(113) احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص22.
(114) نفسه نفس الصحة.
(115) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ج2، ص399.

ناصر بن أخيه محمد أبو لكيلك فضربه ضربا مبرحا حتى استاء أخوته وحملوه إلى سنار وهيجوا الأحزاب المضادة لعمهم ونجحوا فى ذلك فاجتمعت القوى الثلاث الأمين ود مسمار والشيخ احمد ود علي وأبناء محمد أبو لكيلك وقرروا الثورة على بادى الذى سمع بالمؤامرة وتقول المخطوطة (انه تحقق من الخبر اى بادى ولبس ثوبا منيريا[116] وتضمخ بالطيب وركب حصان يقال له "الزباوى") اعتقد انه خاض للحروب وخاض المعركة ولكنة قتل فى 1194هـ - 1781م وخلفه الشيخ رجب أكبر أبناء محمد أبو لكيلك[117] وعندما استقامت الامور بسنار وترك الشيخ رجب أخاه إبراهيم وكيلا عنه مع السلطان عدلان وتوجه إلى كردفان واكتفى احمد على بمشيخة خشم البحر واستعاد الأمين ود مسمار نفوذه على العبدلاب[118] ويتضح مما سبق إن الملك عدلان اشترك مع هذه الإطراف ولم يستفد شيئا فالهمج خلعوا جده بادى أبو شلوخ وقتلوا عمه ناصر وخلعوا أباه إسماعيل وهو الآن يحاول إزالة طغيان بادى لكنة ظل كما هو مسلوب الإرادة.

اجتمع الأمين ود مسمار مع الملك عدلان فى سنار وانضم إليهم أولاد نمر وقتلوا إبراهيم بن محمد أبو لكيلك واسترقوا شقيقاته وتقول المخطوطة (وحبس بنات محمد سرارى للجعليين وغيرهم)[119] وعلم الشيخ رجب فى كردفان بما حل لأخيه إبراهيم وأخواته بنات محمد أبو لكليك حيث نقل له الشاعر التعيسان الخبر فغضب وأعلن الحداد وتحرك بجيشه ويقول كاتب الشونة (انه تحرك من كردفان طالبا القتال .. حتى نزل بحلة شاذلى[120] وكان يقول يا سنار جاءتك نار حتى تقابلوا فى مكان يعرف بالترس[121] وقتل الشيخ رجب وتفرق إخوانه وبقية الهمج. ومرة أخرى جمع ناصر بن محمد فلول جيشه وعلم الملك بذلك ورغب فى ملاقاة جيش ناصر لكنه كان طريح

---

[116] نوع من القماش مصرى (احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص30).
[117] نفسه، نفس الصفحة.
[118] مكي شبيكه: مملكة الفونج الإسلامية، ص103.
[119] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره ص32.
[120] حلة فى منطقة واد مدنى احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص32 حاشية رقم 4.
[121] مكان غير موجود فى تقويم الأماكن والبلدان السودانية ويبدوا انه قريب من سنار، احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص35 حاشية رقم 3.

الفراش من عله إصابته فجهز جيشه بقيادة الأمين ود رحمهو معه كبار الفونج وتقابلوا مع الشيخ ناصر في مكان يسمى انطرحنا واندحر جيش عدلان حتى إن بعضهم غرق في النهر[122] ومات الملك عدلان ربما نتيجة مرضه أو بحالة اليـأس التـي اعترتـه وتشير المخطوطة إلى حالة الفوضى والقتال داخل سنار قبل دخـول ناصـر. وهـذا محتمل وقوعه لان الملك مات وجنده تراجع مقهورا وسادت المدينة حالة من الفوضى التي تسبق دخول الجيش المنتصر ويقول كاتب الشونة: وتحول ناصـر إلـى جنـوب المدينة وأشعل النيران فيها وتقابل الجيشان. مرة أخرى[123] ويظهر إن جنـد الملـك شعروا بضعف قوتهم فأفسحوا الطريق لناصر. وشهدت الفترة التى تلت عهد السلطان عدلان قمة ضعف الدولة وصار يتولى العرش فى العام الواحد أكثـر مـن سـلطان وتميزت كذلك بتصاعد الصدام المسلح ويمكن إن يقال انه بموت الملك عـدلان الـذى جاهد لإحياء مجد إبائه الذى كان قد اندثر وافلح إلى حد - انحصر الصراع بين الهمج والعبدلاب وبلغ هوان سنار آنئذ الحد الذى صار فيه كل طرف من إطـراف النـزاع يعين حسب هواه ملكا للفونج وبعد ذلك عين الشيخ ناصر بعد وفاة عدلان الملك أو كل لكنه مكث قليلا ومضى وكان ذلك فى عام 1203هـ - 1789م[124] ولم يتبين لنا أكثـر من ذلك وبعده عين الشيخ ناصر الملك طبل وفى نفس الوقت عين الشيخ محمد الأمين مسمار شيخ العبدلاب الملك رباط ولم يكن فى وسع الملك طبل إلا الانصياع لآمر ولى نعمته القاضى بالإعلان العداء لشيوخ العبدلاب.

وهكذا توجه مع الشيخ ناصر إلى الحلفاية عاصمة العبدلاب حيث لقى مصـرعه على يد الشيخ الأمين ود مسمار[125] وتم تعين الملك حسب ربه ومات أيضا[126] كـل هذه الإحداث توالت تباعا فى عام واحد من 1204-1205هـ - 1790م-1791م.

---

(122) مكى شبيكه، مرجع سبق ذكره، ص106.
(123) احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص26.
(124) الشاطر بصيلى: مرجع سبق ذكره، ص293.
(125) محمد صالح محى الدين: مرجع سبق ذكره، ص198.
(126) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره ج2، ص413.

في عام 1205هـ – 1791م تعين الملك نوار وكان صاحب شهامة وعندما ظهرت عليه علامات النفوذ خشى منه الشيخ ناصر الذى قتله[127] خوفا من سطوته وتقول المخطوطة انه تولى السلطة الملك بادى السادس 1205-1236هـ 1791-1821م وكان حدثا صغير السن لا يستطيع ركوب الخيل ويساعده مجموعة من وزراء الهمج[128]. وبعد قليل نادى السلطان كمتور بسلطان أخر هو رانفي الذى تولى السلطة وبعدها اشتبك الفريقان المتعارضان وانتهى القتال بالصلح على إن يعزل بادى ويبقى رانفي، وبعد عام واحد اعيد بادى الى العرش. ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمراق الحياة وما ساد من قلق وفزع كثرت معه هجرات القبائل وخاصة فى المنطقة الوسطى من السودان وهى التى تشمل ارض الجزيرة والبطانة وكانت هذه الحالة فرصة لازدياد نفوذ رجال الدين وسيطرتهم على العامة الذين لجأوا إليهم لسؤالهم الله تعالى ليرع عنهم الغمة.

وبينما كانت الأمور تسير من سى إلى أسوا تغيرت الأحوال فى مصر باختفاء الحكم المملوكى وهرب جماعة إلى شمال السودان محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور مما دفع الزعماء من مختلف نواحى السودان إلى الهجرة إلى مصر ومنهم من سافر إلى الحجاز حيث التقوا بمحمد على من (خلال حرب الوهابيين) وطلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلاقل والحروب المحلية بعد إن تعطلت الحياة الاقتصادية وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار فما كان من محمد على إلا أن أرسل حملة بقيادة ابنة إسماعيل وصلت إلى عاصمة دولة الفونج حيث وقع السلطان الوثيقة التى اعترف فيها بتعيينه للسلطان العثمانى وتسليمه إدارة البلاد إلى والى مصر[129].

---

(127) الشاطر بصيلى، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.
(128) احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص28.
(129) شوقى عطا الله الجمل: مرجع سبق ذكره، ج1، ص312.

الفصل الرابع

مقومات النهضة العلمية فى السودان

أ- المراكز والمدارس العلمية

ب- الكتب الدراسية

ج- الأجازات العلمية

د- دور الأزهر فى السودان

هـ- رحلات الحج والعمرة

الفصــــل الرابــــع
مقومات النهضة العلمية فى السودان

أ- المراكــز والمدارس العلمية :

قبل إن نتحدث عن المراكز العلمية فى عهد الفونج نرى من الضرورى إن نرجع قليلا لندرك هل كان هناك مراكز علمية قبل قيام السلطنة الزرقاء ؟ إما كان الأمر كما قال ود ضيف الله (لم تشتهر فيها مدرسة علم ولا قرآن ويقال إن الرجل يطلق المــرأة ويتزوجها غيره فى نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركى مــن مصــر وعلم الناس العدة)[1] والمتتبع لتاريخ الثقافة فى سنار آنذاك يعلم انه فى مــدة خلافــة هارون الرشيد (170هـ -193هـ ، 1786م - 809م) قدم إليه جماعة من بر الســودان وهو ببغداد وطلبوا منه إن يرسل معهم علماء يعلمونهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بنى العباس ووصلوا إلى دنقلا وأقاموا بها وتناسلت منهم ذرية كثيرة[2] لابد إن يكون هؤلاء العلماء انشاؤا حلقات تعليمية وقاموا بتعليم عدد من الأقلية المسلمة وهم الذين جاءوا خصيصا لذلك إلا إننا لا ندرى نوع العلوم التى كان يقوم بتدريسها هؤلاء العلماء ولكنها لا تخرج عن نطاق الدين هذا بالإضافة إلى أولاد عون الله (جــابر)[3] و(وجبر الله) و (هدلول) و (رزين) و (عبد الرازق) و (دهمش) و (صبح)[4] وقد اتخذ هؤلاء من دنقلا مركزا لهم نشروا فيها ثقافتهم وكان الإسلام إلى ذلك الوقت لم يتعمق

---

[1] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص40 .
[2] حسن محمد الفاتح قريب الله: مرجع سبق ذكره، ص10-11.
[3] عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر، مصر، القاهرة، 1949م، ج1، ص59.
[4] محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى: الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان، لبنان، بيروت (نسخة صديق)، ص45.

فى نفوسهم ولم يتطلب معرفته عندهم أكثر من النطق بالشهادتين[5] وإذا علمنا إن الشيخ إدريس ود الأرباب كانت ولادته فى سنة ثلاث عشرة بعد التسعمائة وكان يقرأ القرآن عند الشيخ البغدادى قدام الحلفايه وقدوم محمود كان بعد ذلك نستنتج من ذلك[6] إن حالة الجهل التى أشار إليها ود ضيف الله قاصرة على جهة معينة والمعروف إن بلاد النوبة بدأ الإسلام ينتشر فيها منذ بداية القرن الرابع عشر بعد إن صار ملكها مسلما ومن الطبيعى إن يكون بينهم علماء ينشرون إحكام الدين وتعاليمه. إلا إن ربما أهتم هؤلاء العلماء بالجوانب الأساسية فى الدين هذا بالإضافة إلى المؤثرات التى تسربت مع الهجرات العربية قبل معاهدة العرب والنوبة. وما أعقب ذلك من تأسيس خلاوى ومساجد وقيام مشيخات إسلامية لابد وان يكون ذلك ترك أثرا. وإذا علمنا إن محمود العركى قدم إلى السودان فى مستهل دولة الفونج اى فى القرن السادس عشر[7] وندرك مدى الفرق الزمنى هذا بالإضافة إلى إن أسرة العريقاب التى قدمت للسودان خلال القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى كان كبيرها من دعاة الإسلام فى دنقلا عند وصول العرب إليها[8] ويروى ود ضيف الله إن إبراهيم البولاد قام بتدريس خليل والرسالة عندما عاد من مصر إلى ترنج[9] والمعروف إن هذين الكتابين لا يدرسان إلا لمن نال قدرا من التعليم هذا يعنى أنه كان فى بلاد الشايقيه من هم على قدر من العلم يؤهلهم لدراسة مثل هذه الكتب وربما كان فى مناطق أخرى كذلك لان الشيخ محمود العركى بعد قدومه من مصر انشأ سبع عشرة مدرسة من الخرطوم إلى أليس[10] وإقامة مثل هذا العدد من المدارس يعنى هناك رغبة فهو إذن لمس تلك الرغبة من الاهالى حتى أقام هذه المدارس ومن الضرورى إن تكون معه مجموعة

---

[5] عبد المجيد عابدين: مرجع سبق ذكره، ص29.

[6] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، تحقيق الشاطر بصيلى، ص123.

[7] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص344.

[8] يحى محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الدينى فى السودان، لبنان، بيروت، دار الجيل، 1407هـ – 1987م، ص29.

[9] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص45.

[10] نفسه، ص344.

تعمل فى هذه المدارس وهو بجانب القرآن كان يدرس العلوم المختلفة[11] ولهذا فــإن جهل الناس بالعدة وهو ما استند عليه ود ضيف الله وقرر به عدم وجود مدارس علــم ولا قرآن لا اظنه كافيا وربما يكون مكتسبا نتيجة علاقات لأننا نجــد فــى العــادات والتقاليد والتنظيمات الاجتماعية ما يشير إلى صلات وروابط بين ساحل الزنج ولامــو بصفة خاصة وبين مجتمع حوض النيل الأزرق[12] ومن ذلك إن زواج المرأة من غير عدة متبع فى لامو بسبب إن عددا من السكان يعملون كملاحــين فــى الســفن ولهــذا يتغيبون عن وطنهم زمنا لا يمكنهم فيه مدة العدة من أجراء الزواج.

- المســجد أو المســيد:

لفظ المسيد يعنى مسجد فقط لحقه الإبدال وهو معروف فى لهجات العــرب فــى الماضى والحاضر[13] وقال عون الشــريف (نحــن فــى الســودان لا نقلــب الجــيم ولا نحورها.فهى عند العام والخاص جيم قرشية حرة[14]) فهى إذن وفدت مع المشايخ الذين توافدوا على السودان فى وقت مبكر من الحجاز والمغرب مع العلم إن العامة فى المنطقتين يطلقون كلمة المسيد على المسجد[15] وهذا اللفظ فى السودان يقصد به المكان الذى يجمع مدرسة القرآن (الخلوة) والمصلى والسكن.

عرف سودان وادى النيل المساجد قبل الخلاوى وكانت وما زالت وظيفتها أماكن للعبادة والإرشاد والوعظ وهذه وظيفة المسجد فى كل الأزمنة منذ عهد الرســول (ﷺ) حيث كانت الصلوات تقام فيه ويتعبد فيه الناس بالإضافة إلى انه ملتقى لصاحبة رسول الله (ﷺ) ومأوى للغريب وعابر السبيل وفوق ذلك اتخذه الرسول (ﷺ) مكانــا لتعلــيم المسلمين مبادئ الدين ويروى فى ذلك عن كعب بن مالك (رضى الله عنه) قوله "رحت

---

[11] عبد العزيز أمين عبد المجيد، مرجع سبق ذكره، ص61.
[12] الشاطر بصيلى: مرجع سبق ذكره، ص221.
[13] الطيب محمد الطيب: المسيد، السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1991، ص36.
[14] اللهجة العامية فى السودان، فى مادة المسيد، ص37.
[15] الطيب محمد الطيب، مرجع سبق ذكره، ص37.

إلى المسجد فسمعت رجلا يقرأ فقلت من أقراك؟ فقال رسول الله (ﷺ) " وهكذا صارت المساجد أماكن لتعليم القران ونشر الإسلام والتهذيب ولهذا كانت شديدة الاتصال بالحياة الإسلامية المادية منها والمعنوية[16].

ويذكر احمد شلبى إن هذه المساجد هى انسب مكان لشرح تعاليم الإسلام وإحكامه أهدافه[17] ولم تختلف مساجد السودان عن هذه التى ذكرناها فهى مكان للصلاة والوعظ والتوجيه وحل المنازعات وفيها يتم نسخ المصحف والتلاوة وأول ذكر للمساجد فى السودان هذا المسجد الذى بناه المسلمون فى فناء دنقلا والتزم النوبيون بكنسه وإسراجه[18] ولقد حرصت فى البحث عن هذا المسجد الذى أجمعت كثير من المراجع على حقيقة واحدة وهو انه كان فى الأصل كنيسة إلا أنه إن تأكد ذلك فمعناه إن هناك اعتداء على المسيحيين وهذا لا يليق بالمسلمين الذين عرفوا بالتسامح واحترام الأديان منذ عهد الرسول (ﷺ) وتواصل فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب الذى أمر بعدم التعرض للمسيحيين والاعتداء على كنائسهم وطبق ذلك فى فلسطين ومصر ونقول كيف تعطلت هذه الأوامر فى عهد عثمان الذى بنى المسجد فى عهده؟ وكيف يقبل هؤلاء المسيحيون الاعتداء على مقدساتهم وممالكهم فى تلك الأونة ولم يكن الضعف دب فى أوصالها ولكن وبعد رجوعى إلى نصوص الاتفاقية التى سجلها المؤرخون العرب بالإجماع وجدت النص الخاص بالمساجد يقول (عليكم رعاية المسجد الذى ابتناه المسلمون) وما يهمنا هو عبارة ابتناه المسلمون. إذن فالمسلمون لم يحيلوا كنيسة دنقلا إلى مسجد بل هم الذين بنو هذا المسجد ولكن ليطمئن قلبى فقد صحبت وفدا مسيحيا إلى دنقلا وفى مكان منخفض وكما نصف الاتفاقية رأيت مسجد عبد الله بن أبى السرح[19] وهو مسجد صغير فى حجمه تعلوه مئذنة وفى أركانه حجرات متهدمة وبالقرب منه أطلال منزل.

[16] أسماء حسن فهمى: مبادئ التربية الإسلامية، مصر، القاهرة، 1947م، ص26.
[17] أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1960، ص85.
[18] تقى الدين احمد بن على المقريزى: الخطط، ج1، ص199-200.
[19] انظر الملحق رقم28.

قال الاهالى أنها بقايا منزل عبد الله بن أبى السرح إما الحقيقة التى وقفت عليها بنفسى هى إن المبنى الذى ذكرت المراجع انه كنيسة تحول إلى مسجد فهو قصر بطابقين لا يعطيك اى شئ فيه بالإحساس بأنها كنيسة لان الكنائس القديمة فى صعيد مصر والتى تعود إلى نفس الفترة يجد الباحث .. إن التصميم المسيحى واضح فيها والذى يتمثل فى النحت من الداخل حيث تجد صور السيد المسيح والقديسين. وهو من الصعب إزالته كل هذا لا يوجد فى ذلك القصر رغم وجود النحت بالقرب منه فى شكل كاتدرائية[20] ما بقى منها عبارة عن مجموعة عواميد رؤوسها ملقاة على الأرض منحوت عليها الصلبان[21] ولا اعتقد أنهم أقاموا كاتدرائية[22] بهذه الصورة التى رأيتها وأقاموا بالقرب منها كنيسة لان الاثنين الهدف منهما واحد أضف إلى ذلك إن هناك أنفاقا[23] فى أسفل هذا القصر تعذر على دخولها لكثرة الخفافيش التى تعيش فيها.

وذكر الاهالى إن أحدى هذه الإنفاق يؤدى إلى مدينة البركل والأخر إلى كريمة وربما هى مخابئ بنيت خصيصا لهروب الأسرة الحاكمة إن دعى الأمر وهذا يؤكد انه قصر الحاكم وليست كنيسة. وهذا ما ذكره النويرى عندما قال إن عبد الله برشمبو أول ملك نوبى مسلم أقام مسجدا فى قصر الملك بدنقلا[24] وقد كان تدشين هذا المسجد فى 16 ربيع سنة 717هـ الموافق 29 مايو سنة 1317م وتشير الكتابة التى نقشت على هذه اللوحة إلى هذا المعنى (تحويل هذا المكان إلى مسجد)[25] وقيام هذا المسجد فى تلك الآونة يكد ما قاله ابن خلدون من إن كثيرا من النوبيين قد دخلوا الإسلام منذ عصر شكنده[26] وأضف إلى ذلك إن التنقيبات والأبحاث التى أجريت حديثا فى هذا المسجد سنة 1361هـ الموافق 1974م أكدت إن المبنى كان قصرا ملكيا فى الأصل وان الملك عبد الله برشمبو (شكندة) حول قاعة واحدة منها فى الطابق الثانى إلى مسجد[27].

---

[20] هى عبارة عن كنيسة ضخمة تسع عدد كبير من المصلين (انظر الصورة فى الملاحق).
[21] انظر الملحق رقم18.
[22] انظر الملحق رقم19.
[23] انظر الملحق رقم.
[24] نهاية الأقرب فى فنون الأدب، ج30 ورقة 95.
[25] جيوانى فانتيبى: تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية، ص183.
[26] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، المجلد الخامس، ص429.
[27] جيوفانى فاتينى، مرجع سبق ذكره، ص183.

ثم إن معاهدة عبدالله بن الجهم مع البجه سنة 228هـ - 841م كان من ضمن نصوحها إلا يهدم البجه شيئا من المساجد التي بناها المسلمون بصيحة وهجر وبسائر البلاد طولا وعرضا[28]. يدل النص فى تقدير الباحثة على وجود أكثر من مجد وان هناك عددا لا يستهان به من المسلمين حتى إن عمال أمير المؤمنين كانوا يجمعون منهم الصدقات لهذا اعتقد إن هذه المساجد بنيت فور استقرارهم. هذا وقد ثبت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خور نبت غربى سواكن وكذلك دل البحث الاثرى على وجود مسجد فى سكنات يرجع تاريخه إلى سنة 218هـ - 831م[29] ربما يكون ضمن المساجد التى نصت الاتفاقية على حمايتها لأنه يروى عن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره إن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا[30] ولابد وان يكون هؤلاء قد نفذوا هذه الأوامر وأقاموا المساجد فى جميع هذه المناطق التى لهم عليهم سلطان ورغم إن المصادر لم تتعرض لذكر تفاصيل عن هذه المساجد إلا أن ابن فضل الله العمرى يروى لنا إن مسجد دنقلا هذا كان مسجدا جامعا يأوى إليه الغرباء ويجئ رسل الملك إليهم تستدعيهم إليه فإذا جاءوا أضافهم وأكرمهم هو وأمراؤه[31] ويذكر اليعقوبى إن المسلمين كانوا يترددون على سوبا فى أيامه[32]، اى فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى 284هـ - 897م حتى أنهم فى أواخر القرن العاشر كان فى علوه رباط به مجموعة من المسلمين ومن المؤكد إن تكون لهذه المجموعات مساجد تؤدى فيها الشعائر ودلت كذلك نتائج الحفريات التى أجريت فى منطقة دبيره شمال وأدى حلفا على وجود كثير من القباب والقبور

[28] تقى الدين احمد بن على المقريزى، مصدر سبق ذكره، ص196.
[29] مصطفى محمد مسعد، الإسلام، ص118.
[30] أحمد شلبى، مرجع سبق ذكره، ص87.
[31] ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص492.
[32] احمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى، البلدان، ص 123.

الإسلامية التي تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي[33] مما يوحي بان هذه المنطقة كانت موطنا لأقليات مسلمة كما عثر في أرض مريس على كتابات عربية ترجع أقدمها إلى القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي والى مثل ذلك ذهب إليه مصطفى محمد مسعد عندما ذكر إن كثرة شواهد القبور المكتوبة بالخط العربي وتحمل أسماء عربية في كل من تافه وكلابشة تدل على حياة عربية هادئة لجاليات إسلامية في بلاد مريس[34] ولسنا بحاجة إلى التأكيد بان وجود جاليات عربية مسلمة دليل على وجود مسجد أو أكثر رغم كثرة المساجد في بلاد النوبة إلا أنها تعرضت للزوال لأنها بنيت من فروع الأشجار والطين وسألقي الضوء على هذه المساجد التي اتخذها مؤسسها أماكن للتدريس بجانب وظائفها الأخرى لذا أطلق عليها لفظ مدرسة لأنها تقوم بوظيفة التعليم.

أولا: مدرسة أولاد جابر:

أولاد جابر هم أحفاد غلام الله بن عائد الركابي[35] الذي قدم إلى دنقلا في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي[36] ويروى عنهم ود ضيف الله أنهم كالطبائع الأربعة أعلمهم إبراهيم وأصلحهم عبد الرحمن وأروعهم إسماعيل واعبدهم عبد الرحيم وأختهم فاطمة أم الشيخ صغيرون نظيرتهم في الدين[37] والغريب إن كثير من المراجع التي أشارت إلى هذه المدرسة نسبتها إلى غلام الله بن عائد[38] الذي جاء من اليمن عن طريق البحر الأحمر وسكن دنقلا[39] لكنني أرى انه لم يكن هو رائد هذه المدرسة وإنما أحفاده أبناء جابر الذي قال عنه ود ضيف الله هو أبو الأئمة الأربعة الذين قام

[33] سر الختم عثمان: العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى، السودان، الخرطوم، آداب جامعة القاهرة، 1969. ص 166.
[34] مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص 130.
[35] انظر الملحق رقم (4).
[36] سر الختم عثمان: أولاد جابر، الأمانة العامة للشئون الدينية، 1394هـ – 1974م، ص10.
[37] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص46.
[38] Mac Michael, H.A. Op.Cit, P359.
[39] عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، لبنان، بيروت، 1967، ص29.

عليهم نظام الدنيا والدين[40] إما إبراهيم الابن الأكبر للشيخ جابر ولد في دار الشايقية ورحل إلى الأزهر ودرس عند الشيخ البنوفرى[41] ولما عاد درس خليل والرسالة ويعتبر أول من درس خليل في بلاد الفونج[42].

إما عبد الرحمن فهو المؤسس الثانى لمدرسة أولاد جابر رحل إلى مصر مثل أخيه درس عند البنوفرى وعاد فأنشأ ثلاثة مساجد في دار الشايقية وكورتى[43] والدفار وكان يقضى في كل مسجد أربعة اشهر[44] على الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه المدرسة إلا إن أمر العلوم التى كانت تقوم بتدريسها بجانب خليل والرسالة مازال مجهولا فقد تكون العلوم فقها وقد تكون أصولا وان كنا نميل إلى أنها تقوم بتدريس الفقه وعلوم القران من خلال إشارات محمد ود ضيف الله، أكثر من غيرة مستندين إلى اهتمام إبراهيم البولاد بذلك العلم أكثر من غيرة.

ثانيا: مدرسة الحمتوياب[45]:

أسسها الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ابن الخطيب واشتهرت بتدريس القران وإحكامه وكانوا لا يقبلون في حلقاتهم عدا من لمسوا فيه القدرة على الفهم.

---

[40] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص130.

[41] البنورى من اجله فقهاء مصر اشتهر بالزهد والدرع واخذ عنه اللقانى والاجهورى تولى رئاسة المذهب المالكى وتوفى نحو سنة 1590/998 (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 45 هامش رقم 9).

[42] نفسه ص 45.

[43] بلدة على شاطئ النيل الغربى على بعد خمسة أميال جنوب الضيقة الحدود الشمالية لديار الشايقية (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص251 هامش رقم 5).

[44] نفسه، ص 48.

[45] الحمتوياب موطنهم نورى وأم بكول ببلاد الشايقية وقندتو بدار الجعليين وفى الهلالية بالجزيرة وهم من ذرية أبى بكر الصدق (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 256 هامش رقم 6).

ثالثا: مدرســـة سعــد الكـرسنى:

أسسها الشيخ سعد الكرسنى الذى حرص على رياضة حيرانة وتعليمهم الشد والمد والهمزة والقلقلة والإدغام ويروى عنه ود ضيف الله قائلا من لا يعرف هذه الأحكـــام لا يدرس عنده[46].

رابعا : مدرســـة الدويحــى:

أسسها الشيخ عبد الرحمن ولد دويح بن حاج الدويحى جمعت بين دراسة القـــرآن والعلم وعمل مؤسسها على تدريس خليل والرسالة[47].

خامسا: مدرســـة الشيـــخ محمـــد ود عـــدلان:

فى تنقاسى التى درس مؤسسها فى المدينة المنورة ومكة ثم عاد إلى بلادة لتدريس علم الكلام فى كبرى السنوسية ووسطاه والصغرى[48] ولم يكن تدريس هـــذه الكتـــب معهودا فى دولة الفونج إلا أم البراهين[49] فقط وكان لهذه المدرسة عنايـــة بالتصـــوف وكان لمؤسسها شروحات انتفع بها المبتدئ والمنتهى ومن تعاليمه إن من لم يعرف الله بالدليل والبرهان فليس بمؤمن.

ذاعت شهرة مدارس الشايقية حتى أصبحت مراكز أشعاع دينى وعلمى يحج إليها طلاب العلم من جميع مناطق السودان لأنهم يجدون إن أكثر العلوم الإســـلامية يقـــوم بتدريسها اشهر العلماء.

سادسا: مدرســـة ســـوار الذهب فى دنقـــلا:

أسسها الشيخ محمد عيسى سوار الدهب الذى عرف عنه انه سليل أسرة عرفـــت العلم فوالده كان صاحب مدرسة اشتهرت بتدريس خليل[50] جمع الشيخ محمد بين العلم

---

(46) نفسه ص 224.
(47) نفسه ص 285.
(48) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص117.
(49) نفسه، ص359.
(50) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص71، 79.

والتصوف بعد إن درس على يد الشيخين محمد المصرى والتلمسانى المغربى وبلغ من العلم حدا تمناه أهل منطقته حتى قالوا (اللهم ارزقنا علم ود عيسى)[51] وتتلمذ على يديه كل من عبد الرحمن والد الشيخ خوجلي وعبدالله الاغبش والد الغبش ونصر الله والد أبو سنينة شيخ اربجي وكذلك تخرج عليه شيوخ نبغوا فى القضاء منهم حمد بن حسن أبو حليمة الذى كان يحل مشاكل الفقهاء[52] وتلميذة حلاوى الذى قال عنه ود ضيف الله انه حلالا للمعضلات من الامور[53].

سابعا: مدرسة الكيمانى المصرى فى بربر:

قدم الشيخ محمد بن على قرم الكيمانى المصرى إلى السودان بعد إن درس على يد الشربينى[54] فى مصر وساح بمدينة اربجى ثم سنار واستقر أخيرا فى بربر وبنى مسجده الذى صار مركزا لتعليم الفقه الشافعى ودرس محمد المنهج والمنهاج وكلاهما من كتب الشافعية[55] التى تدرس فى هذه المدرسة. قال عنه ود ضيف الله (هو من أية الله لان جميع الشيوخ أخذت منه العلم) ودرس عنده عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى وعبد الرحمن ولد حمدتو وإبراهيم الفرضى[56].

ثامنا: مدرسة المصرى القناوى فى بربر:

قدم الشيخ محمد المصرى القناوى[57] إلى بلاد العنج بعد إن تلقى العلم على يد الشيخ السنهورى[58] في النصف الثانى من القرن العاشر واستقر فى بربر وأسس

---

(51) نفسه، ص 154.
(52) نفسه، ص 150.
(53) نفسه، ص 183-184.
(54) هو شمس الدين بن الشربينى من فقهاء الشافعية فى مصر له مؤلفات منها (السراج المنير) فى تفسير القرآن (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 353 حاشية 18).
(55) نفسه، ص248.
(56) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص354.
(57) نسبة إلى بلده قنا فى الوجه القبلى بمصر (محمد النور بن ضيف الله الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص100 حاشية رقم 13).
(58) هو سالم بن محمد السنهورى المالكى، الإمام الكبير ومتى المالكية ولد بسنهور له مؤلفات كثيرة منها (حاشيته على مختصر خليل) عاش بين 945-1015هـ، 1538-1606م (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 100 حاشية رقم 14).

مدرسة لتدريس الرسالة والفقه والتوحيد وسائر العلوم الدينية وكان إميل إلى القضـــاء من الفقه[59].

تاسعا: مدرسة البديرى الدهمشى فى بربر:

ترجع نشأة هذه المدرسة إلى الشيخ عبدالله البديرى الذى حظ القرآن على الشـــيخ محمد عيسى سوار الدهب ثم درس العلم عند أولاد جابر وسمى بـــالاغبش[60] ولهـــذه المدرسة الفضل فى ازدهار علوم الدين وقام بالتدريس فيها أبناؤه وأحفاده فابنه حمد ود الاغبش درس بعد أبيه وجمع بين العلم والعمل وانتفعت به الناس وكـــان مـــن كبـــار الصالحين[61] وابنه عبد الماجد الذى حفظ القرآن ودرس خليل وجمع بين العلم والعمل وأتباع الكتاب والسنة وجمع بين علمى الظاهر والباطن[62] حتى بلغ عدد طلابه ألـــف طالب وعبدالرحمن بن حمد الاغبش الذى درس الجزرية والخرازى ووضع شروحات عليها[63] وعبد الله بن حمد الاغبش الذى ضمت حلقاته العرب والحلنقة[64].

كان تعليم القرآن الهدف المباشر لمدارس ومراكز التعليم الدينى واختصت الخلوة بتعليمه للصغار شأن المرحلة الأولى من مراحل التعليم ففى الخلوة كانت تلقن مبـــادئ القراءة وتحفظ بعض آيات القرآن وسوره ومن شاء بعدها التعمق فى العلـــم وأصـــول الدين من فقه وتفسير وحديث فعليه إن يتابع دروسه فى مسجد فهو ليس مرتبطا بمنهج معين يختار من الشيوخ من ذاع صيته. إما إذا أراد إن يكون عالمـــا فعليـــه إن يقـــوم بالرحلة إلى أكثر من واحد من الشيوخ المشهورين وقد يكتفي بالمتخصصين فى المواد التى يريد التعمق فيها.

(59) محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، نفس الصفحة.
(60) يقال انه كان تلميذ عن أولاد جابر وكسفت الشمس فصلى بالناس صلاة الكسوف فانجلت الشـــمس قال احد ملوك الشايقية (نعم هـ الغبشه) (أمحمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص279).
(61) نفسه، ص153.
(62) نفسه، ص279.
(63) نفسه، ص 280.
(64) نفسه، ص281.

جمعت بين ثقافة الحجاز ومصر أو لأنهم كانوا يمتلكون المراجع لان المجاذيب حرصوا إلى إيفاد أبنائهم إلى الأزهر والحجاز فكانوا يعودون ومعهم المراجع[65].

سرت سمعه مدارس الدامر إلى الحجاز واليمن مع الحجيج وزارها نفر من الشيوخ الأفارقة من نيجريا وتمبكتو مقيمين وعابرين وهم في طريقهم للأراضي المقدسة وتركوا آثارا تتمثل في كتب التجويد والفقه والخط العربي[66] ونلاحظ إن التعليم في هذه المدارس يبدأ بالقرآن حفظا وتجويدا ثم الفقه والعلوم الإسلامية على المذهب المالكي وعلم التجويد والعقائد وعلوم العربية كالنحو والبلاغة وبعد تخطي الطالب لهذه المراحل وله رغبه في الدراسات العليا فهي قسمين نظري وهو دراسة كتب الإحياء للغزالي والسكندري وغيرها وعملي ويتمثل في الصلاة والصوم وقيام الليل[67].

– مدرسة الزيداب [68]:

أسسها ضو البيت بن أحمد الشافعي في منطقة الزيداب وكان يدرس إحكام القرآن وحظى عندهم حظا وافرا[69].

– مدارس شندي:

أولا: مدرسة الشيخ صغيرون:

أسسها الشيخ محمد صغيرون جد الصيغيروناب في قوز المطرق جنوب شندى ولما كان الشيخ صغيرون أول من أوقد نار العلم فيها سميت بقوز العلم[70] ويذكر ود ضيف الله إن الشيخ جمع بين العلم والتصوف حيث درس الفقه على خاله الشيخ إسماعيل بن جابر الذى أجاز له التدريس ثم سافر إلى مصر وقرأ خليل على البنوفرى

---

[65] يحى محمد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.
[66] الطيب محمد الطيب، المسيد، ص141.
[67] نفسه، نفس الصفحة.
[68] هم فرع من الجعليين يسكن بين الدامر ومحطة العالياب (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص248 حاشية رقم15.
[69] نفسه، نفس الصفحة.
[70] نفسه، ص149.

الذى تنبأ له بالنبوغ فى الدراسة[71] وكان من كبار العلماء الذين درسوا التجويد والفقه ويتضح ذلك ممن تتلمذوا عليه[72] ومن الذين درسوا فى هذه المدرسة باسبار السكرى الذى درس الفقه والعقائد والقرآن وبلغت حلقته ألف طالب[73] واستمر الشيخ صغيرون فى هذا المكان ثلاث عشرة سنة وبعد وفاته واصل الدراسة فيه ابنه الزين الـذى بلـغ تدريسه خمسين ختمه وبلغت حلقته ألف طالب[74].

ثانيا: مدرسة آل الحاج جابر:

فى عام 1062هـ – 1651م تقريبا أسس الشيخ محمود الصاردى مردسه مشهورة لتعليم القرآن فى شندى[75] قصدها الناس من كل الجهات.

ثالثا: مدرسة ابوكتى:

أسسها الشيخ احمد عبدالله جد الكتياب الذى كان يربط المصحف فى عنقة أينمـا ذهب فلقب بأبوكتى وأسسها غرب المحمية فى 1082هـ – 1671م ثم تشعبت منها عدد من المدارس القرآنية[76]. والجدير بالذكر إن أهل الكتياب خصصوا جزءا من مقبـرة أبو كتى لحفظة القرآن لم يفصل بينهم اى قبر لم يحفظ صاحبة القرآن[77].

– مدارس منطقة الخرطوم الحالية:

أولا: مدرسـة اسـلانج:

يرجع تأسيس أول مدرسة فى جزيرة اسـلانج [78] إلـى عـام 970-1019هـ، 1562م-1610م التى أنشأها الشيخ عجيب المانجلك للشيخ حمد النجـيض الجمـوعى

[71] نفسه، 234-235.
[72] انظر محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص297-97-360.
[73] نفسه 109-110.
[74] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص73.
[75] الطيب محمد الطيب، مرجع سبق ذكره، ص150.
[76] نفسه، ص152.
[77] نفسه، ص152.
[78] جزيرة تقع شمال أم درمان بالقرب من قرية الشهيناب وتعرف أيضا بجزيرة الفكى ولد أم حقـين (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص128 هامش رقم9).

وأوقف له دارا للأنفاق عليها[79] وحمد النجيض اخذ الطريقة من الشيخ تاج الدين البهارى وعمل فى تدريس القرآن دهرا طويلا[80] ويبدو ان جزيرة اسلانج كانت مقصد الشيوخ وذلك لشهرتها العلمية ويروى صاحب الطبقات عن الشيخ صالح ودبان النقا احد حوار الشيخ حسن ود حسونة عندما كان يطلب شيخا فى الطريقة يذهب إلى جزيرة اسلانج[81].

ثانيا: مدرسة الحلفايا:

اتخذ الشيخ البندارى فى منطقة الحلفايا مكانا لتدريس القرآن أطلق عليه صاحب الطبقات اسم مكتب[82] وذلك قبل قيام مملكة الفونج أو فى بدايتها لان الشيخ إدريس ود الأرباب الذى دخل هذا المكتب كانت ولادته 1912هـ-1507م وإذا افترضنا إن عمره كان سبع سنوات عندما دخل هذا المكتب إذا كان هذا المقر موجودا قبل عهد الفونج أو فى بدايته.

ومن إعلام الدعوة الإسلامية فى الحلفايا الضرير واللقير ابنا عون الله ويقول عنهم صاحب الطبقات إن البلد كله مقتدى بهم ويجتمع معهم من الصبابى إلى شمبات والحلفايا للصلاة خلفهم[83].

ثالثا: مدرسة حمد بن على المشيخى[84] "حمد ود أم مريوم":

ولد فى جزيرة توتى 1055هـ -1643م وتتلمذ على يد الفقيه أرباب العقائد وأقام مدرسة فى المكان المعروف باسمة الآن (حلة حمد) واتسعت حلقته وكان إتباعه من

---

(79) نفسه، ص153.

(80) نفسه، نفس الصفحة.

(81) محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص133.

(82) المكتب عرف منذ العصور الأولى للإسلام بأنه مكان لتعليم القراءة والكتابة والنحو (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص50 هامش رقم 5).

(83) نفسه، ص72.

(84) نسبه إلى المشايخة وهم ذرية سيدنا ابى بكر الصديق (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص173، حاشية 17).

النساء أكثر من الرجال[85] اتسع اثر هذه المدرسة حتي بلغ إقاصي الغرب حيث كان له إتباع من قبيلة زاره ومن بنى جرار خاصة وكانوا يأتونه بالزكاة فيشترى بها عبيد ثم يعتق بعضهم بعد إن يفقههم في الدين[86] ويروى عنه انه علم سبعين نرا من بنى جرار اسلموا على يديه فاعتقهم وأمرهم بالرجوع ونشر الإسلام في بلادهم[87] وخذت الدراسة في مدرسة ود أم مريوم منحنى اجتماعيا حيث تناول الزواج والطلاق والصدقة ونبذ الربا والحسد[88].

رابعا: مدرسة الشيخ خوجلي:

عاصر الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن حمد ود مريوم ودرس التوحيد على أرباب العقائد والفقه على الزين صغيرون وجمع بين الفقه والتصوف[89] وبلغ درجة عظيمة حتى إن أكابر العلماء فى حضرته يكونون كالأطفال[90] أقام مدرسة فى المكان الذى يحمل أسمة الآن (حلة خوجلي وبعد وفاته في 1155هـ – 1746م بنى إتباعه قبة فوق قبره أصبحت مزارا[91].

مدرسة القوز:

أسس الشيخ محمد بن مسلم الذى ينتسب إلى أولاد جابر مدرسة فى القوز[92].

---

[85] نفسه، ص176.
[86] نفسه، ص180.
[87] محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص18.
[88] نفسه، ص174.
[89] نفسه، ص190.
[90] نفسه، ص192.
[91] محمد إبراهيم أبو سليم، الفونج والأرض، ص14.
[92] يقول يوسف فضل إن المقصود هو قوز ولد دياب وهو حلة القوز تقع فى الجزء الجنوبى الغربى من مدينة الخرطوم المنطقة الواقعة الآن جنوب غرب السجانة (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص232 هامش رقم 17).

مدرسة حمد ود زروق:

جاء الشيخ حمد من اليمن وسكن الصبابى[93] وانشأ فيها مدرسة (خلوته) التحق بها إدريس ود الأرباب بعد إن قرأ القرآن على البندارى فى الحلفايا لم أجد إشارة إلى إن الشيخ حمد كان يدرس غير القرآن فى خلوته وألا لماذا دخل ود الأرباب خلوة الشيخ حمد. ربما لأنه لم يختم القرآن عند البندارى لسبب أو لأخر أو ربما كان الشيخ حمد يدرس نوعا من العلوم أراد ود الأرباب دراستها وغفلت المراجع عن ذكرها مع العلم إن ود ضيف الله عندما تناول مصادر تصوف الشيخ إدريس ود الأرباب لم يذكر إن لحمد ولد زروق أثرا فى ذلك بل قال انه اخذ التصوف من غير شيخ أو أخذه من رسول الله أو قدم عليه رجل من المغرب[94] ومما يذكر إن الخلاوى لم تعرف قيودا آنذاك الطالب يتمتع بحرية مطلقة في اختيار المادة والمدرس وفى الانتقال من حلقة إلى أخرى وفى إن ينال من العلم ما أراد وأينما ذهب كان يجد العناية مكفوله لـه. إلا إن شهرة الخلاوى لها اثر فى نزوح الطلاب خلوة (أب رماد) رب المتمة قيل إن الفقيه كان يوزع على الطلاب صفحات القرآن كلها حتى لا يبقى منها واحدة[95] ربما شهرة خلوة الشيخ حمد هى التي جذبت ود الأرباب لأنه كان يميل للعبادة والعزلة حيث المكان المناسب للتوحد والعزلة.

مدرسة أرباب الخشن (أربابا العقائد):

درس الشيخ أرباب بن على بن عون الفقه على يد الشيخ الزين صغيرون والعقائد على الشيخ ولد برى ولبراعته فيها سمى بأرباب العقائد[96] التى اشتهر بتدريسها ويقول ود ضيف الله عنه: شدت إليه الرحال وبلغ عدد طلبته ألف طالب من دار الفونج إلى

---

[93] قرية شمال الخرطوم بحرى على الجانب الشرقى من النيل (يحى محمد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص132، هامش167).

[94] نفسه، ص41.

[95] إبراهيم عبد الرازق- التعليم فى السلطنة الزرقاء – مجلة العمل، السودان، الخرطوم، عدد 1 سبتمبر 1966م ص35.

[96] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص100.

دار برنو[97] ثم هجر توتى قاصدا الغابة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض[98] وأقام مدرسة للقرآن فى تلك المنطقة[99] وربما فعل ذلك لكسب المريدين من طـــلاب العلـــم ودرس فى هذه المدرسة الفقه والعقائد والزهد والتصوف[100] وقد ألف كتبا كثيرة فـــى الفتاوى والأحكام ويقول عنه ود ضيف الله انه فاق أقرانه وأذعنت له علماء الجزيـــرة كأنه بن عرفة[101] حتى إن أحدا من العلماء لا يفتي بحضرته.

مـدارس الجـزيرة:

أولاً : مدرسة كترانج:

يرجع تأسيس هذه المدرسة إلى الشيخ احمد بن عيســـى ود بشـــارة الانصـــارى وصمت مؤلف الطبقات عن الترجمة لآل عيسى رغم قرب موطنهم من الحلفايا إلا أن الدراسة التى قام بها الدكتور عز الدين الأمين بعنوان قرية كترانج وإثرها العلمى فـــى السودان ألقت الضوء على سبق هذه الأسرة في مجال تأسيس المدارس القرآنية وذكـــر أنه فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) قـــدم ود عيســـى مـــن الأزهر بعد حصوله على أجازات من شيوخها ورحـــل إلـــى كتـــرانج وبنـــى فيهـــا مدرسته[102] وكان القرآن والفقه والتوحيد أهم العلوم التى كانت تـــدرس وقـــال عنـــه إبراهيم عبد الداع ما وجدت فى بلاد السودان عالما أورع ولا اعلم من تلامذته[103].

ثانيا: مدارس العركيين:

بعد عودة محمود العركى من مصر وبعد إن درس الأزهر فى بداية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أسس مدارس لتعليم القرآن فى منطقة النيل الأبيض

---

(97) نفسه، نفس الصفحة.

(98) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص181 حاشية رقم 10.

(99) يحيى محمد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص137.

(100) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص362.

(101) هو عبد الله بن عرفه كان إمام تونس فى المذهب المالكى وألف عدداً من الكتب (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص362 هامش رقم6).

(102) عز الدين الأمين، قرية كترانج وإثرها العلمى فى السودان، ص13.

(103) نفسه، ص42.

ويذكر صاحب الطبقات انه كان من الخرطوم إلى أليس توجد سبع عشرة مدرسة[104] ساهمت هذه المدارس فى تعليم الناس وإرشادهم فى أمور الدين من عدة وطلاق وتمييز بين الحلال والحرام وشاركه فى التدريس ابنه الذى كان شيخا ورعا ومرشدا[105].

مـــدارس اربجـــى:

مدرسة حجازى بن معين:

تعد مدينة اربجى[106] أحسن مدائن الجزيرة ذات تجارة وعمارة ومبـــان حســـنة ومدارس علم وقرآن[107] حيث أسس حجازى بن معين أول مدرسة لدراســـة القـــرآن فيها[108] وقدم هذه المدينة وشهرتها التجارية جعلها تستقبل العلمـــاء وترســـل أبنائهـــا إلى مراكز العلم خارج البلاد لينهلوا من معينهم وحرصوا على تحصيل العلوم ونـــالوا الأجازات فزادت شهرتهم حتى بلغ عدد الوافدين فى حلقة الشـــيخ أبـــو ســـنينة ألـــف طالب وقرا عليه خلايق لا يحصون[109] ومن فقهاء اربجى حمد بن أبى زيد الحضرى البصـــيلابى[110] الـــذى عـــرف بالزهـــد والتصـــوف واشـــتغل بتـــدريس الرســـالة لخلايق كثيرين[111] ومن شيوخ اربجى سنوسى ولد نورين الذى كان مدرســـا للقـــران

---

[104] أمحمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص344.
[105] نفسه، ص345.
[106] هى مدينة تجارية تقع على شاطئ الغربى للنيل الأزرق جنوب الحصاحيصا (محمد النـــور بـــن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص39 هامش رقم11) وقد ذكر ود ضـــيف الله إنهـــا أنشئت 880هـ – 1475م على يد حجازى بن معين. وبما إن حجازى قد اخذ العلم على يد تـــاج الدين البهارى الذى قدم الى السودان فى التصف الثانى من القرن العاشر حسب ما ذكر ود ضيف الله ص127. ويرجح قريب الله قدوم البهارى فى 974هـ – 1566م إذن ربط نشـــأتها بحجـــازى مستحيلة ويقول يوسف فضل انه شيد مسجدها فقط (أمحمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص39 هامش11).
[107] أحمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص16.
[108] نفسه، ص128 هامش رقم 5.
[109] احمد بن الحاج أبو على، مرجع سبق ذكره، ص89-90.
[110] أنهم من ذرية حماد البصيلى، وكانوا يسكنون فى ادفو بمصر وإنهم يرجعون أصلهم البعيد إلـــى عرب الحجاز وينتمون إلى جهينة (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوســـف فضـــل، ص 186، هامش رقم 10).
[111] نفسه، نفس الصفحة.

وكريما مع الطلبة[112] وكان أهل اربجى يعتقدون فى والده نورين الذى انشغل بقــراءة القران نهاره وليله[113].

ومن علمائها كذلك شمو بن محمد بن عدلان الذى درس خليل والرســالة وجمــع بين الفقه والعقائد ودرس كتب الفقه الشافعى المنهج والمنهاج ويقول عنه ود ضيف الله إن شمو عالم اربجى وخطيبها وقاضيها ومفتيها فى مذهب مالك والشــافعى ومدرســا فيها[114] وأصبح متعدد الثقافات حتى أطلق عليه أهل اربجى مركب الهند[115].

من علماء اربجى كذلك القاضى دشين[116] وتوليه منصب القضاء يعكــس مــدى علمه وثقافته هذا بالإضافة إلى موقفة مع الشيخ محمد الهميم يؤكد غيرته علــى تنفيــذ إحكام الشرع.

اشتهر فى سنار والجزيرة علماء جمعوا بين الفقه والتصــوف والتــأليف مــنهم إبراهيم بن عبودى المشهور بالفرضى[117] وابنه القدال الــذى شــدت إليــه الرحــال وضربت إليه أكباد الإبل فى طلب العلم وكان يدرس خليل والرسالة والعقائد والتفســير وقراءة الجامع فى الحديث[118] وفى أبى حراز شدت الرحال إلى الشيخ دفــع الله أبــو إدريس الذى كان شغله تدريس القران وبلغ أربعون من تلاميذه درجــة القطبانيــه[119] والقيه إبراهيم السعودى الذى كان يمتلك خزانة كتب موقوفة على طلبة العلم[120].

---

(112) نفسه، ص224.
(113) نفسه، ص266.
(114) نفسه، ص 232.
(115) لأنها تحمل بضائع متعددة محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضــل، ص233 هامش3)
(116) سمى بقاضى العدالة لأنه فسخ نكاح الشيخ محمد الهميم الذى تزوج تسعين امرأة قال له خمســت وسدست وسبعت وجمعت بين الأختين وخالت كتاب الله وسنه رسوله (محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص320).
(117) لأنه ألف الحاشية المشهورة بالفرايض وهو علم يختص بتقسيم الأرض وتوزيع الأنصبة الشرعية علم المواريث يسمى علم الفرائض (يحى محمد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص169).
(118) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص82.
(119) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 209.
(120) نفسه، ص89.

الملاحظ إن سنار وما جاورها كانت منطقة ثرية بنشاط دينى وعلمى واسع ساهم فيه فقهاؤها عن طريق مراكزهم العلمية (خلاوى ومساجد) هذا بالإضافة إلى أنهم طرقوا مجالات جديدة أصقلت تجاربهم منها رحلة العلماء إلى الحجاز ورحلة حسن ود حسونة إلى مصر والشام والفقيه موسى الجعلي وكان ممن درسوا فى مسجد الحلفايا. وكان تلاميذه محمد بن ضيف الله جد مؤلف الطبقات[121] الذى درس منحنيات بن عطا الله[122] وسائر أذكار شيخه خوجلى وقراءة الوظيفة[123] وأحزاب الشاذلى[124]. يتضح من ذلك إن الدراسة في زمن جد مؤلف الطبقات أخذت طابعا أرخ إذ شملت بجانب ألفه كتبا أخرى حرص الطلاب على دراستها ومن شيوخ الحلفايا الشيخ عبد الهادى ولد دوليب وابنه الشيخ نابرى[125]، والشيخ عبد الحليم بن سلطان الذى قدم جده من فاس فى المغرب في زمن الفونج وأنجب عبد الرحمن والد عبد الحليم الذى كان من كبار شيوخ الحلفايا ومن حكمته كان يبعث به لحل الخصومات بين العرب والفونج[126]. ولأغلب هؤلاء المذكورين مساجد فى الحلفايا يعلمون فيها أولاد المسلمين كما أسس الشيخ أبو سرور الفضلى الذى ولد بالحلفايا أسس خلوته بالقرب منها[127].

ب- الكتب الدراسية:

تشابهت مؤسسات التعليم من خلاوى ومدارس فكانت واحده فى المشرق والمغرب ورغم إن التعليم لم يوضح بمنهج محدد إلا أن الكتب كانت واحدة فقط

---

(121) نفسه، ص105.

(122) كتاب من تأليف تاج الدين احمد بن عطا الله السكندرى (ت 709هـ - 1305م) ومن أكثر كتبه شيوعا (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، المقدمة9).

(123) الوظيفة: هى وظيفة الشيخ أبى الحسن على الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية ووظيفته أو أوراده تبدأ بـ (اللهم صلى وسلم بجميع الشئون فى الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة .. وتنتهى بقراءة الصمدية والمعوذتين والفاتحة (عبد العزيز أمين عبد المجيد - التربية فى السودان) ج1 ص156، حاشية رقم 4.

(124) هى من مؤلفات الشيخ أبى الحسن على الشاذلى كذلك وهى كثيرة منها حزب البحر، البر، اللطيف، النصر وهى تقريبا 18 حزبا (حسن الفاتح قريب الله، التصوف في السودان ص 242-248).

(125) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص367.

(126) نفسه، ص297.

(127) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 105.

الاختلاف كان في التخصص فنجد مثلا مدرسة للقران تعنى بعلوم القران وأخرى بالفقه وثالثه بالتوحيد وهكذا واهم الكتب التى كانت تـدرس فـى الفقـه هـى خليـل[128] والرسالة[129] ويعود الفضل للشيخ إبراهيم البولاد فى إحضار هذه الكتب مـن مصـر والشروحات التى وضعت عنها وكتاب مختصر خليل كـان مثـار اهتمـام العلمـاء والمتصوفة والطلبة لأنه شمل القضاء والإفتاء والفرائض وإحكام البيع وتناول مسـائل اجتماعية ووضع حلولا لمشاكل مجتمع لم يعرف القوانين الوضـعية ولهـذه الكتـب شروحات متعددة كشرح عبد الباقى الزرقانى المالكى على مختصر خليل[130] وشـرح الشبراخيتى[131] على العشماوية ومن كتب الشافعية التى راجت فـى مملكـة الفـونج وكانت تدرس فى كل من سواكن وطوكر كتابان هما: (منهاج الطالبين) لمحى الـدين النووى (ومنهج الطلاب) لزكريا الانصارى إما بالنسبة لكتب الحديث كانـت صـحيح البخارى التى احضرها فقهاء الدامر من مصر وكانت تدرس فى مدارسـهم وكـذلك كتاب الجامع فى الحديث الذى كان يدرسه الشيخ القدال[132] وكـذلك كتـاب الجـامع الصغير الذى يدرسه عمار بن عبد الحفيظ ضمن حلقاتـه الخمسـة[133] ومـن كتـب العقائد التى كانت تدرس (متن السنوسية) وهى مقدمة فى التوحيد من ثـلاث مقـالات

---

[128] خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب من كبار علماء المذهب المالكى بمصر وقد ألف مختصـرا فى المذهب لمالكى وجمع فيه فروعا كثيرة واقبل عليه الطلبة ودرسوه واعتنى الفقهاء بشـرحه وكان من أهم الكتب المتداولة فى دولة الفونج وتوفى فى 776هـ – 1374م (محمـد النـور بـن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص42 حاشية رقم 1).

[129] هى رسالة ابن زيد القيروانى وهو عبد الله أبو محمد بن أبى زيد القيروانى سكن القيروان وكـان من اشهر أئمة المالكية فى زمانه وهو الذى جمع روع المذهب المالكى وشرحه ولخصه وقد اخذ عنه كثيرون وله مؤلفات كثيرة على المذهب المالكى منها (النوادر والزيـادات علـى المدولـه) و(مختصر المدونة) و(كتاب الرسالة) وهو كتاب مشهور عمت فائدته سائر الأقطار التى تـدين بالمذهب المالكى وتوفى ابن ابى زيد القيروانى سنه 386هـ – 984م (محمد النور بن ضيف الله ، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص41 حاشية رقم 2).

[130] هو عبد الباقى بن يوسف بن علوان الزرقانى المالكى كان عالما وقيها متحجـرا ولـد بمصـر 1020هـ – 1611م لزم الاجهورى سنين عديدة ودرس بالأزهر وقد ألف كتبا كثيرة منها شرحه على مختصر خليل وتوفى بمصر سنه 1099–1688م وشرح عبد الباقى مطبوع ببـولاق عـام 1303هـ – 1893م فى ستة أجزاء (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضـل، 182 حاشية رقم 12).

[131] هو محمد بن سلام الشبراخيتى من علماء الأزهر(محمد النور بن ضيف الله، الطبقـات، تحقيـق يوسف فضل، نفس الصفحة، حاشية رقم14).

[132] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص82.

[133] نفسه، ص261.

كبرى وتسمى (بعقيدة أهل التوحيد) ووسطى وتسمى (بالمرشـــدة) وصـــغرى وهـــى (أم البراهين)[134].

كان يدرس كذلك كتاب (الجوهرة) الذى قام بتأليفه أرباب العقائـــد فـــى أركـــان الأيمان وكان ذا نفع عظيم[135] ووضع الشيخ مضوى بن محمد المصرى أربعة عشر شرحا فى أم البراهين عم بها سائر الأقطار وشرحين لـــ (يقول العبد) الكبير فى مجلد ضخم نحو ستين كراسا والصغير فى سبعة كراريس وشرح الجزريـــه[136] والرســـالة والاجروميه[137] ومن كتب العقائد كذلك الاخضرى[138] والعشماوية[139] إمـــا بالنســـبة لعلوم القران مثل القراءات والتجويد والتلاوة فقد ازدهرت فى بلاد الفونج علـــى يـــد محمد بن عيسى سوار الذهب[140] تلميـــذ التلمســـانى المغربـــى والمصـــرى محمـــد القناوى[141] ويعد سعد الكرسنى رائدا فى هذا المجال لأنه حرص على تعليم تلاميـــذه الشد والهمزة والإدغام والغنة ومن كتب القران التى كانت تدرس آنـــذاك (الخـــرازى) و(الجزرى)[142] و (الشاطبية)[143] وقد صاحب هذا الوعى الإسلامى الاهتمام بجمـــع

[134] لأبى عبد الله السنوسى التلمسانى المتوفى 895هـ- 1480م (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص5).

[135] نفسه، ص100.

[136] منظومة فى التجويد مؤلفها شمس الدين الدمشقى الجذرى من أئمة الوعاظ توفى 833هـ- 1429م (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقي فضل، ص102 حاشية92.

[137] اشهر كتب النحو تأليف عبد الله بن محمد المعروف بـــابن اجـــروم المولـــود 682هـ - 1283م المتوفى 823هـ - 1323م (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوســـف فضـــل، نفـــس الصفحة حاشية رقم10).

[138] كتاب فى العبادات تالي عبد الرحمن الاخضرى على مذهب الإمام مالك وهو من مدينة بسكرة ى الجزائر (918-983هـ 1512-1575م) محمد النور بن ضيف الله، الطبقـــات، تحقيـــق يوســـف فضل، ص 282 حاشية 21.

[139] متن العشماوية للإمام عبد البارى العشماوى وهى مقدمة فى الفقه على مذهب مالك وقد شـــرحها عبد المجيد الشرنوبى الازهرى (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، نفس الصفحة، حاشية 22).

[140] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص101.

[141] نفسه، ص347.

[142] منظومة فى التجويد مؤلفها شمس الدين أبو الخير الدمشقى الجذرى من أئمـــة الحفـــاظ وعلمـــاء القراءات توفى فى 833هـ - 1429م (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص102 حاشية رقم 8).

[143] أرجوزة فى القراءات لأبى القاسم بن فيرة بن خلف أبو محمد الشاطبى ولد فى الأندلس وتـــوفى بمصر (538-590هـ - 1144-1194م) وكان عالما بالحديث والتفسير وله الكثير من المؤلفات (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص282 حاشية 19).

الكتب ونقرا بين طيات الطبقات عن حرص الشيوخ لاقتناء الكتب فالشيخ عبد الرحمن بانقا الذى استأجر النساخ لينقلوا له الكتب وأرسل إلى مصر والحجاز يطلب الكتب الغريبة والنادرة وملأ بها ست خزانات[144] والفقيه حامد اللين الذى باع عبدا ليشترى بثمنه مختصر خليل من مصر[145] وعمار بن عبد الحفيظ الذى جمع الكثير من المراجع إثناء رحلاته إلى مصر والحجاز حتى بلغ ما جمعه نحو رحلين أو ثلاثة من الكتب[146] وبجانب هذا وذاك كانت هناك حركة تأليف وذكر ود ضيف الله مؤلفات منسوبة إلى علماء السودان لم نجدها مثل كتاب (الجواهر) لأرباب العقائد وهذا المؤلف كان فيما يبدو متداولا بدليل ما قيل عن انتفاع الناس به شرقا وغربا وكتاب (صفه الفقير) للشيخ محمد ولد هدوى الذى كان شاعرا وأديبا ويذكر ود ضيف الله أبيات له فى رثاء الشيخ الزين بن الشيخ صغيرون[147] وابنه إبراهيم[148] وكذلك كان لعبد الرحمن بن جابر كتاب (ترشيد المريد فى علم التصوف[149] وهو الذى اختص بالفتاوى والأحكام ولكنى لم أتحصل عليه لكن من خلال أجازته لأحد مريدية تؤكد انه كان متمكنا من علمه[150] كذلك كتب عبد الرحيم بن الشيخ سليمان من مسائل فى نحو كراسين سال عنها الشبراخيتى فى مصر وكانت فى غاية الفائدة وتدل على نباهته[151] كما أن هناك عبارات فى الطبقات مثل (وجد عند الناس قبولا) و (وجدت بخط فلان) و(قد رأيت بخط الشيخ .. فى مكان له صورته[152] واقرب مثال لحركة التأليف السفر الذى بين يدينا لود ضيف الله عكس سعه إطلاع هذا المؤلف رغم إن كثير من عباراته كتبت بالعامية لكنى لا اعتقد إن ذلك يقلل من قيمته.

---

(144) نفسه، ص291.
(145) نفسه، ص182.
(146) نفسه، ص259.
(147) نفسه، ص 75.
(148) نفسه، ص 77.
(149) نفسه، ص 251.
(150) انظر أجازته في الطبات، ص104 الملحق رقم5.
(151) نفسه، ص371.
(152) نفسه، نفس الصفحة.

إما علوم البلاغة والمنطق والنحو والصرف كانت تدرس فى حلقة الشيخ محمد القناوى وابنة المضوى المصرى ولا تخرج المقررات عن المؤلفات المتداولة فى الأزهر مثل (الأزهرية) و (قطر الندى) و (شذور الذهب)[153] هذا بالنسبة للنحو إما كتب المنطق والبلاغة فلا نعرف عنها شيئا لان المصادر لم تسعفنا فيها وبجانب ذلك كانت المدائح النبوية التى اشتهر بها الشيخ ود حتيك المحسى[154] .

كان لهذه الكتب على قلتها فى بلد مترامى الإطراف كدولة الفونج شان كبير فى تبديد العزلة الفكرية التى فرضتها صعوبة المواصلات من الخارج وقلة الاتصال فى الداخل واعتماد التلاميذ على قدر بسيط من المؤلفات الخطية توضح لنا الصعوبات التى كانت تحول دون نشر الثقافة العربية بطريقة اشمل كما توضح دور الفقهاء من إرساء لتعاليم الإسلام الصحية.

ج- الأجازات العلمية:

عرف السودان الأجازات العلمية فى عصر الفونج وهى لم تكن شهادة بالمعنى الذى نعرفه وإنما كانت إذنا أو أقرارا من الشيخ بان الطالب بلغ مرتبة تؤهله لتدريس المادة وروايتها والإجازة إما شفهية أو تحريرية[155] ولما كانت أكثر أجازات علماء السودان صادرة من علماء الأزهر يجب إن نعرف إن الدراسة فى الأزهر كانت فى شكل حلقات فإذا رغب الطالب فى إن يقوم بالتدريس يستأذن شيخه ويعقد حلقة تضم طلابا من أنصاره وخصومة فإذا أجاب على الأسئلة المطروحة بجدارة واقنع خصومة والحاضرين أعطى الإجازة وإذا تعثر يعود طالبا يتلقى العلم فى مجالس الشيوخ[156] ولهذا ما كان الطالب يقدم على الاستجارة إلا بعد إن يأنس فى نفسه الكفاءة والأهلية. وطالب الأزهر السودانى كان إذا أراد العودة لبلده عليه الحصول على إجازة تثبت

---

(153) يحيى محمد إبراهيم، مرجع سابق، ص164.
(154) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سابق ذكره، ص181.
(155) يحيى محمد إبراهيم: مرجع سبق ذكره، ص188.
(156) أحمد شلبى: مرجع سبق ذكره، ص220.

كفاءتة فى الفتيا أو التدريس[157] وخاصة أنهم درسوا على مشاهير علماء الأزهر أمثال البنوفرى واللقانى والاجهورى وليس ما يمنع إن يكون هؤلاء قد منحوا تلاميذهم هذه الإجازة بدليل أنهم عندما عادوا قاموا بتدريس العلوم التى درسوها. ولكن هل كان هناك منهج محدد يدرس وبعده يستجاز الطالب؟ لا اعتقد ربما اكتفى الطالب بحفظ كتاب واحد أو جزء من كتاب أو سور من القران وطلب من أستاذه أن يجيزه فى تدريس هذا الكتاب أو هذا الجزء منه بقصد الارتزاق[158] ويذكر ود ضيف الله إن إسماعيل بن جابر الذى شد الرحال إلى مصر ودرس على يد البنوفرى الذى أجازه ثم عاد إلى جزيرة ترنج وقام بتدريس مختصر خليل[159] والشيخ البنوفرى هو الذى أثنى على عبد الرحمن بن حمدتو قائلا انه يصلح للفتوى لكونه يسأل عن خفايا الشراح كما أشاد بمحمد بن سرحان قائلا انه يصلح للتدريس لأنه يسأل عن تحقيق صورة المتن[160] وربما منحهما أجازات فى ذلك وقد يحدث إن يستجيز طالب شيوخا لا يعرفهم عن طريق المراسلة أو المكاتبة وربما كان السبب بعد الديار وتعذر الالتقاء فيجيزه الشيخ أو يرفضه ويحدث ذلك لشيوخ المتصوفة كما يحدث للعلماء[161] ومن الأجازات بالمكاتبة تلك التى منحت للشيخ حسن عبد الرحمن بن الشيخ صالح ود بانقا عندما كان فى صحبة الشيخ احمد ود عيسى عندما استجاز الشيخ احمد الدرديرى فى قراءة كتب الحديث ومصطلحها[162] والشيخ احمد الكفرواى الذى صحب فى مصر عددا من أجلة العلماء وحصل منهم على عدد من الأجازات وبعد عودته درس الفقه فى مسجد كترانج[163] والجدير بالذكر إن كثيرا من علماء قرية كترانج الذين درسوا فى الأزهر حصلوا على أجازات علمية منهم الشيخ عيسى بن بشارة الانصارى الخزرجى

---

[157] يوضح أبو العباس أحمد القلقشندى الغرض من الإجازة فى التيار والتدريس فيقول (إما الإجازة للفتيا فقد جرت العامة إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس إن يأذن له شيخه فى إن يفتى ويدرس وكتب له بذلك وجرت العادة إن تكون الإجازة مكتوبة فى فرقة الشامى أو البلدى بقلم الرقاع اسطرا متوالية بين كل سطرين أصبح عريفى (صبح الأعشى ج14، ص322.

[158] حليم اليازجى: مرجع سبق ذكره، ج1، ص78.

[159] سر الختم عثمان: أولاد جابر، ص18.

[160] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص256.

[161] احمد شلبى، مرجع سبق ذكره، ج1 ص91.

[162] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص189.

[163] محمد النور بن ضيف الله، الطبقات تحقيق يوسف فضل، ص189 هامش رقم8.

والشيخ احمد البدوى وابناه عبد الرحمن ومحمد[164] وبالمكاتبة كذلك حصـل الشـيخ محمد المجذوب على اجازتة من الشيخ الصعيدى العدوى احد علماء الأزهر[165] ولعل ارفع الأجازات هى تلك التى أعطيت لمن تلقوا تعلميهم فى الأزهر وكتـاب الطبقـات حافل بذكر العديد من أسماء العلماء الذين نالوا هذا الشرف مثل عبد الرحمن بن بـلال الذى كان ماذونا له فى الفتوى والتدريس[166] وكذلك على بن دياب القريشـابى الـذى كان ماذونا له فى التدريس كذلك كشيخة أبى الحسن وحضر حلقته خلق كثيـرين[167] وهناك نوع أخر من هذه الأجازات هى الإجازة الشفهية التى حصل عليها عبد الـدافع القنديل بعد إن شهد له الشيخ حمد النحلان بالتدريس فى صغره والواضح أنها إجـازة شفهية بدليل قوله يا فقيه شكر الله تقرى أولاد الحلفايا أنت حي وأبو عيونا حمر هـذا يقرى فى مسجدك[168] وبالإضافة إلى مقدرة الطالب العلمية تحرص بعض الأجـازات على ذكر الجوانب الروحية والخلقية مثل الإجازة التى منحها الشيخ عبد الرحمن بسن جابر لتلميذه إبراهيم ودام رابعة[169] حين وصه شيخه بقوله (الشيخ المتأدب المحتـرم المتواضع) ويمضى الشيخ ليحدد فى تلك الإجازة واجباته الروحية والاجتماعية بقولـه انه قد جعله مربيا للمريدين وقدرة للمسترشدين وملجأ للقـراء والمسـاكين ويبـدو إن الأجازات فى عهد الفونج لم تكن خاصة بعلوم الدين فقط فقد ذكر ود ضيف الله إن عبد الرحمن ولد طرف صحب الشيخ إدريس ود الأرباب وسلك عليه الطريقة وأذن له فى الطب ودل الناس علية[170] .

د- دور الأزهر فى السـودان:

تعتبر السلطة السنارية أو دولة الفونج أهم حلقات التسلسل الحضارى فى تـاريخ السودان فهى المرحلة التى انصهرت فيها كل إبداعات الحضارة السودانية السابقة لهـا

[164] عز الدين الأمين، مرجع سبق ذكره، ص65.
[165] يحيى محمد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص196.
[166] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 285.
[167] نفسه، ص286 – 287.
[168] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 290.
[169] انظر الملحق رقم (5).
[170] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص263.

المروية والكبوشية والفرعونية والمسيحية والإسلامية لتخلف مرحلة حضارية لا تزال مصطلحاتها الثقافية فعالة حتى يومنا هذا.

وقد خلقت السلطة السنارية الأسس الحضارية والإدارية للسودان الموحد وللهوية السودانية التى ساهمت كل مناطق وقبائل السودان فى خلقها ونشأتها واستمراريتها وقد مثلت الثقافة العربية المتسربة قبل ومع الإسلام على يد علماء الأزهر مـن مصـريين وسودانيين رسموا فيه مرتكزا أساسيا فى نهضة السلطة السنارية. لد اعترفت الدولـة السنارية بأهمية العلم والعلماء فى الدولة والعمل بآرائهم والرجوع إلـيهم وقـد جـاء ذلك واضحا فى مخطوطة كاتب الشونة تحقيق الشـاطر بصـيلى الـذى يـذكر فـى مقدمة تحقيقه:–

منذ أوائل القرن التاسع بدأت فى السودان حركة علمية طيبة لكتابة تراجم العلماء ورجال الدين مِن أهل البلاد وخاصة أولئك الذين سـكنوا إقلـيم الجزيـرة والمنطقـة الشمالية الغربية من الخرطوم وافتتح هذه النهضة العلمية الفقيه محمد النور ود ضيف الله ابن محمد ود ضيف الله الجعلى بتأليفه كتاب بعنـوان (الطبقـات فـى خصـوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان) وهو المشهور بطبقات ود ضيف الله ثم تلاه الشيخ أحمد بن الحاج أبو على المعروف بكاتب الشونة بتأليفه كتـاب عـن تاريخ السلطة السنارية والإدارة المصرية.

ويكشف كتاب الطبقات عن أهمية الحركة الفكرية فى تكيف دولة الفـونج ودور رجال التعليم والدعوة فى إقامة تلك الدولة. ويكفى إن هذا الكتاب اقتصر على الترجمة لسيرة رجال التعليم والدعوة وأهمل تدوين التاريخ السياسى وهو الكتاب الاساسى عـن تلك الفترة مما يدل على طغيان الحركة الفكرية وتنامى تأثيرها على أوضاع المجتمـع والسياسة والاقتصاد[171].

---

[171] حسن مكى: من مضامين الثقافة السنارية المغزى والمضـمون، مجلـة الدراسـات الأفريقيـة، السودان، الخرطوم، العدد الثمن، ديسمبر 1991م، ص29.

شجع سلاطين الفونج وملوك العبدلاب قدوم العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مصر والحجاز والمغرب ليسهموا فى نشر العقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها على أسس علمية سليمة بين مواطنيهم.

كان أول العلماء السودانيين اهتماما بنشر العلوم الإسلامية الشيخ محمود العركى الذى درس مذهب الإمام مالك فى مصر وعند عودته أسهم فى التدريس وإنشاء سبع عشر مدرسة فى المنطقة الواقعة بين توتى والليس (الكوة) ومنهم إبراهيم البولاد حفيد غلام الله بن عايد بن جابر الذى ركز جهده فى منطقة الشايقيه بعد إن تخصص فى فقه الإمام مالك فى مصر[172].

لقد ظلت مصر كما كانت دائما كعبة العلم والعلماء والطلاب يهرعون إليها ليستظلوا بظلها الوارف وينهلوا من نيلها الفياض.

دور الأزهر فى الحياة الثقافية السودانية:

لقد صاغت السلطة السنارية أو دولة الفونج أساس السودان العربى الافريقى المسلم الذى امتزجت فيه الحضارة النوبية بالفرعونية بالزنجية لتصب فى رافد الحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى السودان بفضل العلماء وإتباعهم وتلاميذهم ويمكن إن نقول إن الإسلام فى السودان جاء على مرحلتين:-

الأولى: تلقائية بواسطة طلائع المهاجرين والتجار والتزاوج.

الثانية: منظمة وعلى أسس علمية عن طريق الأزهر وهذه قامت بتصحيح إسلام الذين اسلموا فى المرحلة الأولى وكان إسلامهم تشويه بعض الشوائب الوثنية والمسيحية[173].

[172] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص144.

[173] محمد سليمان محمد: دور الأزهر فى السودان، مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985م، ص20.

لقد أخذت الحياة الثقافية والتعليمية طابعها العلمى المنتظم فى عهد دولة الفونج - والسلطة السنارية خاصة أيام حكم الشيخ عجيب الذى أولى اهتمامه بالمساجد ودور العلم وفى عهدة زار كثير من العلماء السودان حيث وجدوا الترحيب[174] .

كان السودانيون يهاجرون من عالم إلى أخر فى طلب العلم ثم يتجهون إلى مصر إلى الأزهر الشريف حيث صدق عليهم القول بان للمسلمين قبلة دينية هى الكعبة بينما للسودانيين قبليتين دينية وهى الكعبة وعلمية وهى الأزهر فد كانوا يسافرون وهم على إلمام ودراية بعلوم الفقه واللغة واعتقد إن وصف رحلة الشيخ عمار بن عبد الحفيظ التى ذكرناها فى موضع أخر دليل على ذلك.

ويقول الشيخ محمد المبارك[175] فى كتابه مذكرات وذكريات - الجزء الأول (واسمع عن الأزهر الشريف وعلو شأنه فى جامعات العالم وأصالته فى التعلم الدينى وان ما سواه رافد من روافده وانه منهى مقاصد العلماء يفيدون إليه من كل فج عميق).

هكذا كان ومازال السودانيون يسافرون لمصر وللأزهر خاصة غير مهتمين بمشاق السفر وطوله سواء كانت مشاقا جسمانية أو اقتصادية فقد كانت الرحلة من سنار إلى مصر تستغرق خمسة شهور يتعرض فيها المسار للمخاطر والأهوال ولكن كل ذلك كان يهون لان السفر للأزهر كان أملا يراود طالب العلم. كان سلاطين سنار يحتفلون بالطلاب السودانيين القاصدين للأزهر ويودعونهم.

الرواد من السودانيين الأزهريين:

اشتدت الدعوة الإسلامية والرغبة فى نشر العقيدة بأساليب سليمة وكان روادها من مصر والحجاز والمغرب والعراق إلى جانب الدعاة الوطنين الذين كانوا لهم فضل كبير فى هذا الصدد ولما كانت مصر وريثة عظمة بغداد الثقافية تطلع ملوك الفونج إلى

---

(174) انظر ص ( ).

(175) هو شيخ علماء السودان رحلته التى كتب عنها كانت للأزهر 1342هـ - 1923م اى بعد مائتين وخمسة وستين عاما من رحلته الشفيع عمار.

أزهرها وعلمائه ويذكر الحاردلو إن أول ما بدا من علاقة ثقافية بين مصر والسودان بشكل واضح لا يخطئ كل مطلع على تاريخ هذه العلاقة كان فى العهد السنارى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى فى هذا العهد تجد الوفود من السودانيين ترد مصر قاصدة موردها العذب وذلك هو الأزهر الذى أصبح جامعة إسلامية فينهلون من العلم ما أمكنتهم ظروفهم وما وسعت قدرتهم.

ثم تجد وفودا من العلماء المصريين يفدون إلى السودان. على هول الطريق وبعده متجشمين الصعاب يقيمون فى السودان متخذين لهم تلاميذ ومعجبين. إن هؤلاء العلماء كانوا يشجعون تلاميذهم على الهجرة إلى مصر ليأخذوا العلم من مصدرة ويردوا الحوض الروى من مكانه فما هم إلا سواقى على شاطئ البحر[176].

كان أول من ذهب إلى مصر من السودان كما سجلته وثائق التاريخ هو الشيخ محمود احمد العركى الذى تتلمذ على الشيخين شمس الدين اللقانى وناصر الدين اللقانى فى ما بين 940/935هـ الموافق 1534/1529م وهما من شيوخ المالكية المعروفين وكان ذلك بعد حوالى خمسه وعشرون عاما من قيام سلطنة الفونج.

وعندما عاد الشيخ محمود أنشا خمس عشرة مدرسة على طول النيل الأبيض من الخرطوم ولم تعرف أو تشتهر قلبه مدرسة علم ولا قران وهذا يوضح لنا الدور الذى قآم به.

ومن مدارسة تخرج المشايخ والعلماء الذين انتشروا يحملون رسالة النور والعلم لأهل السودان.

وهناك أولاد جابر الأربعة الذين ينحدرون من أسرة دينية معروفة آنذاك فى شمال السودان كان عميدها غلام الله بن عايد اليمنى الذى جاء إلى السودان فى أواخر القرن الخامس عشر قبيل قيام السلطنه السناريه وكان أكبرهم إبراهيم بن جابر (البولاد) الذى

[176] إبراهيم الحردلو: الرباط الثقافى بين مصر والسودان، ص57.

درس في الأزهر على يد الشيخ البنوفرى وغيره من شيوخ المالكية في مصر، كما درس أصول الفقه المالكي واللغة والنحو وعاد إلى للسودان ويقال انه أول من درس مختصر خليل بن اسحق المالكي ورسالة ابن أبى زيد القيرواني في السودان[177].

وكان أول من تخرج على يد إبراهيم بن جابر أخوه عبد الرحمن جابر الذى ذهب إلى مصر للاستزادة من العلم في الأزهر على شيوخ أخيه وعاد فانشأ ثلاثة مساجد وكان يدرس في كل مسجد أربعة شهور[178] مقتديا بأستاذه الشيخ محمد البنوفرى الذى كان يمضى أربعة شهور في القاهرة ومثلها في الإسكندرية ثم الأربعة الأخيرة في الحجاز حيث اعتاد إن يحج سنويا إلى بيت الله الحرام. يواصل ود ضيف الله في طبقاته الرواية عن الشيوخ والعلماء الذين درسوا على الشيخ عبد الرحمن بن جابر مثل الشيخ عبد الله بن دفع الله العركى الذى رجع إلى منطقة أهلة في ارض الجزيرة حيث اخذ في نشر العلم فيها كما تولى مهمة القضاء في السلطنة السنارية.

هاجر إلى الأزهر كذلك الشيخ إسماعيل بن جابر الأخ الثالث لأولاد جابر حيث درس هنالك على يد شيخ أخوية البنوفرى وعاد ليواصل رسالة أسرته وأخوته في نشر العلوم والمعرفة الإسلامية والثقافية العربية خاصة بعد وفاة أخيه عبد الرحمن.

كان لأولاد جابر أخت تعتبر نظيرة لهم في العلم والدين وهى فاطمة بنت جابر وهى والدة العالم محمد بن سرحان المعروف بصغيرون الذى سار على مهج أخواله فسافر إلى مصر ودرس أيضا على الشيخ البنوفرى وعاد لينشر العلم في دار الجعليين. عن هذه الأسرة أسرة أولاد جابر – يقول احد المؤرخين السودانيين[179] (أنهم وضعوا أساسا قويا للحياة في السودان فقد نشروا العلوم الإسلامية ووضعوا منهجا لدراستها وتضاعف مجهودهم على مدى السنين عن طريق الطلاب الذين تلقوا العلم عليهم ثم

(177) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص45.
(178) نفسه، ص 251.
(179) سر الختم عثمان: أولاد جابر، ص25.

نشروا بدورهم فى إرجاء مختلفة من السودان كما قام هؤلاء الطلاب بتطوير رسالة مشايخهم أولاد جابر وذلك بإدخال موارد إسلامية فى خلاويهم ومساجدهم).

ومن العلماء السودانيين الذين واصلوا تعليمهم فى الأزهر الشيخ عبد الرحمن حمدتو الخطيب[180] الذى تتلمذ على يد الشيخ البنوفرى وعاد إلى السودان ليقوم بتدريس مواطنيه وقد تخرج على يديه عدد من العلماء منهم الشيخ عبدالله الاغبش عميد أسرة الغبش الذى أسس مسيد وخلاوى الغبش فى بربر.

ومن الذين تخرجوا من الأزهر فى تلك الفترة الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم[181] من أبى ملاح الكتانى والد الشيخ خوجلى العالم المشهور فى توتى الذى درس على يد الشيخ على الاجهورى فى الأزهر.

وهنالك كثيرون غيرهم أمثال القاضى على ود عشيب[182] الذى درس على الشيخ البنوفرى وتولى القضاء والشيخ جمال الدين[183] المعروف بخلاوى الذى كانت لـه دراية بالفتاوى والحكام.

عاد أولئك الرواد إلى بلادهم بعد إن اخذوا عن أساتذتهم فى الأزهر ما تيسر لهم من العلم وما أهلهم للتدريس والفتيا فى بلادهم عادوا كل منهم يحمل إجازة علمية[184] من أستاذه كما جرت العادة آنذاك.

وهكذا نشأت المدن والقرى حول أولئك العلماء وتولت بيوت دينية بعينها تأسيس المدارس وإيواء الطلاب ونشر العلم فى البلاد وقد أوردنا فصلا كاملا عن المراكز العلمية فى عهد دولة الفونج.

---

[180] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص115.
[181] نفسه، نفس الصفحة.
[182] نفسه، ص114.
[183] نفسه، ص71.
[184] انظر الملحق رقم(5).

العلماء المصريون فى السودان:

لم يكن العلماء السودانيون الذين تخرجوا فى الأزهر هم وحدهم حملة رسالة العلم فى السودان فى العهد الفونجى فقد جاء عدد من العلماء المصريين أسهموا فى نشر العلم والثقافة فى ربوع بلادنا نذكر منهم:

الشيخ محمد المصرى القناوى هو من مدينة ادفو بصعيد مصر درس الأزهر على الشيخين السنهورى والزرقانى ووصل السودان فى منتصف القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) اى بعد قيام دولة الفونج وتنقل بين المدن السودانية إلى أن استقر فى مدينة بربر القديمة المعروفة آنذاك بالمخيرف حيث أنشا مسجدا فيها اقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب وترك مؤلفات فى الشرح على عقيدة السنوسى الصغرى وكتاب العشماوية ورسالة فى البسملة.

وقد تتلمذ عليه الشيخ محمد بن عيسى[185] بن صالح المعروف بسوار الدهب الذى قرا العقائد والمنطق وعلوم القران وأصبح فيما بعد من اجل علماء السودان وممن تخرج على يد الشيخ المصرى القناوى حفيدة الشيخ محمد المضوى الذى له مؤلفات منها (شرح القصيدة المنظومة فى فن التوحيد).

ومن تلاميذ الشيخ محمد المضوى الشيخ خوجلى عبدالرحمن أبو الجاز المعروف بأزرق توتى[186].

ومن العلماء المصريين فى السودان الشيخ محمد بن على قرم الكيمانى المصرى[187] دخل السودان فى أول ملك الفونج وزار اربجى وسنار واستقر فى بربر ويقال أنه أول من درس المذهب الشافعى فى السودان وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم الشيخ عبد الله العركى والقاضى دشين المقلب بقاضى العدالة والشيخ إبراهيم الفرضى

[185] بلدة فى الوجه القبلى فى مصر.
[186] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص347.
[187] نفسه، ص190.

وكان الشيخ ابن قرم قد درس فى مصر على الشيخ محمد الخطيب الشربينى احد إعلام الشافعية هناك.

الأزهر والقضاء فى سلطة الفونج:

انتظم القضاء فى دولة الفونج على أسس الشريعة الإسلامية أسوة بما كانت تجرى فى مصر والشام والحجاز فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) هذا مع تطبيق بعض القوانين العرفية.

كان هناك قاض يحكم فى جميع المنازعات[188] بالقران الكريم وكانت تجرى مناظرات ومحاورات بين القضاة. وهم إما خريج من الأزهر أو درس على خريج ويكون الحكم فيها على ما استقر عليه رأى القضاة وفى بعض الأحيان يحتكمون إلى علماء مصر فيما نشأ بينهم من خلاف كما حدث فى قضية حكم فيها القاضى السودانى عبد الرحمن بن مشيخ النويرى المتخرج من الأزهر على امرأة تبرعت بثلث مالها قاصدة بذلك ضرر زوجها، حكم برد المبلغ ونازعة الراى فرد عليهم بصحة حكم النويرى مراعاة للعرف والمصلحة العامة[189].

عندما دخل الدخان فى مصر وبدا انتشاره من أوربا إلى العالم العربى ومنه للسودان فى نهاية القرن العاشر الهجرى (نهاية السادس العشر الميلادى) إختلف العلماء السودانيون فى ما بينهم فمنهم من أباحهم ومنهم من حرمة تماما مثلما حدث فى مصر وقد روى ود ضيف الله إن الشيخ إدريس ود الأرباب العالم والمتصوف السودانى عارض الشيخ الاجهورى[190] الذى أفتى فى إباحة هذا التبغ وكان ومؤيدا

(188) محمد صالح محى الدين: مشيخة العبدلاب وإثرها فى تاريخ السودان السياسى، 910هـ-1236هـ، 1504م - 1821م، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، 1392هـ - 1972م، ص28.

(189) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص254-255.

(190) هو شيخ المالكية بمصر (967-1066هـ، 1560م- 1656م) كتب رسالة فى مسألة الدخان اسمها (غاية البيان لحل شراب ما لا يغيب العقل من الدخان) (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، حاشية رقم11).

للشيخ اللقانى صاحب جوهرة التوحيد فى حرمته. إما العالم الســوداني الشــيخ عبــد الوهاب رجل أم سنبل فقد عارض الشيخ إدريس ود الأرباب وأيد الشــيخ الاجهــورى مبيحا استعمال التبغ وجرت المناظرات بين العالمين السودانيين فى ذلك، ثــم أرســل الشيخ إدريس ود الأرباب رسالة خاصة إلى الشيخ الاجهروى حملها رسول منه وهــو حمد ولد أبى عقرب يعارضه فيها ويورد له حجته فى تحريم التبــغ وكانــت بينهمــا مراسلات ودية من قبل كما كانت هنالك صلات ورسائل مودة بــين بعــض علمــاء السودان وعلماء الأزهر منها ما كان بين الشيخ الخراشى إمام المالكية فى مصر وأول إمام للأزهر الشريف وبين العالم السوداني الشيخ إبراهيم صغيرون وكان قــد أهــدى العالم السودانى جارية إلى الشيخ الخراشى الذى بعث له بدورة نسخة من شرحه الكبير على مختصر خليل فى مذهب مالك[191].

هـ- رحلات الحج والعمرة:

الحج والعمرة أمل يراود كل مسلم فى جميع بقاع المسكونة. عندما ظهرت دولــة الفونج فى 910هـ- 1505ه كان طبيعيا إن يرنو سلاطينها إلى هــذا النبــع الأصــيل بالإضافة إلى شر الانتماء إلى البيت إن الحج إلى بيت الله الحرام كــان أمــلا يــراود الملوك والعلماء والتجار وحتى العامة وقد ساعد على تحقيق هذا الأمل سهولة الاتصال عن طريق سواكن والبحر الأحمر.

مهد الشيخ عجيب بن عبد الله جماع لهذا الاتصال بعمل حفير لجمع ماء المطــر لحل مشكلة مياه الشرب وذلك فى عام 960هـ - 1560م هذا الحفير كان على طريــق قوافل الحجاج وساعد إلى حد كبير فى تذليل وعورة هذا الطريق ثم ذهب إلــى الحــج وأقام هنالك زمنا أسس رواق بالحرم ولا تزال إثارة باقية[192] وذلك لإيواء السودانيين

---

[191] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص76.

[192] احمد محمد على حاكم: علاقة الجزيرة العربية بالسودان فى زمــن الخلفــاء الراشــدين، مجلــة الدراسات الاريقية، السودان الخرطوم، العدد الأول، 5 رجب 1405هـ، 1985م، ص16.

ثم إن قوافل الحج كان لها أثرا فى قدوم العلماء للسودان ويذكر ود ضيف الله إن تاج الدين البخارى حج إلى بيت الله الحرام ومنه قدم بلاد السودان بدعوة من داود بن عبد الجليل[193] التاجر السودانى وكان قدومه فى النصف الثانى من القرن العاشر[194] وتزوج امرأة من ناس العك[195] وله بنتان وأقام فى الجزيرة سبع سنين وبعدها سافر إلى الحجاز.

يعد الفقيه عمار بن عبد الحفيظ خير مثال يعكس مدى تعلق المسلمين فى دولة الفونج بالحجاز فقد اشتهر بكثرة رحلاته وقد أورد ود ضيف الله طرفا من رحلته التى كتبها بخطة وكان سفرنا من سنار لطلب العلم بالأزهر وللحج وجلسنا بالأزهر إلى شوال ثم سافرنا إلى الحج وحججنا حجة الإسلام فى تلك السنة[196] ثم رجعنا إلى مصر فلم ندخلها إلا فى سنه تسعة وسبعين فى شهر صفر ثم سافرنا إلى الحج اى حج التطوع فى شهر شوال مع الحاج المصرى ثم جلسنا بمكة مجاورين بيت الله الحرام ثم سافرنا إلى حضرة المصطفى بمكة ودخلنا فيه وصرنا إن شاء الله من الآمنين ثم سارنا من مكة إلى مصر ثم إلى السودان[197] .

ومن اوائل السودانيين الذين سافروا للحجاز فيما نعرف العجمى ود حسونة الذى سلك فى رباط العباسى وانقطع إلى الله فى الذكر والعبادة ولم يتزوج إلى إن مات[198] وأخوه حسن ود حسونة الذى حج إلى بين الله الحرام وقضى فى الحجاز ومصر والشام نحو اثنتى عشرة سنة ومعه أبو حميدة واحمد تود الدنقلاوى[199] وعبد الله العركى

---

[193] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص127.

[194] اى أواسط القرن السادس عشر الميلادى: ويرجح حسن محمد الفاتح قريب الله (التصوف فى السودان: 94-101) إن تاريخ قدومه كان فى سنة 974-1566.

[195] العك قرية على الشاطئ الأيمن من النيل الأزرق فى مجلس ريفى الحصاحيصا وسكانها ركابية وشكرية (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص128 هامش 2).

[196] اى سنه ثمان وسبعون وألف.

[197] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص259-260.

[198] نفسه، ص88.

[199] نفسه، ص134.

الذى حج أربعة وعشرين حجة ذهابا وإيابا واثنتى عشرة جوارا واشتهر بــالعلم فلمــا طال مكثه بالحجاز سافر إليه أخوة الشيخ أبو إدريس ومعه الحاج سلامة الضيابى فحجا حجة الفريضة وجابوة معهم[200].

ومن الجوانب الهامة ى سيرة إسماعيل بن جابر أداءه فريضة الحج وربما كــان الوحيد من أبناء جابر الذكور الذين حجوا إلي بين الله الحرام وقد اصطحب معه فــى هذه الرحلة أخته فاطمة بنت[201] جابر وابنها محمد بن ســرحان[202] (الــذى اشــتهر بالشيخ صغيرون).

إذن ثمة عوامل أدت إلى توثيق الصلة بين دولة الفونج وبلاد الحجــاز تميــزت برحيل علماء منها إلى الاراضى المقدسة وبمجرد عودتهم كانوا يؤسســون الخــلاوى والمساجد. ويروى ود ضيف أن عمارة بن شايقى أسس خلوته فى الحلفايا بعد أن حج إلى بيت الله الحرام وجاوره بمكة[203].

وبجانب ذلك كانت بلاد الحجاز ملاذا لفارين من ضغط الحكام لأنهم كانوا يجدون الأمن والطمأنينة بجوار مسجد رسول الله وفى ذلك يروى ود ضــيف الله بــن عبــد اللطيف بن الخطيب عمار الذى وصفه بــ (الاصولى النحوى اللغوى المــتعلم الفقيــه المنطقى المجود للقران المجتهد فى مذهب الشافعى) حج إلى بيت الله الحــرام بســبب نكبه حصلت له من سلطنه الفونج فجاور بسببها[204] وقد مدحه احد علماء الحجاز قائلا (عالم الديار السنارية وعلامة الأقطار الإسلامية)[205].

---

[200] نفسه، ص25.
[201] نفسه، نفس الصفحة.
[202] سر الختم عثمان، أولاد جابر، ص18.
[203] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص309.
[204] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص299.
[205] نفسه، نفس الصفحة.

الواقع إن اثر الحجاز كان كبيرا أكثر الذين هاجروا إلية سواء لأداء الفريضة أو التجارة درسوا هناك على علماء المالكية ونقلوا تعاليم هذا المذهب وكتبه المتعددة.

والمعروف إن رحلة الحج في ذلك الزمن كانت من اشق الرحلات فالرحلة داخل السودان إلى البحر الأحمر محفوفة بمخاطر الطريق من وعورة إلى قله امن كما إن الرحلة البحرية من ساحل السودان إلى ساحل الحجاز تكتنفها نفس الصعاب والمشاق لهذا فالحج في ذلك الزمن لم يكن يؤدية عدد كبير من أهل السودان.

كان بعض حجاج دارفور يسيرون عبر النيل لأنهم لا يستطيعون تكلفة الرحلة الصحراوية والسفر عبر النيل يعتبر صدقة بالنسبة للحاج لأنه يمر على المدارس القرانيه المنتشرة والموازية للنيل[206]. إلا إننا نجد فى كتاب الطبقات عدد من الشخصيات أمثال حمد أبو عقرب تلميذ الشيخ إدريس ود الأرباب سافر مع الفقيه حمد ولد أبو حليمة والفقيه على ولد أبو نافلة إلى الحج[207].

تمسك المسلمون فى دولة الفونج بدينهم الذى دفعهم لأداء هذه الشعيرة فنجد فرح ولد تكتوك صاحب الحكمة والموعظة الحسنة الذى حج إلى بيت الله الحرام وكان سببا لعدد من النصارى اسلموا على يده[208].

ثم إن الحاج إبراهيم بن برى الذى حج ومعه أربعة أشخاص[209] ولقد أعجب الفقيه أبو الحسن بن إبراهيم بولد برى[210] فقال: (الحج مثل حج الحاج إبراهيم والحاج عوض الكريم).

---

[206]Umar Al-naqar: the pilgrimage tradition in west Africa, Khartoum university pess, p111.

[207] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص53.

[208] نفسه، ص312.

[209] نفسه، ص88.

[210] لعله أبو الحسن دفع الله بن الفقيه ضيف الله (محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص65)

ومنهم من سافر وأوصى زملاءه الشيوخ على أبناءه فنجد الشيخ عبد الله الطريفى الذى أوصى الشيخ دفع الله على أولاده عندما سافر لأداء فريضـــة الحـــج لبيـــت الله الحرام[211].

وكان من الشيوخ من يؤدى الفريضة ومعه نفر كثير ويـــروى ود ضـــيف الله إن (الجنيد ولد طه بن عمار الذى أعطاه الله قبولا عند الملوك والسلاطين ولاســـيما أهـــل الحرمين والحجاز وجدة كان حاجا إلى بيت الله ومعه خلايق لا يحصون)[212].

اعتقد أن الرواق التى شيدها الشيخ عجيب كان لها دورا كبيرا فـــى إيـــواء هـــذه الإعداد من الحجيج وتقديم المساعدة لهم. ومن مشايخ دولة الفونج الذين ذهبوا لبيت الله الحرام حمد النحلان المشهور بابن الترابى يروى ود ضيف الله عنه قال: (انـــه أمـــر جيرانه بالسفر إلى الحج لزيادة قبر الرسول عليه السلام فقامت معه ســـبعين منطقـــة (تلميذ) وهو راكب على حمار وزوجته الحاجة على حمار وعناقريبهما الاثنين شايلنهن الفقراء على رءوسهم لا ذاد ولا ماء معهم وطلعوا من على ود عشيب بالنهار صايمين وبالليل ينزلوا عربانا يفطرونهم وهكذا إلى أن وصلوا سواكن)[213].

هذا وقد استخدم الحجاج السودانيون فى تلك الآونة طريـــق أخـــر هـــو ميـــناء القصير[214] الذى سلكه الشيخ شرف الدين بن عبد الله العركى الذى حج ومعه جماعة من جيرانه ومعهم الحاج مكي ولد سراج والفيه شكر الله الجميعابى[215].

---

[211] لعله أبو الحسن دفع الله بن الفقيه ضيف الله (محمد النور بن ضيف الله، مرجـــع ســـبق ذكـــره، ص65)

[212] نفسه، ص 131.

[213] كانت ميناء سوكن الرئيسى فى عهد الونج وأحدى المنافذ للتجارة والحجاج الســـودانيين (محمـــد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص164، هامش9).

[214] ميناء مصرى على ساحل البحر الأحمر ولعل هذا النص الوحيد الذى يســـتدل منـــه إن بعـــض الحجاج السودانيين كانوا يسارون الحجاز عن هذا الطريق إذ يبحر معظمهم من سواكن.

[215] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص231.

الفصــل الخامس

الدور المصرى الحجازى فى النهضة العلمية

أ- العلـماء والمتصـوفة

ب- الفقـهاء والحـكام

ج- الطـرق الصـوفية

الفصـــل الخامـــس
الدور المصرى الحجازى فى النهضة العلمية

أ- العلماء والمتصوفة:

الفونج هم حصيلة لقاح هجين بين العرب الوافدين والسكان الأصليين وهو لقـــاح مسالم تم بعيدا عن مظاهر التحكم العنصرى والتعسف الدينى والمـــذهبى ويقـــول بـــن خلدون (حاول ملوك النوبة صد العرب من دخول بلادهم السودان) ولكنهم لما فشـــلوا فى ذلك استطاعوا إن يكسبوا العرب عن طريق المصاهرة فزوجـــوا بنـــاتهم للعـــرب وأصبحوا الورثة الشرعيين للنوبة عن طريق وراثة ابن البنت وهكذا تفككـــت دولـــة النوبة وآلت لجينه[1].

- بلاد الحجاز :

لما كانت بلاد الحجاز مكة والمدينة منبعا ثرا فى هذه الفترة حيث احتلت المقـــام الثانى بعد مصر فى استيعابها للوفود الإسلامية القادمة للحج والتجارة والعلم حيث كان الحاج السودانيون يشجعون علماء الحجاز على الرحلة للسودان[2].

- بلاد المغرب:

كانت بلاد المغرب منبعا أخر للثقافة الإسلامية وربما جاء علماء المغـــرب مـــع الفونج حيث زحفوا من الغرب إلى مملكة سوبا فكانوا نواة لأفواج أخرى من المغاربة لحقوا فى أزمان مختلفة بزملائهم فى مملكة سنار ويذكر ود ضيف الله عددا من علماء

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، ج2، ص5.
[2] عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص57.

الفونج يعود أصلهم إلى المغرب أو الأندلس منهم (عبد الكافى المغربى، الذى قدم على (إدريس ود الأرباب) وعلمه الصوفية[3] وقدم كذلك جد حسن ود حسونة من (جزائر الأندلس)[4] ودفع الله بن مقبل ومعه الفقيه محمد فكرون من غرب السودان[5] وسعد ولد شوشاى وعلى اللبدى وهما صوفيان من المغرب [6] والتلمسانى المغربى الذى قدم فى عهد الملك بادى على الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وعلمه الصوفية[7].

- **العـــــراق :**

هى من أوائل من نشر الصوفية فى بلاد الفونج حيث قدم منها تاج الدين البهارى وعلم الناس مبادئ الطريقة القادرية وأقام فى السودان سبع سنوات[8] كان لهؤلاء جميعا أثار واضحة فى نشر الثقافة الإسلامية فى السودان إلا إننا نلاحظ إن الأثر الذى تركه علماء مصر فى السودان تميز بطابع علمى فى معظمة واقصد بذلك إن المصريين آنذاك كانوا يعنون بالفقه والتوحيد واللغة فى حين إن الطابع الصوفى قد غلب على تعليم الحجازيين والعراقيين والمغاربة ويتضح ذلك فى قول ود ضيف الله (أعلم إن الفونج ملكت ارض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة 910هـ وخطت مدينة سنار ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قران حتى وفد الشيخ محمود العركى من مصر وعلم الناس العدة[9].

وفى أوائل النصف الثانى من القرن العاشر قدم إبراهيم البولاّد من مصر إلى بلاد الشايقية ودرس خليل والرسالة ونشر الفقه فى الجزيرة ثم قدم التلمسانى المغربى على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه التصوف ثم قدم الشيخ محمد بن قرم

[3] ولد الشيخ إدريس ود الأرباب بعد إن اختطت سنار بثلاثة أعوام (913-1508م).
[4] ربما المقصود بها تونس وهو بلد يكثر ذكره فى الروايات عند القبائل السودانية خاصة البقاره (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات تحقيق يوسف فضل، ص133 حاشية رقم 2).
[5] نفسه ص 205.
[6] نفسه ص 222، 262.
[7] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص41.
[8] نفسه، ص127.
[9] نفسه، ص40.

المصرى الذى ادخل المذهب الشافعى وقدم كذلك الشيخ محمد المصرى ودرس التوحيد والنحو والرسالة[10] كل هؤلاء الشيوخ وفدوا فى زمن الشيخ عجيب المانجلك الابن الأصغر لعبد الله جماع والذى كان يقدر العلم ويحترم العلماء ويفرق المنح والعطايا عليهم وهو الذى شيد الأروقة لإيواء طلاب العلم[11] وعمل على جذب العلماء للإقامة فى مملكته بكل السبل حتى يتسنى لهم نشر الدين والثقافة الإسلامية وقد تمتع هؤلاء العلماء بنفوذ واسع فما كان يرد لهم طلبا ومن استجار بهم فهو امن من غضب السلطان[12] الذى كان يخشاهم أيضا فزى مثلا المجذوب جد المجاذيب لا يردون له شفاعه لاعتقادهم بان من يردها ينكب سريعا[13] وهيبة الشيخ خوجلى كانت تجعل السلاطين كالأطفال فى حضرته[14].

المتتبع لتاريخ الثقافة فى دولة الفونج يلاحظ إن العلم والصوفية دخلا سويا فى القرن السادس عشر الميلادى إلا إن الأخيرة انتشرت سريعا لان الناس كانوا يبحثون عن الخلاص من حالات الضعف واليأس التى اكتنفت حياتهم لان دخولها تزامن مع فترة السيطرة العثمانية على بلاد الشرق والعزلة السياسية والفكرية التى فرضها العثمانيون وتأثرت بها مصر وبالتالى دولة الفونج ولما كانت الصوفية تبشر بنعيم الآخرة للمحرومين وسوء العاقبة للباحثين عن نعيم الدنيا فقد وجدت تعاليمها أذانا صاغية من أناس هم نتاج بيئات كانت أساسا وثنية ومسيحية. ويعتبر شيخ الطريقة نواة التجمع الصوفى حيث يجتمع حوله المريدون على اختلاف قبائلهم وأجناسهم ويصبحون تحت زعامته أسرة واحدة أو طريقة واحدة وكتاب الطبقات حافل بأمثال هؤلاء وقد لاحظنا إن أهل الدامر هم أهل بلدة واحده ويتبعون طريقة واحدة (المجاذيب) ولهذا من الصعب على الباحث التمييز بين الجماعة الصوفية وأهل البلدة ولا نرى حدا فاصلا

---

[10] نفسه ص 40–42.
[11] محمد صالح محى الدين: مشيخة العبدلاب وأثرها فى تاريخ السودان، ص261.
[12] مكى شبيكه: السودان عبر القرون، لبنان، بيروت، دار الثقافة، 1991م، ص4.
[13] محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص188.
[14] نفسه، ص192.

بين الجانب العلمي والجانب الصوفي وذلك إن الفقيه كان في الغالب صوفيا كما إن بعض المتصوفة كانوا فقهاء فأولاد جابر بجانب اهتمامهم بالعلوم الفقهية وفي مقدمتها كتاب مختصر خليل الذي كان أول من درسه في دولة الفونج هو إبراهيم البولاد والي جانب هذا الأثر العلمي يتبين في حياه بعضهم التصوف في شخصية عبد الرحمن بن جابر الذي وصفه ود ضيف الله بالقطب الرباني والغوث الصمداني[15] وهذه الصفات يوصف بها كبار الصوفية هذا بالإضافة إلى كراماته ومنها عندما كان يدرس في أحد مساجده الثلاثة كان تلاميذه يرونه في المسجدين الآخرين في إن واحد[16] وهكذا إلى جانب الثقافة العلمية ظهرت بوادر ثقافة دينية صوفية وهي التي كانت شائعة في الحجاز والعراق ومصر ومنها تسربت إلى مملكة الفونج على يد الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها.

وللسناريين صلات لا تنقطع بالحجاز وخاصة في موسم الحج لطلب العلم على علماء الحرمين هذا بالإضافة إلى إن قادة الصوفية في الحجاز كانوا يجدون ترحيبا وتشجيعا من ملوك الفونج[17] ولهذا لقيت الطرق الصوفية منبتا خصبا هذا بالإضافة إلى ما أظهره المشايخ من صفات جعلت الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا في ساعات الضيق ومنها أن حسن ود حسونة كان يهتم بالفقراء ويذبح لكل خلوة من خلواته شاتين كل يوم وكان عدد خلواته أحدى عشرة أو ثلاثة عشرة[18] والشيخ عبودى الذي يجد عنده المسافر وابن البلد طعاما يوميا لا ينقطع[19] ويروى صاحب الطبقات عن الشيخ مسلمي الصغير الذي كان يأخذ من المقتدرين ويعطى الفقراء[20] ولهذا آلت فالناس حول الشيوخ بعد إن ذاقوا مرارة الانقسامات في بلاد النوبة إبان

---

(15) سر الختم عثمان: أولاد جابر، ص28.
(16) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص91.
(17) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص138.
(18) نفسه ص271.
(19) نفسه ص87.
(20) توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، مصر القاهرة، 1947م، ص99- 100.

العهد المسيحى بعد إن بلغ الانحطاط فيها إلى أقصى درجة[21] أضف إلى ذلك ما كانت تعانيه البلاد من الحروب الداخلية. والغازات المستمرة والعصبيات القبلية التى كانت تمزق البلاد فى ذلك العهد لذا شعر السودانيين إلى رغبة شديدة فى الحياة المستقرة فما إن وجدوا فى عصر الفونج هؤلاء المشايخ حتى لبوا النداء فى حماس شديد[22]والقارئ لكتاب ود ضيف الله يرى كيف نجحت الطرق الصوفية فى جمع شمل القبائل والأجناس من مختلف أنحاء البلاد فزاوية الشيخ عمار بن عبد الحفيظ محاطة بالخيل والجمال التى حملت الناس إليه من جهات بعيدة وعند الباب تجد نعال الفونج والعرب (دليل على تعدد الأجناس) وفى داخل الزاوية تجد الناس حلقات مجموعة تتحدث بتجارة الحجاز وأخرى بتجارة الغرب وثالثة بتجارة الصعيد[23] وكذلك الشيخ الزين صغيرون الذى ولد بدار الشايقيه وشدت إليه الرحال وضربت إليه آباط الإبل فالبلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته والشيخ أرباب العقائد الذى بلغ درجة من الصلاح والتصوف وبلغ عدد طلبته ألف طالب من دار الفونج إلى دار برنو[24] وهكذا قامت على أيدى هذه الصفوة من شيوخ ذلك العصر حركة الدعوة التى كانت شخصية الشيخ محورها بما يتسم به من زهد وتقوى وكرامات وقد استخدم الشيخ الداعية ككل الوسائل الشعبية لجذب الناس إليه وكانت البيعة للشيخ تتم على المستوى الشخص من اخذ الطريق وهى شهادة إن لا اله إلا الله محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأوراد عند نهاية كل صلاة ودعوة غيرة لأخذ الطريق وحضور حلقات الذكر ما أمكنة ذلك وقد أدى ذلك إلى تمكين عقيدة المتصوفة فى نفوس الناس بل أن كثيرا من الفقهاء صاروا من مؤيدى الطرق الصوفية بعد إن جمعوا بين علمى الظاهر والباطن ومن ثم فقد خضع انتشار الإسلام فى دولة الفونج خضوعا تاما للجوء الصوفى المنتعش فى العالم الاسلامى بعد إن كتب له النصر فى صراعه مع أهل السنة[25] وقد حسم هذا

---

[21] عبد المجيد عابدين، مرجع سبق ذكره، ص63.
[22] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص261.
[23] نفسه ص73.
[24] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص100.
[25] أبو العلا عفيفى: التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، ص23.

الخلاف الإمام أبو حامد الغزالي (توفى فى عام 516هـ – 1111م) الذى مزج التصوف بالشريعة جاعلا الأخيرة هى الأساس[26] وقد وجد هذا الصنيع قبولا عند جمهور المتصوفة ورضى عنه كثير من أهل السنة بيد إن من الفقهاء لم ترضهم شطحات بعض المتصوفة مثل اعتبار القوافل أعلى من الفرائض والنية أفضل من العمل والتأمل خير من العبادة ... الخ. ويروى كتاب الطبقات أمثلة لهذا النزاع بين القاضى دشين والصوفى محمد الهميم الذى يروى عنه انه فى ساعة من ساعات الجذب زاد فى نكاحه من النساء عن الحد الشرعة وهو أربع وجمع بين الأختين حيث تزوج بنتى أبى ندوده فى رفاعة وجمع بين بيتى بانقا الضرير (كلتوم وخادم الله) فانكر عليه ذلك القاضى دشين وقال له خمست وسدست وسبعت إما كفاك؟ حتى جمعت بين الأختين!! رد الهميم وما تريد بذلك؟ قال أريد سخ نكاحك لأنك خالفت الكتاب والسنة فقال له: الرسول إذن لى والشيخ إدريس يعلم وكان الشيخ إدريس حاضرا فقال لدشين اترك أمرة وخل ما بينه وبين ربه فقال دشين لا اترك إمرة وقد فسخت نكاحه فقال الشيخ هميم لدشين فسخ الله جلدك. ويقال إن القاضى دشين مرض حتى تفسخ جلده[27].

نلاحظ من هذه الحادثة إن الصوفى محمد الهميم انتصر على الفقيه دشين والهميم يمثل وجه نظر الصوفية إما القاضى دشين فيمثل الفقهاء ونلتمس من رد هميم على القاضى دشين لونا من الصراع بين الفقهاء المتمسكين بالكتاب والسنة وبين المتصوفة المعتمدين على وحى الباطن واللهجة العنيفة التى خاطب بها محمد الهميم قاضى العدالة تدل على استهتار المتصوفة بما ينهى عنه الشرع الاسلامى ربما نبع ذلك جهل هؤلاء بأمور دينهم هذا الجهل حكم فى إن تبقى الثقافة الدينية فى مستوى متدن رغم أنهم تسابقوا فى حفظ القرآن ولكن بطريقة لفظية لا يميزون بين الأصل والبدعة ولم يكن هذا الجهل قاصرا على بسطاء المتعلمين بل شاركهم فيه الفقهاء فقد ذكر التونسى عن والده عمر الذى قدم للسودان فى عهد دولة الفونج إن الفقيه مالك خطيب جامع دارفور سأله إن يكتب له خطبة يلقيها فى يوم العيد فكتبها وذيلها بالخاتمة المعروفة (تمت على

---

(26) نفسه، ص14.

(27) محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص212.

يد مؤلفها الفقير إلى المنان عمر بن سليمان التونسى) فما كان يوم العيد وبعد الصـــلاة اعتلى الخطيب المنبر وخطب وقرا تمت على يد مؤلفها عمر بن سليمان التونسي دون إن يدرك إن هذه الخاتمة خارجة عن الخطبة[28] وعلى هذا إن العلم كان يعنى التعبـــد والزهد أكثر من التفقه فى أمور الدين ومن بين شيوخ الصوفية الذى بالغ فـــى الزهـــد والانقطاع حمد النحلان الذى دخل خلوته وأغلق بابها تاركا فتحة صغيرة يتناول منهـــا طعامه الذى يتكون من قرض وسبع بلحات وقطعة خبز فى حجم عين الجمل وكانـــت تستمر فترات اعتكافه أكثر من ثلاثين شهرا يخرج بعدها يابس من اللحم والدم[29] وقد بلغ من تشدد احدهم انه لبس المرقع وجعل الخريم[30] طعامه لأجل علل ثلاثة (هضـــم النفس وقلة الحلال فى زمننا هذا وأتباع السلف الصالح) ومنهم من كان يلازم الخلـــوة قائما الليل صائما النهار ملازما أذكار الله كلها) ويتلو صلاة الرسول صلى الله عليـــه وسلم فى كل ليلة أربعين ألفا وبالنهار ثمانية عشر ألفا وكل ما تم مائه ينتقل بعدها[31] ومنهم من تشققت إطرافه من كثرة الوضوء فاشتهر بالخشن [32] وروى إن احدهم حج أربعا وعشرين حجة أثنى عشرة ذهابا وإيابا وأثنتى عشرة جوارا[33].

ولم يكن التقشف الزهد الطريق الوحيد للاتحاد بذات الله فقد كان بعض الشـــيوخ يعيشون حياة دنيوية متكاملة بل إن إغراقهم فى الملذات يفسر بأنه حالة جـــذب فمـــثلا الفقيه نور الرياش يصف شيخه صاحب الربابة فى حالات الجذب فيقول: أول ما تقوم عليه الحالة يحضر البنات العرايس والعرسان للرقص ويضرب الربابة كل ضربة لها نغمة يفيق منها المجنون وتطرب لها الحيوانات والجمادات[34].

---

[28] محمد عمر التونسى: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان تحقيق خليـــل محمـــد عســـاكر ومصطفى محمد مسعد، مصر، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965م، ص213.

[29] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره، ص162.

[30] هو ثمر شجر الحراز وتتخذه البهائم علفا وقد يأكله الأطفال (محمد النور بن ضيف الله: الطبقـــات تحقيق يوسف فضل، ص176 حاشية رقم14).

[31] نفسه، ص65.

[32] نفسه، ص99.

[33] نفسه، ص253.

[34] نفسه، ص95.

ب- الفقهاء والحكام:

سنذكر كلمة الفقهاء فى شئ من التعميم لتشمل الجميع متصوفة وغيرهم وتهدف محاولتنا هنا تسليط الضوء على علاقة الفقهاء بالحكام وبصورة عامة، كان الوئام غالبا بين الفقهاء والحكام فنجد نماذج من الفقهاء تقدم النصائح منهم داؤود بن محمد الذى زهد ولبس جلود الضان ويقول عنه ود ضيف الله: كان كالوزغ لزم الخلوة لم يخرج منها إلا بعد صلاة العشاء ثم لم يروه إلا مثلها[35] فى اليوم الثانى واعتقد فيه السلاطين وخصوصا محمد أبو لكيلك وقد كان يشاوره فى جميع أموره ويروى إن احد السلاطين لبس قميص ولى من الأولياء يوم خروجه للقتال لاعتقاده فى بركته إلا أن الاعتقاد فى البركة لم يكن الدافع للزهد والورع والانقطاع للخلوة هذه الصفات اعتقد أنها رفعت من مكانتهم عند العامة والخاصة فلا غزو إذن إذا منح الحكام الفقهاء الاقطاعات الواسعة المعفاة من الضرائب فهم سند الحكام والمدافعون عن النظام والدليل على ذلك إن هؤلاء الحكام كانوا يقطعون الأرض لهؤلاء الفقهاء ليس بدافع الثواب والبركة فحسب بل إن هذه الهبات كانت لها جوانب سياسية[36] وبنفس القدر تعكس واقعه خليل بن الرومى مع الملك بادى الأحمر أحد سلاطين الفونج مدى نفوذ الفقهاء واعتقاد الحكام والرعية فى مقدرتهم على فعل المعجزات ويقول ود ضيف الله: ... ومنها (اى من معجزاته) إن ملك الفونج لما خرجت عليه العساكر بجميعها من قرى سنار واليس وأحاطت به العساكر من كل جانب وقتلوا جميع من كانوا معه وما بقى إلا ثلاثين فرسا اختفى منهم فى حوش كمير بنت الملك اختى فذهبت كمير المذكورة إلى الشيخ خللي وقالت يا سيدى آخى فارقة ملكة وتخشى عليه من الهلاك من عبيدة فقال لها أخوك الظالم المفسد فقالت آتية إليك ويتوب على يدك من الظلم والفساد فقال آتيه إلى الملك وجاءت به مختفيا والبسته ثوب امرأة فلما حضر بين يدى الشيخ قال إنا تبت تنهانى عنه فقال له

---

[35] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره، ص213.

[36] محمد إبراهيم أبو سليم: الفونج والأرض ص35.

الفونج اخذوا عمامة الملك فهناك عامتى وضمنت لك ملك أبيك إلى إن تموت ولكن إذا خرجت للقتال احضرنى واحضر حاج عمارة فلما أصبح خرج على تلك الجيوش فـــى ثلاثين فارسا واحضر الشيخ والحاج عمارة كما أمرة الشيخ فهـزمهم ببركـة الشـيخ وقتلهم اشد قتله وبقى فى ملكه إلى إن مات والملك المذكور بـادى الأحمـر[37] هـذه الحادثة تعكس المدى الذى وصل إليه نفوذ الفقهاء من حيث اعتقاد الحكام فى مقدراتهم واحترامهم وسماعهم لنصائحهم على يد هذا الشيخ تقودنى هذه الحادثـة إلـى أسـرار الكنيسة عند المسيحيين هناك سر يسمى سر الاعتراف وهو إن المسيحى الارثوذكسى مهما كانت وظيفته لابد إن يعترف بذنوبه التى اقترفها إمام الشيخ (القس) حتى تكتمـل عباداته وبما إن المسيحية انتشرت فى بلاد النوبة حوالى ستة قرون ربما توارث الفونج هذه الطقوس التى وجدوها.

تعاون الفقهاء وملوك الفونج اتخذ عده مظاهر منها الشفاعه التى تعنـى التوسـط لدى أحد الملوك أو من ينوب عنهم لرفع غين أورد مظلمة وقعت على احد الرعايا من إتباع الشيخ ومن أصحاب الشفاعات الشيخ إدريس ود الأرباب الذى احترمـه الملـك بادى بن رباط ملك سنار واعتقد فيه ويقول صاحب الطبقات (إن الملك جمـع كبـار الفونج وقال لهم الشيخ إدريس شيخى وابوى دارى من العسل إلى البصل يسـمها لـه النصف فامتنع الشيخ قائلا هذه الدار دار النوبة وانتم غصبتموها إنا ما بقبلها الرسـول قال من سرق شبرا من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع ارضـين. وقـال لهـم اعطونى الحجز[38] فى كل شئ فأعطاه الملك كما طلب ثم إن الشيخ دخل سنار واحـد وسبعين مرة فى مصالح المسلمين. بالتوسط يوفى الشـيخ بمسـئولياته تجـاه إتباعـه المتضررين من السلطنة دون إن يدخل فى مواجهة عدائيه معها وتعكس هذه الروايـة اعتراف السلطة ونوابها بسلطة الفقهاء الروحية ويخشون منها والدليل على ذلك قـول

---

[37] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره 202-203.

[38] الحجز هو الوساطة وفض المنازعات والصلح بين المتشاجرين (محمد النـور بـن ضـيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص60 هامش 18).

ود ضيف الله (ومن رده ينكب سريعا)[39] لكننى أرجح أن يكون احترام الملوك ونوابهم للفقهاء ينبع من احترامهم وتقديسهم للإسلام لان الفقهاء يمثلون الدين هذا وقد عمل بعض هؤلاء الفقهاء بالعمل المعروف والنهى عن المنكر وتعاملوا معه كمبدا يجب ممارسته وتنفيذه على الجميع حكاما ومحكومين وقال صاحب الطبقات عن محمود ود دوليب (كان ورعا تقيا لا تأخذه فى الله لومه لايم غير مكترث بالملوك ومن دونهم) ويضيف إن الملك أونسه بن ناصر أرسل له قائلا (حوارك على ولد شاويش طعن جمال رفيقى محمد ولد مصطفى هل يقوم يجئ ؟ فجاءة قواد الملك فقال له ملك الفونج أرسلنى إليك فقال له (أنا بلا الله والرسول وكتبى هذه ما يعر احد ....[40] وحمد ودام مريوم الذى لا تأخذه فى الله لومه لايم مغلظا على الملوك ومن دونهم وكان يشترط على الواقع عليه من السلطنة إن يصلوا معه الأوقات الخمسة ومن لم يفعل ذلك يطرد[41] هذه جرأة ميزت شخصيات أولئك الفقهاء اعتد أنهم استندوا إلى الحديث الكريم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وهذا اضعف الإيمان) ومنهم من رفض مقابلة الحكام مثل شكر الله بن عثمان الذى رفض مقابلة الشيخ محمد السميع[42] حتى انتهى من درسه هؤلاء الفقهاء كانوا متشددين فى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يحابوا الملوك خوفا منهم ولهذا كانت لهم إمكانية الاحتجاج فى ممارسات الملوك التى يراها الفقيه غير مقبولة ويطالب بأنصاف الرعية خاصة وأنهم كانوا أصحاب دعوة مستجابة يتضح ذلك من سيرة حمد ود مريوم الذى دعا على الفونج وأولاد عجيب فهلكوا جميعهم بالجدرى. ومن هؤلاء من يرفض تقويم المساعدة للحكام مثل الفقيه خليل بن على الصاردى الذى يروى عنه صاحب الطبقات قائلا: إن الشيخ حمد السميع عندما قاتل الجعليين طلب

---

[39] انظر سيرة كل من حمد المجزوب، ص188، سيرة عبد الرحمن الدويحى ص285، وعبد الرحمن بن محمد بن مدنى ص285 فى المرجع السابق.

[40] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره، ص 348.

[41] نفسه 173-176.

[42] هو خامس ملوك العبدلاب (محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص239 هامش16).

شراء خليل فلم يجد وجعل أهل الخيل جمعوهن عنده فأرسل له حفيده قائلا الشيخ يسلم عليك ويقول ليك نحن محتاجين للخيل بالثمن دا الحين أهل الخيل العندك هلى يجيبوهن ونحن نعطيهن الثمن باليمين ونقبض منهم باليسار فقال لحفيدة قل له الخيـل تـراهن حاضرات إن لم تجى تأخذهن عكازى فيك والخيل تراهن واقفات بأم حجر إلى كجوك فذهب كضيوه إلى حمد واعلمه بما قال الشيخ خليل فقال الشيخ حمد لوزيرة مرقتنـى من دارى وديتنى لدعوة الشيخ خليل أنا برئ منه هل يموت بسمه[43] هذا الفقيه انتصر لأهلة عن طريق المعارضة لأوامر الحكام فأهل المنطقة جمعوا خيولهم تحت حراسته لأنها ستكون فى مكان أمين من تغول حمد السميع وبالفعل كان الفقيه خليل الصاروى عند حسن الظن حين رضر إعطاء الخيول أو بيعها نيابة عن أهلها لحمد السميع.

وأخيرا لم يكن لإسلام الفونج فى السودان مفهوما أخـر سـوى هـذه الصـوفية فالصوفية كانت تعنى الإسلام والدخول فى الإسلام يعنى اختيار طريقة مـن الطـرق ولهذا كان هناك وفاق حقيقى قائم بين الشريعة والتصوف ومن اجل ذلك دام الصـفاء بين الفقهاء والصوفية فى دولة الفونج واستمرت العلاقات حسنة بينهم دون إن يحـدث ما يعكرها إلا تلك الخلافات العارضة[44] ولم يرد فى كتاب الطبقات اسم لفقيه عارض التصوف ووقف فى وجهة سوى الشيخ عبد الماجد حمد الاغـبش المتـوفى 1122هـ-1710م فقد كان هذا الشيخ فمن جمع بين العلم والعمل واتبع الكتاب والسنة ولا تأخـذه فى الله لومه لائم وكان غيورا على أصحابة يمنعهم طريق التصوف قـائلا (طريقتـى الكتاب وحزب البحر)[45] ورغم ذلك فان بعض الفقهاء يرى إن معرفته الكلية لا تكتمل إلا بالتصوف مثل المسلمى الصغير الذى جمع فى بداية أمره بين الفقه والتصوف ثـم اختار التصوف بقوله للشيخ دفع الله العركى (علمى ما نفعنى حيث بدور مددكم)[46].

---

[43] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص203-204.
[44] حسن الفاتح قريب الله: التصوف فى السودان إلى نهاية عصر الفونج ص30.
[45] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره 129.
[46] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره83.

ج- الطرق الصوفية في سلطنة الفونج :

- الطريق القادرية:

اقترن دخول الطريقة القادرية أكثر الطرق الصوفية انتشارا في السودان باسم تاج الدين البهاري البغدادي الذي قدم للسودان في نحو عام 985هـ- 1577م من بغداد والطريقة القادرية تنسب أصلا إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني[47] ودخلت أفريقيا أواخر القرن الخامس عشر[48] وتاج الدين قدم عن طريق الحجاز اثر دعوة من داوود بن عبد الجليل التاجر السوداني وفي إثناء أقامته التي بلغت سبعة أعوام سلك عددا من المريدين كانوا من كبار الأسر التي لها مكانتها الاجتماعية منهم خليفته محمد الأمين (الهميم) ابن عبد الصادق جد الصادقاب[49] وبان النقا الضرير جد اليعتوباب[50] والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاب وفي تلك الفترة طلب تاج الدين من الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي وهو تلميذ عبد الرحمن بن جابر وهو ممن ولاهم الشيخ عجيب القضاء طلب منه إن يسلك في التصوف فرفض في بادى الأمر ولما رأى مكانة مريديه وكيف انقادت لهم العرب والفونج واظهروا الكرامات سافر إليه في الحجاز ولما وجدة توفى اخذ الطريقة على تلميذة[51] وعاد إلى السودان مرشدا في علمي الظاهر والباطن على الرغم من إن البهاري اختار خليفته الهميم عند مغادرته سنار وحيث الأتباع على طاعته إلا إن الطريقة القادرية تعددت مراكزها فبعد مغادرة البهاري بفترة وجيزة برزت ثلاثة مراكز بالقرب من سنار والعركيون نسبة إلى عبد الله العركي في أبو حراز[52] بجانب هذه المراكز التي أنشاها إتباع البهاري هناك

---

[47] عبد القادر الجيلاني محي الدين (470-561-1077-1166) الفقيه الحنفي الواعظ الصوفي مؤسس الطريقة القادرية ولد في جيلاني من بلاد فارس ونشا في بغداد يروى انه من ذرية الحسن بن على دعا الناس إلى طريقته وكثر اتباعه وانتشرت طريقته في كل إرجاء العالم الاسلامي (محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل ص56 حاشية رقم5)

[48] توماس ارنولد مرجع سبق ذكره ص277.

[49] منطقتهم إقليم السوكي بين واد مدني والقضارف.

[50] يقال إن تاج الدين قبل إن يغادر السودان قلد (بان النقا) هذا شعار الرئاسة عند الفونج وهو الطاقية والككر (عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان ص66).

[51] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص252-253.

[52] نفسه ص253.

مراكز أخرى للقادرية فمركز إدريس ود الأرباب بالعيلفون واحد من هــذه المراكـــز وثمة رواية منسوبة إلى الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن تذكر إن إدريس ود الأربـــاب هو أول إن أوقد نار الشيخ عبد القادر الجيلاني قبل أخذها بمدد من رسول الله (صـــلى الله عليه وسلم) أو من شيخ يدعى الكافي قدم عليه بالخطوة من المغرب[53] وعدم توحد القادرية وتعدد مراكزها في سلطنة سنار ربما عكس وجود الاختلافات ذات الجـــذور الدينية أو الدنيوية [54] ولكنني اعتقد إن شهرة مؤسس المركز تلعب دورا في التفـــاف الناس حول مسيد الشيخ الذى سرعان ما يصبح مركزا كبيرا ويتكاثر سكانه ولما كانت الصوفية تقوم على العلاقة الشخصية بين المريد وشيخ الطريقة الذى يذهب إليه الناس لأخذ بركته أو استشارته أو طلب المساعدة المادية أو المعنوية وبقدر تلبية الشيخ لهـــذه المطالب يكتسب شهرته[55] وعلى كل سيطرت القادرية على المســـرح معظـــم القبـــة السناريه وصار معظم السكان من مريديها في القرى والمدن وشـــغلت النـــاس ومـــا صاحب رجالها من كرامات جذب إليها الناس دون رجال العلم حتـــى بـــات مركـــز الصوفية أعلى من رجال العلم والدين بعد إن سيطرت على عقائد الناس وانحنى القـــه صاغرا إمام آدابها وأذكارها وأورادها وحل رجال الطرق الصوفية في قلوب النـــاس محل الإجلال والتقديس معظمهم إحياء وأقاموا الأضرحة للتعبد أمواتها فيما حل الفقهاء وأهل العلم في المرتبة الثانية واضطر أهل الفقه إلى الأخذ بعلوم الباطن إلـــى جانـــب علوم الظاهر ليسايروا تيار الصوفية[56] هذا وقد ارجع بعض الدارسين شعبية القادرية إلى أنها لا تشترط التبحر في العلم لسلوك الطريق[57] أو لأنها تتميز بالتسامح وعـــدم التشدد[58] وكلا الرأيين يقود إلى نتيجة واحدة هي إن طريقة القادريـــة تلاءمـــت مـــع مجتمع سنار الذى كان جديد عهد بالإسلام.

---

[53] محمد النور بن ضيف الله: مرجع سبق ذكره ص41.

[54] عبد السلام سيد أحمد: الفقهاء والسلطنة في سنار، ص68.

[55] *Yousf Badri: Asurvey Of Islamic Learning In The Fung State, PP140.*

[56] حليم اليارنجي: السودان والحركة الأدبية، ج1، ص63.

[57] مثلا أوائل خلفاء القادرية من الصادقات لا يعرفون الارءه والكتابة مثل محمد الهميم الـــذى قـــرأ حتى الزلزلة فقط. انظر حسن الفاتح ريب الله التصوف في السودان إلى نهاية عصـــر الفـــونج، ص71.

[58] يروى عن الشيخ عبد القادر الجيلاني انه قال وددت أو إن أبواب الجحيم قد أغلقت وأبواب النعيم فتحت (محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل ص56 هامش5).

وجوهر هذه العقيدة يقوم على معرفة الإنسان بالله عن طريق العمل (المجاهـدة) وأداة هذه المعرفة هي القلب وليس العقل وبالتالى يخضع إلى الإلهام الالهى الذى يمنع المتصوف المقدرة على القيام بمنجزات وبدون مناقشة الفلسفة الصوفية يجب على التابع الأيمان بالشيخ المتصوف وبكرامته ويثق فيه ثقة مطلقة ويطيعه فى جميع أوامره حتى يسلك طريق التصوف وهكذا يصبح الشيخ واسطة بين الله والناس[59] وليس هناك فترة زمنية محددة لسلوك الطريق فالبعض يصل بمجرد التحاقه بالشيخ بينما آخـرون يستمرون سنين فى خدمة الشيخ دون الحصول على إجازة[60] وحين يشتهر هذا الشيخ بكرامته يتهافت عليه الناس طمعا فى بركته فيصبح مسيده حجة يأتيها الناس من كل فج وكاعتراف بقدرة يقوم سلاطين الفونج بإقطاعه أرضا خالية من الضرائب أو منحة حق جباية الذكاه فى المناطق المجاورة لمركزة[61] وهكذا أصبح مشايخ الصوفية ملاك الأرض فى عهد الفونج وقد مكنهم ذلك من القيام بواجبات الضيافة لزوارهم تلك التى رفعت من شأنهم فى نظر الناس وأصبحت مراكزهم مأوى للمحتاجين وبالتالى يـزداد عدد الأتباع والتنظيم الصوفى يمثل هرم على رأسه مؤسسواً الطريقة أو خليفته وفـى يده السلطة العليا لإدارة الطريقة ثم يأتى بعده خلفاؤه ويوكل لهم إدارة شئون الطريقـة بجانب عدد من الحيران القدامى ثم يأتى القطاع الأكبر من الحيران الذين مازالوا فـى بداية الطريق[62] ثم القطاع الواسع من جماهير الشيخ اى إتباعـه ومريـدة البعيـدين وهؤلاء يكتفون بزيادة الشيخ وحضور الحلقات التى تقام فى مناطقهم ويطلـق علـى هؤلاء لقب أولاد الطريقة[63].

[59] عبد السلام سيد أحمد: الفقهاء والسلطنة فى سنار ص71.
[60] نفسه ص80.
[61] محمد إبراهيم أبو سليم: تاريخ الخرطوم، لبنان، بيروت، 1971م، ص11.
[62] Trimingham, J.S.Islam In The Sudan London P 204-205
[63] نفسه، نفس الصفحة.

- الطــريقة الشـــاذلية:

نسبت الطريقة الشاذلية إلى أبى الحسن الشاذلى (119هـ - 1258م) الذى ولد فى شاذلية بتونس وانتشرت طريقته فى مراكش فى القرن الخامس عشر على يد عبـــد الله محمد بن سليمان الجزولى مؤلف (دلائل الخيرات) وذكر إن أحدى بناته تزوجت مـــن الشريف حمد أبى دنانه الذى نزح إلى السودان ومعه ابنه السيد الحسن وسكنا البقعـــة المعروفة بـــ (المحمية) سنة 850هـ - 1445م اى قبل عصر الفونج وأن تأكـــد ذلـــك تكون الشاذلية اسبق الطرق دخولا إلى السودان[64] انتشرت تعاليم الشاذلية فى الفـــونج على يد خوجلى بن عبد الرحمن المتوفى فى (1156هـ- 1743م) وكـــان أول أمـــرة قادريا ثم التحق بالشاذلية فى أقوالهم وأفعالهم وارتدى الثياب الفـــاخرة وعلـــى رأســـه طربوش احمر ويفعل ذلك إقتداء بالشيخ أبو الحسن الشاذلى[65] وتعد طريقته إلى حد ما شاذلية متأثرة بالقادرية. ومن بعـــده اشـــتهر الشـــيخ حمـــد بـــن محمـــد المجـــذوب (1098-1181هـ - 1693-1776م) إذ أسس بعد عودته من مكة فرعا للشاذلية فـــى الدامر عرف بالمجاذيب[66].

- الطريقة التجانيه:

نسبت الطريقة التجانيه إلى احمد بن محمد بن المختـــار التجـــانى المولـــود فـــى عام 1150هـ - 1737م فى مدينة فأس بالمغرب[67] ودخلت السودان واتخذت أســـاليب القادرية فى الدعوة وساعدها تعدد مدارسها فى نشر عقيدتها على نطاق واسع وامتازت التجانيه بين طرق السودان فى أنها لم تتورع فى اللجوء إلى السيف فى نشر خطتهـــا الدينية[68].

---

(64) محمد النور بن ضيف الله: الطبقات، تحقيق يوسف فضل، المقدمة ص3.
(65) نفسه، ص192-193.
(66) Trimingham Opcit. P. 196-197.
(67) عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة ص541.
(68) حليم اليازجى: السودان والحركة الأدبية ص66-67.

- الطـــريقة الميرغنيـــه:

دخلت السودان فى أخر سلطنة الفونج على يد السيد محمــد عثمـــان المرغنـــى فاشتهرت فى التاكا بين الحلنقه والبنى عامر وفـــى دنقـــلا بـــين البرابـــرة والشـــايقيه والكبابيش والبشاريين إما مؤسسها قد ولد ودفن بمكة[69].

ومن الطرق انفه الذكر تفرعت الطرق الأخرى مثل الطريقة الإسماعيلية وهـــى فرع من الطريقة الميرغنيه وانتشرت فى كردفان على يد الشـــيخ إســـماعيل الـــولى ولا يختلف عن الطريقة الأصلية إلى فى اختصار بعض الأذكار وتطويل بعضـــها[70] والطريقة الاحمدية والطريقة الرفاعيه وهما حـــديثتان فـــى الســـودان وممـــا ســـهل انسياب حركة الطرق الصوفية فى دولة الفونج عدم وجود ســـلطنة مركزيـــة تمـــنح ترخيص لمن يريد إنشاء طريقة بل خضع الأمر إلى رغبة الشخص المؤسس للطريقة بالصورة التى يراها.

[69] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ج1، ص164.
[70] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ج1، 164.

الفصل السادس

العلاقات التجارية

أ- المراكز التجارية

ب- الأسواق

ج- وسائل المعاملات التجارية (النقود)

د- الطرق

هـ- الضرائب والخراج

الفصــــل الســـادس
العـــلاقات التجــــارية

تميزت بلاد السودان بشهرة تجارية واسعة منذ أيام ممالكها القديمة بالدرجة التـــى جعلها قبله للوفود التجارية المختلفة من أوروبا والهند والجزيرة العربية فضـــلا عـــن مصر التى ربطتها بها صلات تجارية أزلية وفى عهد الفونج امتازت ســـنار بحركـــة تجارية لعبت دورا كبيرا فى اقتصاديات السلطنة وكان التبادل التجارى فيهـــا يشـــمل ثلاث مستويات:

1- تبادل محلي على نطاق القرى والمجموعات السكانية ويكـــون بـــين المـــزارعين والحرفيين والمجموعات الرعوية المتاخمة لمناطق الاستقرار[1].

2- تبادل اقليمى وهذا مجاله السوق ونشا نتيجة الإحســـاس بضـــرورة التبـــادل بـــين المنتجين من مختلف مجموعاتهم (رعاة – مزارعين – حرفيين) ولهـــذا اختلفـــت الأسواق من منطقة لأخرى فأسواق الشمال تقام فى مناطق معينة فى إطراف القرى وفى أيام معروفة وتستمر طوال العام إما القبائل الرعوية فأسواقها قريبة من دورها حسب تواجد القبائل لأنها دائمة الحل والترحال[2] إما فى الجنوب فقد كانت الأسواق تقام فى فصل الجفاف[3]. ومثل كل الحقوق فى سنار فقد كان حق إقامـــة الســـوق يستمد من السلطان والذى يفوضه لنوابه المحليين باسمة ولم يكن فى مقدور العامة ممارسة التجارة إلا تحت ضوابط تحددها السلطنة ومن هذه الضوابط إلا يحق للفرد الانتقال من منطقة لأخرى بغرض التجارة إلا بعد الحصول على إذن خـــاص مـــع

---

(1) spauldig j. l: the heroic age of sinnar 1985 p. 107.

(2) سيد عبد السلام احمد: الفقهاء والسلطنة فى سنار، ص37.

(3) Spaulding . j. l : op. cit. p. 107.

الحماية التى يكفلها إما صاحب الدار أو شخص معروف لدية أو عضو فى حاشية الملك أو المانجل أو السلطان حسب موضع السوق ونظام الحماية هذا عرف باسم (الادارى)[4] وهو ينظم أيضا الشروط الواجب إتباعها عند دخول السوق[5]. واعتقد إن هذا النظام يطبق على التجار الأجانب أو الوافدين من مناطق أخرى. نستنتج من ذلك إن دخول السوق فى عهد دولة الفونج كان امتيازا وليس حقا فد كانت السلطنة تحصل على رسوم مقابل ذلك وبصفة عامة فرضت السلطنة ضرائب فى شكل مكوس تجارية حكمت انتقال البضائع داخل أسواق السلطنة[6].

3- تبادل قومى أو التجارة السلطانية وهذه يحتكرها السلطان الذى يقوم بإرسال قوافله المحملة ببضائع الجنوب من رقيق وذهب وعاج وريش النعام والصمغ الجلود والتمر هندى إلى أسواق مصر والحجاز واليمن وإثيوبيا ويستورد بالمقابل معدات حربية أو متطلبات القصر من بضائع استهلاكية وخلافة مثل المنسوجات القطنية والحريرية والعطور والتوابل[7] احتكار التجارة الخارجية لسلاطين سنار مكنهم من تدعيم سلطتهم وإحكام سيطرتهم لأنهم تمكنوا من جلب آلات حربية من الخارج وهذا يعنى مزيد من التفوق لجيش السلطان مما يدعم سيطرته على كافه إلا السيم ويمكنه من الحصول على سلع وأشياء غير متاحة لغيرة مثل الصابون وخشب الصندل والقرنفل والمسك والحرير وارد القسطنطينية والحلى الزجاجية الأوربية وهكذا فان خيول السلطان هى أجود أنواع الخيول وأسلحته أكثر تطورا وملابسة أجود وأطول إما طعامه فهو أغنى الأطعمة وأوفرها وحافل بشتى الأصناف المجلوبة من الخارج[8].

---

[4] Spaulding. J.l: op. cit. p. 107.

[5] مثل ترك السلاح قبل الدخول للسوق.

[6] هناك محطات تجبى منها المكوس مثل: تشليحه، دنقلا، قرى، اربجى (الشاطر بصيلى، معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص71).

[7] عبد السلام سيد احمد، مرجع سبق ذكره، ص38.

[8] نفسه، ص39.

أ- المراكز التجارية:

- سنار:

احتلت سنار موقعا طيبا منذ إن قامت على النيل الأزرق وكان الاشتغال بالتجارة هو الغالب على نشاطها الاقتصادى[9] وساعدها فى ذلك موقعها الجغرافى عند ملتقى القوافل القادمة من الحبشة وسواكن ومصر وكردفان وأصبحت بذلك حلقة وصل بين كثير من مناطق السودان وزاد من هذا الأهمية وقوعها فى إقليم له شهرته الواسعة فى المجال التجارى حيث كان التجار يأتونها بالبضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الأحمر[10] وكذلك تفد إليها السلع والمصنوعات التى تنتجها المشيخات وأهمها الدمور الذى اشتهرت به ويذكر بوركهارد إن من أهم السلع التى تحملها قوافل سنار هو الدمور الذى يستعمل على طول ضفاف النيل حتى دنقلا وكردفان ودارفور والحبشة وفى جميع بلاد النوبة وهى سلعة عليها إقبال شديد ويمكن الحصول بها على جميع السلع التجارية[11] كما كان لذهب سنار التى يأتيها من فازوغلى وبنى شنقول أهمية كبرى فى تجارتها حيث يعتبر السلعة الثانية بالنسبة للتجارة حتى إن روبينى المغامر اليهودى الذى مكث نحو عشرة اشهر فى ديار عمارة دونقس لاحظ كثرة الذهب فى سنار وكيف إن الملكة ووصيفاتها وعامة الإماء كن يتزين بالحلى الذهبية وبها يسترن عوراتهن[12] وهذا الذهب يشتريه تجار سواكن ويحملونه إلى جدة. اعتقد إن الذهب كان يوجد بكثرة فى تلك الأماكن فعندما حاصر الفونج جبلى سقدى ومويه فى 961هـ - 1554م اسروا زعيميهما وقادوهما فى سلاسل من الذهب إلى سنار[13] بالإضافة لهذه السلع كان تجار سنار يحملون الرقيق وهو إما

---

[9] عبد العزيز كامل: وجه السودان دراسة حضارية مقارنة، مجلة الدراسات السودانية، السودان، الخرطوم، العدد الأول، المجلد الثانى، مارس، 1970م، ص14.
[10] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص415.
[11] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص73.
[12] يوسف فضل: مرجع سبق ذكره، ص44.
[13] نفسه، ص63.

من الأحباش أو النوبة والنساء الحبشيات يفضلن عن النساء السود من اجل جمالهن إما الرقيق الذكور فالنوبة أفضل لأنهم أكثر قوة واقل إصابة بالمرض[14] .

اشتهرت سنار كذلك بتجارة العاج والأبنوس فالأولى تجد إقبالا شديدا في مصر والأخرى تصدر إلى جدة[15] وكذلك تجارة الجلود التي يصنع منها سروج الإبل وتصدر إلى مصر بأسعار مرتفعة ويصنع منها الأكياس الجلدية التي تباع في اليمن ومكة وتستعمل في حمل المؤن إثناء السفر. ويضيف بوركهارد إن العسل يستورد بكميات كبيرة من سنار والذرة والإبل كانتا من أهم السلع التي ترد من سنار[16] وكذلك ريش النعام الذي كان يرسل من سنار إلى القاهرة ويباع هناك بأسعار مرتفعة.

بلغ تجار سنار من الثراء درجة كبيرة حيث عقد بروس مقارنة بينهم وبين التجار المصريين فذكر إنهم أكثر ثراء منهم[17].

- فازوغلي :

تقع إلى الجنوب من سنار بين النيل الأزرق والنيل الأبيض وهي بلاد جبلية قيل إن بها 99 جبلا[18] منها جبال بني شنقول. كانت مركزا تجاريا هاما وقد أمدنا الرحالة بروس الذي يعد من ابرز الشخصيات الذين زاروا السودان في القرن الثامن عشر بمعلومات عن السلطنة وقت زيادته لها في 1772م حيث قال: تعتبر فازوغلي المركز الرئيسي في إقليم سنار فمنها يأتي الذهب وأهالي تلك المنطقة يؤكدون ان جميع الذهب يوجد في التربة الحمراء بوفرة خاصة في المجاري التي تتكون عقب سقوط الأمطار ويضيف قائلا إن الذهب يوجد كذلك بجوار النهر ولكن بكميات قليلة ويغسل لفصله من التراب ولا يوجد في مناجم ويستخدم العبيد في استخراجه[19] كما اشتهرت فيها كذلك سركي كمركز للتجارة إذ كانت ملتقى طرق القوافل التجارية[20].

---

(14) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ص74.
(15) نفسه: نفس الصفحة.
(16) نفسه: ص75.
(17) james bruce. Vol.7P.89.
(18) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص115.
(19) jams bruce. Vol. 7, p.79.
(20) مكي شبيكه: دولة الفونج الإسلامية، ص61.

- أم هجر:

هى بلدة أم حجار حاليا وقد احتلت موقعا جعل منها مركزا تجاريا حيث سيطرت على طرق القوافل بين داخل البلاد وإثيوبيا ومن ثم ربطت البلاد بموانئ نهر ستيت وبهذا جعلته منفذا لها[21].

- بربر:

تعتبر أول مركز تجارى على الطريق المؤدى إلى سنار وهى محط القوافل الآتية من الشمال من مصر ومن الجنوب من سنار ومن الغرب من دارفور وكردفان ومن الشرق من الحبشة والتاكا وسواكن[22] وبها نقطة جمارك كان يطلق عليها عند زيادة بروس اسم قوز الفونج وسماها بوركهارد النخيره ومنها تفرض الضرائب على البضائع الداخلة أو المارة على إقليمها[23] وأهل بربر عامة يميلون إلى العمل بالتجارة وحتى التجار المصريين يفضلون العمل فى بربر عن شندى وسنار وذلك لسرعة أنجاز أعمالهم فى بربر والعودة إلى بلادهم مع قوافل الإبل والعبيد عن طريق بربر دارو عبر الصحراء[24]. والطريق يسمح للرقيق الصغار والإماء بركوب الإبل بينما الآخرون يقومون بالرحلة سيرا على الأقدام وإذا حدث إن جملاً تعطل فى الطريق فان صاحبة يحمل العبيد بما كان يحمله الجمل من إثقال[25] وعند وصولهم إلى مصر باعون إما فى أسنا أو أسيوط أو القاهرة والخان الخاص بتجار الرقيق يسمى وكالة الجلابة وهو بالقرب من الجامع الأزهر[26].

---

[21] الشاطر بصيلى: مرجع سبق ذكره ، ص24.
[22] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره ، ص105.
[23] محمد النور بن ضيف الله: الطبقات: تحقيق يوسف فضل ، ص42. حاشية رقم2.
[24] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ، ص49.
[25] نفسه ، ص83.
[26] نفسه ، ص81.

- الدامــر :

هى مدينة تجارية يقصدها الناس من جهات مختلفة[27] وتقع على الطريــق بــين بربر وشندى وكانت محط القوافل التجارية وقد ساعدها فى هذا حماية فقهائهــا لهــذه القوافل وقد وصف بوركهارد مكانة هؤلاء الفقهاء قائلا: إن جميع السكان المجــاورين لبربر يحترمون الفقهاء حتى البشارية[28] يظهرون للفقهاء كل احتــرام لدرجــة أنهــم لا يجراون على الاعتداء على أهل الدامر عند سفرهم إلى سواكن.

يصف بوركهاردت الطريق بين بربر وشندى بأنه محفوف بالمخاطر لكن مرافقة أحد فقهاء الدامر كافية لحماية المسافرين والقوافل حتى القوافل القادمة مــن الجنــوب تقف عند أطرا شندى حتى يرافقها فقيه من الدامر[29] إذ إن كثيرا من هؤلاء الفقهــاء كانوا تجارا وقد أشار كاتب الطبقات إلى احد عشر فقيها كان لهم نشاطا تجاريا. واعتقد إن احترام البشاريه هذه القبيلة التى اشتهرت بنزعتها العدوانية لهؤلاء الفقهاء التى ربما تمنع عنهم المطر أو تجلب المرض والموت لقطعانهم. ويوقل ضرار عــن البشــارين أنهم أهم من يضمن الطريق التجارى فى صحراء عيذاب حتى قوص وأسوان وبقيــة الديار المصرية التى فى الصعيد[30].

- شــندى :

تعتبر شندى من أهم مراكز التجارة فى السودان فهى تلى سنار من حيث أهميــة مكانتها التجارية ولعب موقعها الوسط دورا رائدا مما جعلها تتحكم فى المنطقة الواقعة بين نهر عطبره والنيل الأزرق والنيل[31] وكانت ملتقى الطرق التجارية الوافــدة مــن

---

[27] شوقى عطا الله الجمل: مرجع سبق ذكره، ص305

[28] هى قبيلة بدوية تسكن ضفاف نهر عطبره على طريق سواكن شندى كانوا يعملون فــى التجــارة بالإضافة إلى الضرائب التى كان يفرضها زعيمهم على القوافل قلما تخلو من المنازعــات وهــم دائما مسلمون لا تردعهم القوانين (نسيم مقار، مرجع سبق ذكره، ص89).

[29] نفسه: ص 58.

[30] ضرار صالح ضرار، هجرة القبائل، ص 386.

[31] آلان مورهيد: مرجع سبق ذكره، ص217- 218.

مصر وسواكن وسنار وسواكن ومن ثم أصبحت بمثابة مخزن للسلع والمنتجات الآتية من دنقلا وبربر وسنار وكردفان ودارفور وسواكن ومصر والحبشة ومناطق شبة الجزيرة العربية. ولهذا أصبحت شندى المدينة التجارية التى يلتقى فيها كل هؤلاء التجار ويذكر بوركهاردت إن أكثر طبقات المجتمع فى شندى احتراما طبقة التجار حيث يوجد بالإضافة للتجار السودانيين عددا من التجار الأجانب مقيمين فيها[32] ويعمل الدناقلة سماسرة فى هذه التجارة.

من أهم السلع التى تصدر من شندى هى التبغ إلى جده واليمن والتمر هندى[33] والسمسم الذى يستخدم فى مصر كعلاج لأمراض العيون ومن السلع الأساسية التى تستورد من مصر هى السمبل والمحلب ويستعملان كعطر ودواء وعليهما إقبال شديد وكذلك السكر لأنه بالإضافة استعماله فى المأكولات يقدم كهدايا للشخصيات[34] الكبيرة وكذلك يرد من مصر الصابون المصنوع فى غزة ويافا وحبرون وأورشليم ويجد هذا الصابون إقبال شديد فى شندى ومن الصناعات المصرية التى تغذى سوق شندى آنذاك نوع من القماش يسمى (تاكات)[35] يعتبر من اكر السلع التجارية تداولا ويمكن إن يستعمل فى كل مكان فى التعامل فى حالة عدم وجود دولارات واعتقد انه كان نوع من القماش القطنى يشبه الدموريه التى كانت من السلع الأساسية فاستعملت بدل العملة ود لاحظ بوركهاردت في زيادته لشندى إن النساء والأطفال ينسجون القطن[36] وعامة الناس يلفون أنفسهم بثوب من الكتان يرتدونه بطرق مختلفة[37] من السلع التى وجدت سوقا رائجا فى شندى الخرز خاصة المصنوع من الخشب بواسطة الخراطين

---

[32] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص66.

[33] نبات ينمو فى الشمال الغربى من دارفور يطلق عليه اسم عرديب وستعمل كمشروب بعد إذابته فى الماء.

[34] نسيم مقر: مرجع سبق ذكره، 69.

[35] قماش خشن ازرق اللون يستخدمه النساء البدويات كغطاء على ملابسهن (نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص70).

[36] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص65.

[37] ونكلوز: قبائل من السودان الأوسط والغرب ص79.

المصريين إما الخرز الزجاجي الذى يرد من الهند فيجد إقبال شديد فى دارفور وكردفان حيث يستبدل بالعبيد وألف حبه من الخرز يمكن بها شراء ست إناث من العبيد[38] وهناك أيضا مصنوعات أوربية ترد إلى شندى عن طريق مصر إلى جانب السلع المصرية فيرد الورق من جنوه والقصدير والنحاس الإصفر والأمواس والسيوف من ألمانيا وكذلك الأجراس التى يزين بها اهالى سنار ودارفور سنام ولجام الإبل[39].

ارتبطت شندى مع كردفان بعلاقات تجارية واسعة ومن أهم السلع التى ترد من كردفان كانت العبيد وتعتبر الوارد الرئيسى بالإضافة إلى الصمغ العربى والتمر هندى وريش النعام وأنياب الفيل وقرون الخرتيت ويعود تجار كردفان محملين بالسنبل والمحلب والخرز والتوابل والكتان المصرى والأقمشة الحريرية وارد الحجاز. التى يلبسها الزعماء كعلامة مميزة لهم والجدير بالذكر إن الفضة لا قيمة لها فى هذه البلدان[40]. ارتبطت شندى بسواكن التى كانت على مر العصور المنفذ الرئيسى لتجارة السودان مع بلاد العرب وأقطار جنوب شرق آسيا مثل الهند وقد اشتهر تجار سواكن من الحداربه ويقول عنهم، أنهم عرب أحرار وأكثر ثروة وعددا من بقية التجار فى شندى وعلاقاتهم بالملك طيبة فهو يعاملهم بأدب وهم يقدمون له الهدايا[41]. وعن السلع والبضائع التى كانوا يأتون بها إلى شندى يقول بوركهارد: تجار سواكن يمدون شندى بالبضائع الهندية والقرنفل والجنزبيل وخشب الصندل وكذلك الضفرة[42] وقوافلهم تجد ترحيبا من اهالى كردفان وسنار وهم منافسين للتجارة المصرين وعند عودتهم يأخذون الذهب والعبيد.

[38] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ص71.
[39] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ص71.
[40] ونكولز: الشايقية، ص78.
[41] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ص79.
[42] صدف حيوان بحرى يعيش فى البحر الأحمر يستخدم معطر ياتى برائحة ذكية.

ارتبطت شندى بعلاقات تجارية مع دنقلا زادت بعد استقرار المماليك فيها وحوجتهم إلى السلع المصرية عن طريق شندى بالإضافة إلى الرقيق من النساء اللاتى عملن فى خدمة المنازل فى دنقلا وجدن إقبالا من تجار الرقيق.

ويقدر بوركهاردت عدد هؤلاء الرقي الذين يباعون فى سوق شندى سنويا بحوالى خمسة آلاف عبد والجزء الأكبر منهم عمره دون الخامسة عشر وسعر العبد فى هذا العمر ستة عشر دولار والأنثى من عشرين إلى خمسة وعشرين دولارا أسبانيا[43].

– سواكن:

هى من أهم مراكز السودان التجارية والميناء الرئيسى للسلطنة وهى عبارة عن جزيرة محيطيا ميل ونصف تقع على ساحل البحر الأحمر وتربط السودان بالجزيرة العربية والهند ومصر وقد ارتبطت سواكن بمشيخات السلطنة بعده طرق حيث كانت القوافل تأتيها من شتى المناطق حتى ازدهرت بمعسكرات هؤلاء التجار خاصة القادمين اليها من الهند ومصر والحجاز وألمانيا وايطاليا وفرنسا[44] ويصف بوركهاردت النشاط التجارى لسكان سواكن بقوله (ليس لدى سكان سواكن حرفة غير التجارة إما بحرا أو مع السودان وبالنسبة للسلع التى يصدرونها يقول: أنه إلى جانب السلع التجارية من شندى وسنار وهى الرقيق والذهب والتبغ وريش النعام والذرة يمدون الحجاز بالقرب والحقائب الجلدية وجلود الحيوانات والحصر والمصنوعة من سعف الدوم[45] ويضيف ويحمل تجار سواكن الخيل إلى اليمن والحصان الذى يساوى خمسة عشر دولارا فى شندى يباع فى الحديدة بمائه وخمسين دولارا.

إما عن السلع التى كان تجار سواكن يشترونها من جدة فيقول إن تجار سواكن يشترون جميع البضائع الهندية والملابس وأدوات الزينة للنساء والسكر والبن والتمر والحديد[46].

---

[43] نسيم مقار، مرجع سبق ذكره، ص80.
[44] ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل، 649.
[45] نسيم مقار، مرجع سبق ذكره، ص 106.
[46] نفسه: نفس الصفحة.

وفى 722هـ – 1317م قام صاحب سواكن بالالتزام بدفع ضريبة للسلطان المملوكي قيمتها 80 رأسا من الرقيق و 300 من الإبل 300 قنطار من العاج وهذه البضائع الثلاثة توضح بان سواكن صارت منفذا لبضائع السودان[47].

– قـوز رجـب :

هى من المراكز التجارية فى إقليم عطبره تقف عندها القوافل التجارية القادمة من شندى وسنار فى طريقها إلى التاكا حيث كان يعقد فيها سوقا تعرض فيه بعض تلك القوافل ما تحمله من سلع وبضائع مما جعل سكانها يعتمدون على التجارة اعتمادا كليا وخاصة أنهم يمتلكون الماشية ولم يكن هذا يشغلهم عن نشاطهم التجارى وقد أمدنا بوركهاردت بمعلومات هامة عن قوز رجب فيقول أنها تقع على الضفة المقابلة لنهر عطبره على سهل رملي وهى تتمتع بموقع جغرافي ويمارس سكانها التجارة مع سنار وشندى والدامر وسواكن ومصوع وبربر[48] وسكانها خليط من العرب والبشاريه والهدندوة والشكرية الذين استقروا هنا من اجل التجارة [49] ويصف بوركهاردت أهمية طريق قوز رجب التجارى بالنسبة لبعض قوافل سواكن التى تفضله عن الطرق الأخرى قائلا: إن القوافل القادمة من سواكن إلى سنار والتي لا ترغب فى المرور بعطبره تفاديا من الضرائب وشندى لما تتطلبه الإقامة من نفقات فهى تأخذ طريقها إلى قوز رجب ومنه رأسا إلى سنار[50].

– التاكـا :

هى ملتقى للقوافل التجارية بين سواكن على البحر الأحمر وشندى وسنار حيث تمر بها القوافل من بلاد النوبة وسنار دارفور وكردفان متجهة إلى سواكن. نالت شهرة

---

(47) yosuf fadl hassan, opcit p.85.

(48) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص90.

(49) محمد صالح ضرار: تاريخ شرق السودان ممالك البجه قبائلها وتاريخها ج2، ص547.

(50) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.

كبيرة فى البلاد السودانية وخارجها فى شبه الجزيرة العربية بما كانت تمد بـه هـذه البلاد من محصول الذرة الوفير الذى اشتهرت بإنتاجها. ويذكر بوركهـاردت إن ذرة التاكا لعب دورا كبيرا فى التجارة مع سواكن التى كانت يصدر لها بكميات كبيرة وبلغ سعرها فى سواكن أربعة إضعاف سعرها فى التاكا كانت السفن دائما محملة به ويمكن إن ترسل فى اى وقت إلى جدة[51].

بالإضافة إلى الذرة اشتهرت بثروتها الحيوانية خاصة الأبقار التى كانت تسـتعمل كوسيلة للمبادلة ووصل سعر البقرة السمينة أربعة قطع من الدمور أو ستة وتسعين مدا من الذرة[52].

ويحدثنا بوركهاردت كذلك عن عامل هام ربما أسهم فى تنشيط التجارة بين التاكا وسواكن قائلا: انه لا تدفع ضرائب مباشرة فى التاكا كما إن أهل التاكـا لا يـدفعون ضرائب فى سواكن وكل ما يحدث هو إن الرئيس يكرم التجار بتقـديم الـذبائح وهـم بدورهم يقدمون له هدية من الدمور[53] ويبدو إن ذلك ساعد كثيـرا فـى اسـتمرارية التجارة وشجع الهدندوة التى هى أقوى القبائل التى تقطن إقليم التاكا على مواصلتها مع سواكن. ومن السلع التى تصدر من التاكا الصمغ العربى الذى يباع لتجار جده ومنهـا إلى مصر ويذكر بوركهارد إن السلعة الرئيسية التى يبيعهـا التجـار الأجانـب هـى التبغ من إنتاج سنار وفارس واليمن وأهل التاكا يفضلون التبغ اليمنى لأنه أكثـر قـوة من السنارى[54].

ب- الأسـواق:

تعتبر الدعامة التى بنى عليها الاقتصاد فى السلطنة ولا تخلو مشيخه من وجودها وذكر كاتب الشونة السوق فى مخطوطته باسم الأثر بينما أوضح الشاطر بصـيلى أن

---

[51] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، 92-93.
[52] نفسه، ص92.
[53] نفسه، ص93.
[54] نفسه، ص96.

كلمة الفاشر تعنى الساحة التى ينعقد فيها السوق[55] إما الأسواق الداخلية فى السلطنة فقد كانت أثرا ظاهرا إذ برزت فى العديد من المدن وكذلك الأسواق الموسمية التى كانت تتردد عليها المجموعات التجارية المختلفة حتى أصبحت أسواقا كبرى بسبب كثافة الحركة التجارية ونموها الواسع ولكل مشيخه سوقا تجارية تفتح ى يوم معين من الأسبوع يجتمع إليها التجار والمنتسبون لبيع ما عندهم من السلع والمواشى والحبوب فمدن مثل الأبيض وسواكن وقرى واربجى وسنار وأبو حمد وبربر والدامر وشندى كلها كانت أسواقا ومحطات للقوافل التجارية[56] وقد أتاح تنقل هذه الأسواق الدورى بين البلدان التى ضمت كل خيرات المشيخات مما أدى إلى تميز هذه الأسواق بوجود الأصناف المختلفة من لحوم البقر والإبل والأغنام كما يوجد اللبن ومشتقاته كالسمن والحليب الرائب والزبده ومن البقول الذرة والحمص والفول الترمس ومن أنواع الخضروات البامية والملوخية والبصل والفاكهة كالتمر والدوم واللالوب كما إن هناك أماكن لبيع البهارات كالشطة والملح والفلفل الأحمر والقرفة والروائح العطرية والحنة[57] وقد أولى سلاطين سنار عناية خاصة للأسواق إذ كان السوق فى سنار فى غاية الدقة والنظام بالقدر الذى جعلهم يقيمون عليه جنديا للإشراف على شئون السوق وحفظ الأمن والنظام[58] وقد تميز سوق سنار برخص الأسعار وظل مفتوحا طوال اليوم حيث كانت تاتية منتجات المشيخات مثل سن الفيل والتمر هندى وتبر الذهب والمنسوجات[59] والتبغ الذى تميز بشهرته فى الأسواق الداخلية والخارجية.

- سوق ود مدني:

اشتهر سوق ود مدنى الذى يفتح يومى الاثنين والخميس ويتقاطر عليه الناس من كل صوب ويباع فيه أنواع الحبوب والخضر والصمغ والمنسوجات القطنية من

---

(55) أحمد بن الحاج أبو علي: مرجع سبق ذكره، ص25.
(56) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ج1، ص178.
(57) نفسه، ص179.
(58) محمد إبراهيم أبو سليم: الفونج والأرض، ص53.
(59) مكى شبيكه: مملكة الفونج الإسلامية، ص17.

وارد مانتسستر والسكر والحرر وأدوات القطع ويعتبر سوق شندى خير مثال لأســـواق السلطنة حيث ذكر بوركهاردت انه كان يعقد فى ساحة مكشوفة فى وسط المدينة وهو عبارة عن ثلاثة صفوف من الدكاكين مبنية من الطمى يبلغ طول الواحد فيها ستة أقدام وعرضه أربعة أقدام ومغطاة بالحصر ويحتلها التجار المشهورون بثرائهم وتوجد بـــه كل السلع[60] ويعقد فى يومى الجمعة والسبت ويصفه بوركهاردت قائلا: إن مئات البقر والحمير وعشرات الخيل تعرض فى هذين اليومين وكل تاجر يأخذ مكانة فـــى فنـــاء السوق ويوقم بعرض بضاعته حتى تجار مصر وسواكن وسنار يكونون مجموعات كل على حده وفى وسط كل منها دائرة من العبيد المعروضين للبيع ويأتى سكان الريـــف يحملون الحصر والاسبته وجلود الثيران والأوانى الفخارية وسروج الإبـــل والأطبـــاق الخشبية التى من صناعتهم بالإضافة لصناعى الأحذيـــة والحـــدادون كمـــا تعـــرض بوركهاردت للسماسرة الذين يلعبون دورا كبيرا فى تجارة الجملة فى سوق شـــندى[61] كما يعرض السوق السلع المستوردة مثل الصندل الذى يستورد من الهنـــد والســـيوف الألمانية وكذلك الأمواس وورق الكتابة والخرز الذى يستورد مـــن جنـــوا والبندقيـــة والصابون من مصر بالإضافة إلى الملح والذهب من إثيوبيا هذا عن الأسواق الكبـــرى وهناك أيضا سوق يومى تعرض فيه لحوم البقر والإبل[62] والتبغ الذى يوجد فى كـــل ركن من أركان سوق شندى بالإضافة إلى الأسواق الكبرى والأسواق اليومية وجـــدت فى شندى حوانيت البقالين والعطارين الذين يبيعون القرنفل والفلفل والحبهان والتمـــر هندى وخشب الصندل والحلبة التى تستورد من مصر.

- ســـوق بـربر:

امتازت بربر بسوقها الكبير الذى وصفة بوركهاردت بأنه يحوى مقادير صـــغيرة من البضائع أهمها التمر من دنقلا والبن من الحبشة والمنسوجات المصـــرية والعبيـــد

---

[60] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ج1، ص113.
[61] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص67.
[62] نفسه، ص68.

والإبل[63] وسوق الدامر الذى يعقد أسبوعيا وتعرض فيه معظم السلع المصرية بالإضافة إلى الأغنام والحصر المصنوعة من أوراق أشجار الدوم والذرة والشطة والقطن والدخان ثم إن إعفاء الفقهاء التجار لضريبة المرور كان له اثر كبير فى انتعاش الدامر اقتصاديا[64] وفى إقليم عطبره وفى قوز رجب تحديدا كان بها سوق تعرض فيه القوافل ما تحمله من السلع والبضائع ويتردد عليه سكان الجهات المجاورة من الشكريه والهدندوه ليبادلوا بما لديهم من السلع والمنتجات الزراعية والحيوانية ويصف بوركهارد النشاط التجارى فى سوق قوز رجب بقوله ويعقد فى قوز رجب سوق تجد فيه القوافل التى تمر على هذا الطريق مكانا مناسبا لعرض بضائعها[65].

- أسواق التاكا:

اشتهرت بإقليم البطانة وشرق السودان أسواق التاكا ومن أبرزها سوق كسلا وسوق الهدندوه (وهى قرية عرفت بهذا الاسم) وكان يعقد فيها السوق مرة فى الأسبوع يعج بالنشاط التجارى ويتردد عليه البدو وأهل الريف وبعض التجار لبيع مصنوعاتهم اليدوية وتعرض فيه الماشية وأنواع مختلفة من الحصر والسلات المصنوعة من الغاب ومن سعف الدوم الذى يعم أودية الصحراء بالإضافة إلى الأوانى الفخارية وأباريق الوضوء التى يشتريها سكان سواكن ويحملونها إلى الحجاز وكذلك القرب المصنوعة من الجلد بالإضافة إلى لحم الجمل والنبق والقرض والصمغ والملح الذى يؤتى به من سواكن وريش النعام الأسود وهو ريش الإناث من النعام بالإضافة إلى القرنفل والبخور وكان يأتى إلى السوق الحدادين الذين يقومون بعمل السكاكين ورؤوس الحراب والسلاسل الحديدة التى تستعمل لربط أرجل الإبل الأمامية[66].

---

(63) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره ، ص48.
(64) نفسه: ص59.
(65) نفسه: ص90.
(66) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص96.

إما سوق سواكن فتباع فيه جميع بضائع السودان ومصر والحجاز والهند وأوربا حيث يفد إليه جميع التجار من شتى العالم ويعد سوقا تجاريا يلتقى فيه التجار لشراء البضائع المختلفة[67] ويعقد السوق فى مكان مكشوف حيث تعرض السلع التى تأتى من داخل السوق ومن خارجة خاصة الذرة التى تأتى من التاكا والدمور من سنار وكانت التجارة فى هذه الأسواق تتم بجانب السلع التى يتجول بها أصحابها وهؤلاء أطلق عليهم اسم الباعة الدوارون وهم يحملون العطور والبهارات فى خرج كبير على حمار يطوف به القرى بالإضافة إلى النساء اللائى يحملن الثمار والبقول ويطفن بها على المنازل وتباع هذه السلع بالمساوية والتراضى بين البائع والمشترى[68].

- أسواق دنقلا:

وبالنسبة لمديرية دنقلا اشتهرت سوق أبو قس[69] التى تفتح كل يوم خميس وكذلك سوق الدية الذى يفتح يومى الاثنين والجمعة إما اشهر أسواق دنقلا كان سوق تنقاسى الذى يفتح يوم الثلاثاء من كل أسبوع ويأتيه التجار من دنقلا وبربر والخرطوم.

ج- وسائل المعاملات التجارية (النقود):

1- المقايضة :

كانت السلطنة تولى التجارة درجة قصوى من الاهتمام ورغم ذلك لم تكن لها عمله خاصة[70] لذا كانت المقايضة تتربع على عرش التداول فى عهد السلطنة الأول وتتمثل فى مبادلة سلعة بسلعة أخرى[71] وهذه تتم بصور مختلفة بين التجار والاهالى وهى واسعة الانتشار وتعتمد على الاتفاق بين الطرفين فيما يعرضانه من السلع مثل إن يعرض التاجر سن الفيل والريش والأخر يعرض الملح كسلعة أولى بجانب المنسوجات

---

[67] نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص123.
[68] نفسه، ص179.
[69] قرية صغيرة بالقرب من الخندق (نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ج1، ص101).
[70] ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص18.
[71] محمد زكى المسير: اقتصاديات النقود، ص12.

ويتم الاتفاق في المراكز التجارية بين التاجر والمواطن بالمواجهة وقد لا يقبل أحدهما فينسحب ويعرف هذا النوع من المقايضة بالتجارة الصامتة وابرز ما كان يستبدل الذرة والمنسوجات القطنية المعروفة بالدمور في مقابل السلع الواردة [72] ويذكر بوركهاردت إن الأشياء ذات القيمة القليلة يقدر سعرها بالذرة التي وحده كيلها السلقا[73]ورغم وجود المكاييل الخشبية فان الأهالي لا يثقون فيها ويفضلون استخدام الأيدي وهذا التعامل بوجه عام في إقليم بربر وجميع البلاد على الطريق الممتد منها إلى سنار ويضيف بوركهاردت ان الذرة وسيط للتعامل أكثر قبولا لان سعر الدمور يختلف عند قدوم كل قافلة من الجنوب[74] بالإضافة للذرة والدمور يستعمل الكحل كعملة في الأرياف إذ إن زوجات اللاجين على استعداد دائم لاستبدال ما يمكن إن ينسجنه في منازلهن بالكحل. استخدام كذلك الخرز كعملة والنوع الأكثر شيوعا هو المصنوع من الخشب بواسطة خراطين في مصر وكذلك الأبقار كانت تستخدم كوسيلة للتبادل في كردفان[75].

2- العملات المحلية:

يلي المقايضة العملات المحلية التي تستخدم وتصنع من قطع الحديد ويصنعها الحداد وتعرف بأسماء مثل أبو منجل والحشايش[76].

إلا إن هذه العملة الحديدية تعرضت لخطر دائم إذ أنها غالبا ما جمع وتصنع منها الفؤوس والحراب كما كانت تستخدم العملات الأجنبية المجلوبة من الخارج بواسطة التجار الأجانب وهي لا تواجه اى صعوبة في التعامل والتداول ولهذا كان لها قيمتها وسط التجار والأثرياء[77] وهذه مهدت لاختفاء أنواع العملات ووسائل المقايضة الأخرى فمثلا استعمل بين بربر وشندي الدولار الاسباني كما استعملت الذرة كعملة

[72] محمد سعيد القدال: السياسة الاقتصادية للدولة المهدية، ص83.
[73] هي كمية من الذرة تسعها يد البائع (نسيم مقار، مرجع سبق ذكره، ص50).
[74] نفسه، نفس الصحة.
[75] نفسه، ص70.
[76] الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، ص217.
[77] محمد سعيد القدال: مرجع سبق ذكره، ص24.

والعملات التى كان يتداولها التجار فى السوق هى نس العملة التى كانت متداولة فـــى مصر والتى تضرب فى مصر والنمسا وتركيا وفرنسا وانجلترا ولم يؤد هذا التنوع فى مصادرها وأسمائها إلى تغيير قيمتها.

وأهم النقود الرائجة فى السلطنة هى ريال ابو طيرة وهو ريـــال ماريـــا تاريســـا النمساوى المشهور وسمى بذلك لأنه على احد واجهته صورة نسرين ويقال له القوشلى أيضا وهى لفظة تركية بمعنى أبو طيرة ويشار له أيضا بأبى نقطة لان علـــى وجهـــه الثانى نجمة[78].

ويبدو إن القوة التجارية التى كانت تتمتع بها السلطنة فى سنار نتجت من استخدام أوقية الذهب لتسهيل التبادل والتى كان يمكن التحكم فـــى قيمتهـــا بواسـطة الســلطان لسيطرته على إنتاج الذهب فى السلطنة وبالتالى يتم دفع كمية الذهب للأسواق حســب رغبة السلطان مما جعل قيمة الذهب فى ثبات فى مقابل السلع التجارية فى سنار[79].

د– الطـــرق:

واعتمدت التجارة فى مملكة الفونج اعتمادا تاما فى تنقلاتها بين المشيخات والدول الأخرى على القوافل التى تسير داخل السلطنة من مكان لآخر عبـــر طـــرق داخليـــة وخارجية والقوافل تشكل الناقل الأول وتتألف من الإبل والبغال وأكثر سيرها ى الليـــل حتى تتحاشى شدة الحر والعطش[80] كذلك استخدمت المراكـــب الشـــراعية والقـــرب المنفوخة وجذوع النخل فى عبور النيل وقد سلكت هذه القوافل الطرق بمساعدة خبراء من بعض القبائل التى احترفت هذه المهنة مثل العبابده الذين يعملـــون إدلاء للقوافـــل التجارية بين مصر والسودان عبر صحراء العتمور[81] لخبرتهم بطرقها ولحماية هـــذه

---

(78) نعوم شقير، مجرع سبق ذكره، ج1، ص181.

(79) mundou al mahdi: a short history of the sudan p.44.

(80) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ج1، ص180.

(81) عون الشريف قاسم: قاموس اللهجة العامية فى السودان، ص740.

القوال التى كثيرا ما يعترضها قطاع الطرق ومقابل الإرشاد والحماية تدفع القافلة عشرين دولارا[82]. إما البرابرة فهم إدلاء فى قيادة السفن من أخطار الجزر والشلالات والعواصف[83] ويعتبر طريق مصر ووادى النيل من أهم الطرق التى ظلت القوافل تستخدمه منذ زمن بعيد فهو الطريق الصاعد من أسوان حتى كورسكو ثم يصل إلى منطقة دراو التى يجعلها التجار مقرا لهم حيث يجتمعون بها وهم فى طريقهم الى سنار وتستغرق الرحلة فيه من دارو حتى بربر أثنى عشر يوما ولابد للقوافل من المرور بديار البشارين[84] كما كان هناك طريق أخر لتفادى خطرهم يبدأ أيضا من كرسكو عبر الصحراء إلى بربر وهو اقرب بكثير من طريق دنقلا إذ تسير فيه القوافل فى طريق صحراوى إلى الجنوب فى سلسة من الآبار المالحة وتستغرق الرحلة حوالى ثمانية أيام ويضاعف من صعوبة هذا الطريق وجود الرمال المتحركة التى تطمس معالمه وبالتالى لا يستطيع أحد سلوكه إلا بمساعدة قبيلة العبابده الذى يعرفون السير فيه عن طريق النجم القطبى[85]. وثمة طريق اخر يبدا من قرية مشو فى دنقلا إلى دنقلا العجوز وكورتى ويسير على النيل فى الضفة الغربية شمالى قرى ومنها إلى الحلفايا والعيلفون وقرية كترانج والكاملين شرق وعلى الضفة الغربية للنيل ويمر بالبشاقره شرق وغرب وأبى عشر واربجى إلى سنار[86] وفى سنار كان يعد لأصحاب القوافل بيوت خاصة لضيافتهم وسكانهم حيث يقوم على رعايتهم وزير البلاط الملكى[87].

ويعتبر طريق الأربعين من أهم الطرق التى ربطت مصر بدارفور ويتحدث براون عنه فى عام 1793-1796 قائلا تتحرك القافلة من أسيوط وتمر بعين ديزيه

(82) نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص56.
(83) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره نفس الصحة.
(84) محمد عوض: مرجع سبق ذكره، ص43.
(85) ريتشارد هل: مرجع سبق ذكره، ص50.
(86) مكى شبيكة: مملكة الفونج الإسلامية، ص74.
(87) الشاطر بصيلى: معالم سودان وادى النيل، ص76.

الواقعة شمال الواحة الكبرى وهى أول مكان تصادف فيه القافلة الماء وعلى مسيرة أربع ساعات تقع الخارجة ويوجد فى كل من ديزيه والخارجة جندى مهمته رعاية شئون القافلة وعلى بعد ست ساعات من الخارجة تقع بولاق وهى قرية شديدة الفقر وتمد القوافل بالماء العذب وبعد مسيرة أربع عشرة ساعة من بولاق تقع باريز وبعد فترة خمسة أيام تقع شب ويستخرج منها الشب بكميات كبيرة كما يدل على ذلك اسم المكان وبها أعذب مورد للماء يقابل القافلة وهى ملتقى للجماعات التى تعبر الصحراء من مختلف الطرق وعلى مسيرة خمسة أيام تقع لقيه وفيها يندر الماء وعلى مسيرة ستة أيام من لقيه يقع بئر الملح الذى تشتهر المنطقة المحيطة لهذا البئر بملح النطرون الذى يحمله الجلابة إلى مصر ويتردد على هذا البئر جماعة من الزغاوه لتبيع للمسافرين ما يحتاجون إليه من مواد غذائية بأسعار باهظة ويغير الكبابيش على هذه المنطقة لسلب المسافرين عند وقوفهم هناك وعلى مسيرة ثمانية أيام من بئر الملح تقع مدوه وهى خالية من الماء وبعد مسيرة يومين من مدوه توجد أبار وأدى مرزوق التى تقع على أول حدود الفور ويلى وأدى مرزوق جنوبا قرية سوينى وفيها يقيم حاكم من قبل سلطان دارفور وعند سوينى لا يجوز لرجال القافلة متابعة سيرهم إلا بعد إن يتحرى عنهم الحاكم ولهذا يقتضى منهم إن يمضوا بضعه أيام فى تلك القرية قبل مغادرتها إلى كويه[88] أخر طريق القوافل ويضيف براون إن فى كويه عدد من المصريين والتونسيين الذين يعملون فى التجارة بعضهم يعود إلى بلادة والأخر تزوج من دارفور وأصبح من رعايا السلطان.

والمتتبع لهذه الطرق يجد إن هناك طريقا عبر الصحراء بين دراو وبربر اعتادت القوافل إن تسلكه وهو أيضا الطريق أخر يمتد إلى الغرب يمتد من بربر إلى سبوع وهى قرية على النيل بالقرب من الدر وهذا الطريق به بئر مرات التى تتميز بمائها المر[89].

[88] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره 32-33.
[89] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص51.

وهناك طريق من بربر إلى دنقلا مارا بالمرتفعات على الشاطئ الغربى للنيل لكنه غير مطروق نسبة للحروب التى دارت بين قبيلة الرباطاب وجيرانها مما أدى إلى امتناع القوافل عن السير عبره.

وثمة طريق أخر من بربر إلى سواكن عبر صحراء التاكا ويصفه بوركهاردت قائلا (والطريق عبر صحراء التاكا فى سواكن لا يطرقه الأجانب إلا إذا كانوا فى إعداد كبيرة ومعهم البشاريون وهناك طريق من سواكن مارا بقوز رجب إلى سنار عبر الصحراء وبعض القوافل تفضله تحاشيا لرفع ضرائب المرور فى عطبره أو نفقات الإقامة فى شندى إما حجاج كردفان فيسلكون ثلاثة طرق:

- الأول :

عن طريق غوندار واكسوم إلى مصوع ومن يسلك هذا الطريق يشكو من معاملة مسيحيى الحبشة لهم وفى مصوع يظلوا بضعة أسابيع حتى يتمكنوا من كسب المال عن طريق عملهم اليدوى لرفع ضريبة المرور إلى ساحل اليمن أو جده ومنها برا إلى مكة.

- الثاني:

على ضفاف النيل من سنار إلى شندى وهو طريق مطروق أكثر من غيرة وهو من دارفور أو كردفان رأسا إلى شندى وعند الدامر يتفرع إلى طريقان الأول على جانب النيل تجاه مصر ويشير بوركهاردت إلى ما يلاقيه التكارنه من كرم المصريين فى هذا الطريق ورغم طوله فهو اقل تعبا ومن دارفور حتى شندى تتولى الحكومة حماية القوافل وما إن تصل عطبره والتاكا حيث تتعرض للنهب من الشايقيه[90] والفرع الثانى من الدامر يسير عبر المقرن إلى التاكا ومنها إلى سواكن ومنها بحرا إلى جدة.

---

[90] نسيم مقار: مرجع سبق ذكره، ص98.

- **الثالث:**

من سنار إلى التاكا عن طريق راس الفيل ومنها إلى بلاد الحلنقه حيث يتفادون السر عبر الصحراء وهذا الطريق يفضله جميع الحجاج القادرين على السير مزودين بجمل لنقل الماء والمئونة[91] ويحدثنا بوركهارد كذلك عن طريق يربط بين سواكن وأسوان يستغرق من عشرين إلى خمس وعشرين يوما ولكنه غير مطروق كثيرا بسبب خطر بدو البشارية[92] وطريق أخر من الأبيض إلى قرية دومه حيث تجبى الضرائب ومنها إلى قرية أم قناطر ثم إلى جبل أبو دوبر حيث الآبار التى تمد القوافل بالماء ومنها بعد مسيرة خمسة أيام إلى النيل مقابل شندى[93]. ويمكن إن نلخص هذه الطرق الداخلية والخارجية فى:

1- الطريق الذى يبدأ من أسيوط من مصر عبر الواحات الخارجة إلى واحة سليمة ثم دنقلا.

2- الطريق الذى يبدأ من أسيوط أو اسنا أو أسوان ويستمر مازيا النيل حتى دنقلا.

3- الطريق من دنقلا بمحاذاة النيل حتى كورتى ثم إلى بربر عبر الصحراء ثم مناطق الجعليين حتى الحلفايه.

4- الطريق من دنقلا بمحاذاة النيل عبر مناطق الشايقيه البديريه الرباطاب حتى الحلفايا.

5- طريق سواكن مصوع حتى سنار.

6- طريق سواكن بربر.

7- طريق بربر المتمة الحبشة.

---

(91) نفسه، ص99.
(92) نفسه، ص101.
(93) نفسه، ص112.

8- طريق شندى عطبره والبطانة.

9- طريق الأربعين.

10- طريق أبو حمد كورسكو وهو يأرق النيل عند أبو حمد ويصل إلى النيل مرة أخرى فى جنوب مصر وهو يتفادى بذلك الانحناءة الكبيرة فى النيل.

11- طريق أبو حمد سواكن.

هـ- الضرائب والخراج :

انشأ السلطان السنارى الضرائب لأول مرة كما يقول كاتب الشونة بما فيها زكاة الفطر والتى كانت تدفع فى أغلب الأحيان عينية فى شكل دمور أو حيوانات أو من المحصول بخاصة فى الريف والبادية البعيدة عن مراكز التجارة وقد كان السكان يدفعون ضرائب متباينة حسب تباين أنماط معيشتهم ففى المنطقة الشمالية حيث الزراعة المروية بلغت الضرائب نصف محاصيل الجروف وخمس السواقى وعشر محاصيل الاراضى المطرية إما فى المنطقة الوسطى الرعوية فالضرائب عشر القطعان والماشية وفى الجنوب حيث يتوفر الذهب والعاج الذى يجب على الرعية تسليمه للسلطنة التى تعطيهم تعويضا مقابل ذلك[94]. وأول ضريبة فرضها الفونج على القبائل هى تورات العسكر ويقول ود ضيف الله وكان الفونج أول ملكهم فرضوا على قبائل العرب تورات العسكر كل قبيلة عمار لبن وناس معلومين ينفقونهم الفطير[95].

استعمل الفونج كلمة خراج لكل ما يدفع للحاكم الذى يعتبر مالك الأرض والمترف فيها[96]. وقد اقطع السلطان بادى بن نول قطعة ارض للدواليب صدقة. وكذلك اقطع

[94] Spaulding, j.l.:opcit, p.97.

[95] ويقول يوسف فضل محقق كتاب الطبقات الثورة عبارة عن ضريبة يدفعها سكان القربة للجند الذين يحلون فى ديارهم فى شكل وجبات طعام (محمد النور بن ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص81 هامش 14).

[96] محمد إبراهيم أو سليم، الفونج والأرض، ص33.

بادى بن دكين إقليما كاملا لزعيم الشكرية[97]. ويشير أبو سليم إلى حوالى أربعه عشر نوعا من الالتزامات والضرائب بعضها ضرائب خراجيه وبعضها هدايا للسادة وبعضها عقوبات وقسم هذه الضرائب إلى ثلاثة أنواع الشرور والسبل والمضار وحرص على الإشارة عليها مجتمعة[98]. ودائما ما يذكر الكتاب إن الأرض المتصرف فيها سالمة من جميع الشرور والسبل والمضار وأحيانا يسقط الكتاب المضار وربما يعنى هذا تداخل المضار والشرور مع بعضهما البعض وتقسم هذه الأنواع إلى:

1-الـدم :

يقول أبو سليم هو الذبيحة التى يقدمها مالك الأرض للحاكم وأعوانه إذا قدموا إليه لكننى اعتقد إن الدم هو الدية فى حالة جريمة القتل والدليل ما ذكره صاحب الطبقات: إن رجلا قتل أحد الصادقات ثم ذهب واحتمى بالشيخ بدوى أبو دليق فقال مطاردوه الشيخ بدوى (حوارنا يمسك سيد دمنا)[99]

2-العليـقه:

عبارة عن حزمة القش تعطى لدواب الحاكم وأعوانه.

3-غـلة:

عبارة عن عيش يقاس بالبرمه والبرمه تسع ربع المتره: ضريبة خاصة لجيب السلطان.

4-العـانة:

هى إعانة مالية تقدم للحاكم فى المناسبات السعيدة.

---

(97) نفسه، نفس الصفحة.

(98) نفسه، ص31-33.

(99) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص122.

5- نــزول :

اى إن ينزل الحاكم وأعوانه على مالك الأرض ويتبع ذلك دفع ضرائب والضيافة وقد أوضحت الوثيقة رقم 18 معنى الضيافة إذ تقول ولا نزول ولا ضـيافة مـن ناس قرى أو ناس سنار ولا يغشاهم أحد فى حلتهم[100].

6-سنسـنه:

وتعرف أحيانا بالكسرة والمقصود بها الإطعام.

7-المخـلا أو المخـلايه:

ضريبه غلال تدفع لخيل فرسان السلطان.

8-تــورات:

وقد فسرها البروفيسور عبد الله الطيب بان التورات جمع توره من التتوير وهـى حرث الأرض اى أنها ضريبة تدفع أول الحرث أو هى نـوع مـن السـخرة أو تسمين وتربية البهائم وهو يرجح الاحتمال الأخير لان أهل الجزيـرة يسـتعملون اللفظ بهذا المعنى[101].

9-الجـباية :

العوائد التى تدفع عن الأرض.

10-الحسـب:

غرامة معينة يؤديها الرجل كدية أو تأديب.

11-السـبلة:

هى أعانه تقدم للحاكم عندما يقيم مأتما.

[100] محمد إبراهيم أبو سليم، الفونج والأرض، ص32.
[101] محمد إبراهيم أبو سليم، الفونج والأرض، ص32.

12- إذا قتل الاهالى فرس البحر فإنهم يدفعون ضريبة صيد[102].

13- يقوم الشيخ (السيد) بإشعال أولى الحرائــق لتنظيــف الأرض ويأخــذ ضـــريبة على ذلك.

14- الملك وحده هو الذى يملك الحق فى إقامة السوق أو تسيير المراكـب النهريــة وعلى كل من يستفيد من هذه الخدمات دفع رسوم معلومة[103].

15- **السخـــرة :**

هى ضريبة عامة تشمل مبلغا يحدد ملك سنار يفرض على جميع حكـــام الأقـــاليم وتوزيع بنسب معينة على خزانـــة الســلطان والـــوزراء ومـــن يقـــوم بخدمـــة السلطنة[104].

16- **ألانـــا :**

ضريبة على الأقمشة القطنية والمصنوعة محليا.

17- **النـــار :**

هى غرامة تفرض على القرى التى يشب حريق قريب منها.

18- **الســـلام:**

هى الهدايا التى يقدمها التجار الوافدون على العاصمة[105].

19- **الضحـــوه:**

وهى إن يعمل المستأجرون بأرض الشيخ فترة من اليوم بلا مقابل وفى الحـــالات التى يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصـــة على كل شخص إن يدفع قرشا أو قرشين بدلا عن عملة وكان الأشخاص الـــذين يقومون بهذا العمل الرقيق.

[102] عبد السلام سيد احمد: مرجع سبق ذكره، ص32.
[103] نفسه، نفس الصفحة.
[104] الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط، ص266.
[105] مصطفى محمد مسعد: بعض ملاحظات جديدة عن مملكة الفونج، ص31.

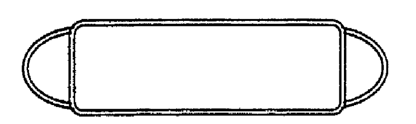
20- قيــراط:

هو ما يحصله زعيم القبيلة عينا من الزراعة التى يقوم بها الأجانب[106].

مما تقدم يتضح إن عامة السكان فى سنار كانوا يدفعون ضرائب متنوعة لحكامهم تمثلت فى دفع ضرائب للسلطان المحلية (الملك أو الشيخ) وضرائب للســلطان مقــدرة بحصص ثابتة. واتسم جمع الضرائب باللين فى جبايتهــا علــى الفقــراء وبعضــهم يعفى منها لان السلطنة لم تكن تحتاج لنفقات دخل مستمرة لمواجهة مصــروفاتها[107]. هذه التقديرات مورثة عن عهود سحيقة وتطورت إلى عدة مراحل حتى وصلت إلــى هذه الصورة.

(106) الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وأدى النيل ص264.

(107) محمد سعيد القدال: مرجع سبق ذكره، ص82.



- الخـــاتمة
- المراجـــع
- الملاحـــق

الخاتمـــة

الإسلام ظاهرة حضارية متكاملة متداخلة جاءت إلى السودان فى وقت كانت فيـه فعلا هذه المنطقة مستعدة لتقبل تغيير جذرى. فقد اعتنق السودانيون هذا الدين الجديـد منذ بداية اتصالهم كأفراد. وما نعرفه عن انتشار الإسلام فى السودان جاء بلا سـلطة سياسية تعضده وبلا حركة تبشيرية تسنده، بل جـاء وانتشـر تلقائيـا بـين الأفـراد والجماعات ولدينا شواهد كثيرة عن وجود المسلمين كأفراد بين المحـيط السـودانى، سواء النوبى المسيحى أو البيجاوى الوثنى ففى شرق السودان تشير بعـض الوثـائق التاريخية إلى أن بعض البجا اسلموا وكان عمال أمير المؤمنين يدخلون بلادهم لجمـع أموال الزكاة وكانت لهم مساجد.

لقد أمدتنا الآثار بمؤشرات تقود إلى أن النوبيين أنفسهم قاموا بالتحول نحو الإسلام وبدأوا فى نشر هذه العقيدة الجديدة فقد كشفت الحفريات الأثرية عـن وجـود أفـراد مسلمين فى وسط مسيحى صميم.

هناك أدلة أثرية تشير إلى أن هذا التحول التدريجى شمل فى أواخر أيامه مراكز القيادة المسيحية الروحية. فقد أشارت الحفريات الأثرية إلى أن مدينة فرس والتى كانت احد العواصم الدينية هجرت ودفنت كنائسها الرمال.

منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى ثبت بأنه فى منطقة النوبة لم يعثر على اى كنيسة تحولت إلى مسجد[1] بل أن هذه الكنائس على كثرتها تهدمت ودفنت.

أن هذه المشاركة الإسلامية من جانب النوبيين تعدت إلى المشاركة فى الحركـة الفكرية فمثلا يزيد بن أبى حبيب الذى تولى رئاسة القضاء فى مصر فى زمن الخليفـة

[1] وهذا ما أثبتته الباحث عندما تحدث عن المساجد فى السودان.

عمر بن عبد العزيز هو نوبى الأصل ومن دنقلا، وذو النون المصرى الذى كان من ابرز متصوفى الرعيل الأول فى العالم الاسلامى كله هو نوبى كذلك.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر تشير إلى كثرة الجند النوبية فى القاهرة حيث بلغوا عشرات الآلاف حتى ضاقت بهم المساجد.

هذه أشارة واضحة إلى مدى انتشار الإسلام بين النوبيين أنفسهم وهذا يقودنى إلى استخلاص حقيقة هى أن الشخصية السودانية آنذاك كانت فى طور تقبل لمثل هذا التحول الذى شمل كل مناشط الحياة واعتقد أن هذا التقبل ساعد فى جذب القبائل العربية إلى السودان.

أن الإسلام بنظمه وثقافته استطاع التعايش مع المسيحية واليهودية والوثنية. وفى الخاتمة نقول أن السودان بتكويناته وموقعة الجغرافى قد جذب انتباه العالم منذ القدم تعددت الكتابات والآراء حول ماهيته واصلة.

وقد كتب كل كاتب حسب مناظير ومفاهيم عصره وحسب اعتقاده وقد حاولنا قدر المستطاع لفت النظر إلى هذا الجانب الهام باحثين عن موقعنا وذاتنا.

ومن خلال استعراضنا السابق حاولنا أن نتتبع السودان والسوداني عبر مسيرة متواصلة من التطور عبر مئات السنين كمجموعات إنسانية حيه متحركة بذاتها المستقلة وشخصيتها الواضحة القوية.

ثم أن للسودان دور طبيعى هام كأحد المداخل التى أطلت من خلاله القارة الأفريقية للعالم الخارجى فلم يكن السودان معبرا أو قنطرة للتيارات الحضارية إلى أفريقيا فقط بل كان بوتقة انصهرت فيها شتى هذه الحضارات فى صياغة جديدة وفوق ذلك كان للسودان دورة الذاتى فى توليد وإثراء التيارات وفى حركتها وكان دورا ايجابيا.

المصادر والمراجع

❖ **الرسائل الجامعية:**

1- **عبد الرحمن حسب الله:** العلاقات بين بلاد العرب وشرق السودان، مصر، القاهرة، 1979م، رسالة ماجستير (غير منشورة).

2- **نسيم مقار:** أحوال السودان الاقتصادية قبل الفتح المصرى، مصر، القاهرة، جامعة القاهرة، 1956م، رسالة ماجستير (غير منشورة).

❖ **المصادر:**

1- **ابن فضل الله العمرى:** (ت 742هـ - 1341م) التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، القاهرة، 1312هـ - 1911م.

2- **ابن ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى:** الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان، لبنان، بيروت، نسخة إبراهيم صديق.

3- **أبو الحسن على بن الحسين المسعودى:** (ت 346هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين عبد المجيد، مصر، القاهرة، مطبعة السعادة، 1984م.

4- **أبو العباس احمد القلقشندى:** (ت 821هـ - 1418) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1331هـ - 1913م).

5- **أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى:** (ت 774هـ- 1373م) البداية والنهاية، لبنان، بيروت، دار الثقافة العلمية، 1408هـ - 1988م، 12 جزء.

6- **أبو القاسم إبراهيم محمد الفارسى الاصطخرى:** عاش فى القرن الرابع عشر الهجرى – العاشر الميلادى، المسالك والممالك، مصر، القاهرة، مطابع دار القلم، 1961م.

7- **أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم:** (ت 276هـ – 875م) ففتوح مصر وإخبارها، هولندا، لندن، 1920م).

8- **أبو القاسم محمد بن حوقل:** صورة الأرض، هولندا، لندن، نشر كرامرز، 1930م، جزئيين.

9- **أبو صالح الامنى:** (ت 601هـ– 1200م) تاريخ الشيخ أبو صالح، مصر، القاهرة، نشر ايفت، 1893م.

10- **أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى:** (ابن بطوطة) مهذب رحلة ابن بطوطة، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، 1934م.

11- **أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى:** (ت 310هـ – 923م) تاريخ الأمم والملوك، لبنان، بيروت، 1407هـ – 1978م، 14جزء.

12- **أحمد بن الحاج أبو على:** مخطوطة كاتب الشونة، فى تاريخ السلطنة، والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلى، مصر، القاهرة، وزارة الإرشاد القومى، 1961م.

13- **أحمد بن الحاج أبو على:** تاريخ ملوك السودان، تحقيق مكى شبيكه، السودان، الخرطوم، مطبوعات كلية غردون التذكارية، 1947م.

14- **أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبى:** (ت 292هـ – 887م) تاريخ اليعقوبى، لبنان، بيروتن دار الكتب العلمية، 2002م.

15- **أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقـوبي:** البلدان، هولندا، لندن، نشـر دى خويـة، 1891م.

16- **تقى الدين احمد بن على المقريزى:** (845هـ- 1441م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق الدكتور محمد زينهم والدكتورة مديحه الشرقاوى، مصر، القاهرة، مكتبة مدبولى، 1998م.

17- **تقى الدين أحمد بن على المقريزى:** السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمـد مصطفى زيادة، مصر، القاهرة، 1943م.

18- **شهاب الدين أحمد النويرى:** (ت 723هـ - 1323م) نهايـة الأدب فـى فنـون الأدب، مصر، القاهرة، مخطوطة مصورة، بدار الكتب المصرية، معارف عامـة رقم 549.

19- **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون:** (ت 808هـ - 1406م) العبر وديوان المبتـدأ والخبر، مصر، القاهرة، 1274هـ - 1857م.

20- **محمد النور بن ضيف الله:** الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلمـاء والشعراء فى السودان، تحقي يوسف فضل حسن، السودان، الخرطوم، 1992م.

21- **محمد عمر التونسي:** تشحيز الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، مصر، القاهرة، الـدار المصـرية للتـالي والترجمة 1865م.

22- **نعوم شقير:** جغرافية وتاريخ السودان، لبنان، بيـروت، مطبعـة دار الثقافـة، 1972م، ثلاثة أجزاء.

23- **مؤلف مجهول:** مخطوطة تاريخ قلاوون، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملـك المنصور (قلاوون) مخطوطة بالخزانة التيمورية 426م.

❖ المراجــــع:

1- **إبراهيم احمد العدوى:** التاريخ الاسلامى إفاقة السياسية وإبعاده الحضارية، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1976م.

2- **إبراهيم الحاردلو:** الرباط الثقافي بين مصر والسودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى، 1977م.

3- **أبو العلا عفيفي:** التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، مصر، القاهرة، دار المعارف، 1963م.

4- **أحمد الحفنى:** الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان، مصر، القاهرة، مكتبة بولاق، 1321هت – 1922م.

5- **أحمد شلبى:** تاريخ التربية الإسلامية، مصر، القاهرة، الدار المصرية للكتاب، 1960م.

6- **أحمد عبد الرحيم نصر:** تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم الشفاهية، السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر، 1964م.

7- **أحمد محمد على حاكم:** هوية السودان الثقافية، السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم، للطباعة والنشر، 1990م.

8- **أسماء حسن فهمى:** مبادئ التربية الإسلامية، مصر، القاهرة، 1947م.

9- **ألان مورهيد:** النيل الأزرق، ترجمة إبراهيم عباس، لبنان، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1969م.

10- **التجانى عامر:** السلالات العربية فى النيل الأبيض، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، 1390هـ – 1971م.

11- **الشاطر بصيلي عبد الجليل:** تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر الميلادى، مصر، القاهرة، النهضة العامة للكتاب، 1972م.

12- **الشاطر بصيلي عبد الجليل:** معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، مصر، القاهرة، مطبعة أبو فاضل 1955م.

13- **الشيخ الأمين محمد عوض الله:** العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى عهد السلطانتين الإسلاميتين مالى وصونغى، السعودية، جدة، المجمع العلمى، الطبعة الأولى، 1979م.

14- **الطيب محمد الطيب:** المسيد، السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1991م.

15- **بور كهاردت جيمس لويس:** رحلات بوركهاردت فى بلاد النوبة، ترجمة فؤاد اندراوس، مصر، القاهرة، 1959م.

16- **توماس ارنولد:** الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، مصر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 1947م.

17- **جيوفانى فانتينى:** تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية، السودان، الخرطوم، الطبعة الأول، 1978م.

18- **حسن إبراهيم حسن:** تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1964م.

19- **حسن إبراهيم حسن:** انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، مصر، القاهرة، دار النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1963م.

20- **حسن محمد الفاتح قريب الله:** التصوف في السودان في نهاية عصر الفونج، السودان، الخرطوم، آداب جامعة الخرطوم، 1987م.

21- **حليم اليازجي:** السودان والحركة الأدبية، لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، 1985م.

22- راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مصر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 1948م.

23- **رتشارد هل:** على تخوم العالم الاسلامي (حقبه في تاريخ السودان، 1822-1841م) ترجمة عبد العظيم محمد عكاشة، لبنان بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.

24- **رجب محمد عبد الحليم:** العروبة والإسلام في دارفور في العصور الوسطى، مصر، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1985م.

25- **زاهر رياض:** السودان المعاصر، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1966م.

26- **سر الختم عثمان:** العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى، السودان، الخرطوم، آداب جامعه القاهرة، 1969م.

27- **سر الختم عثمان:** أولاد جابر، الأمانة العامة للشئون الدينية السودان، الخرطوم، 1974م.

28- **شوقي عطا الله الجمل:** تاريخ السودان ووادي النيل (حضارته وعلاقته بمصر) مصر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م.

29- **صلاح الدين الشامي:** الموانى السودانية، مصر، القاهرة، مكتبة مصر، 1961م.

30- **ضرار صالح ضرار:** هجرة القبائل العربية إلى وادى النيل مصر والسودان، السعودية، الرياض، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى (1412هـ - 2001م).

31- **ضرار صالح ضرار:** تاريخ السودان الحديث، السعودية، جدة، مطابع سحر، 1989م.

32- **عبد الحميد متولى:** تطور نظم الحكم فى السودان منذ أقدم العصور، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1969م.

33- **عبد الرحمن عبد الخالق:** الفكر الصرفى فى القران الكريم والسنة، الكويت، مكتبة دار الفيحاء، 1994م.

34- **عبد السلام سيد احمد:** الفقهاء والسلطنة فى سنار، ألمانيا، براغ، 1991م.

35- **عبد العزيز أمين عبد المجيد:** التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر، مصر، القاهرة، 1949م ثلاثة أجزاء.

36- **عبد المجيد عابدين:** تاريخ الثقافة العربية فى السودان، لبنان، بيروت، دار الثقافة، 1967م.

37- **ضرار صالح ضرار:** من الأدب الشعبى السودانى، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب.

38- **عز الدين الأمين:** قرية كترانج وإثرها العلمى فى السودان، الخرطوم، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، الطبعة الأولى، 1975م.

39- **عطية القوصى:** تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام وحتى الخلافة العباسية، مصر، القاهرة، دار النهضة للنشر، 1976م.

40- **عون الشريف قاسم:** قاموس اللهجة العامية فى السودان، مصر، القاهرة، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الثانية، 1405هـ - 1985م.

41- **عون الشري قاسم** : النماذج القومى فى السودان، السودان، الخرطوم، الطبعة الأولى، 1990م .

42- **على إبراهيم حسن:** تاريخ المالك البحرية، مصر، القاهرة، 1944م.

43- **فيليب حتى:** تاريخ العرب المطول، لبنان، بيروت، دار الكشاف، 1965م.

44- **فيليب درفلة:** العلاقات التاريخية بين الجمهورية العربية وجمهورية السودان، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1965م.

45- **قيصر موسى الذين:** فترة انتشار الإسلام والسلطنات (641 هـ- 1821م) السودان، الخرطوم.

46- **محمد إبراهيم أبو سليم:** الفونج والأرض (وثائق تمليك) السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1967م.

47- **محمد إبراهيم أبو سليم:** تاريخ الخرطوم، لبنان، بيروت، دار الجيل، 1971م.

48- **محمد إبراهيم أبو سليم:** الساقية، السودان، الخرطوم، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، الطبعة الأولى، 1980م.

49- **محمد زكى المسير:** اقتصاديات النقود، مصر، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1985م.

50- **محمد سعيد القدال:** تاريخ السودان الحديث، 1821م-1955م، السودان، الخرطوم، شركة الأمل للطباعة والنشر، 1993م.

51- **محمد سليمان محمد:** دور الأزهر فى السودان، مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

52- **محمد صالح ضرار:** تاريخ شر السودان (ممالك البجه قبائلها وتاريخها) مصر، القاهرة، مكتبة ابكس، 1992م.

53- **محمد صالح محى الدين:** مشيخه العبدلاب وإثرها فى تاريخ السودان السياسى (910هـ- 1236هـ، 1504م - 1821م) السودان الخرطوم، الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى، 1392هـ - 1972م.

54- **محمد عوض محمد:** السودان الشمالى سكانه وقبائله، مصر، القاهرة، لجنة التالي والترجمة، الطبعة الأولى 1951م.

55- **مصطفى محمد مسعد:** الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، مصر، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1960م.

56- **مصطفى محمد مسعد:** المكتبه السودانية العربية، السودان، الخرطوم، مطبوعات جامعة القاهرة، 1972م.

57- **مكى شبيكه:** السودان عبر القرون، لبنان، بيروت، دار الثقافة 1991م.

58- **مكى شبيكه:** مملكة الفونج الإسلامية، مصر، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1963م.

59- نسيم **مقار:** الرحالة الأجانب في السودان (1730م - 1851م) مصر، القاهرة، مذكرة الدراسات السودانية، 1995م.

60- **ونكولز: الشايقيه:** ترجمة عبد المجيد عابدين، السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، 1972م.

61- **هولت:** الأولياء والصالحون والمهدية فى السودان، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1971م.

62- **يوسف فضل حسن:** مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى (1450م - 1821م) السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1981م.

63- **يحيى محمد** إبراهيم: تاريخ التعليم الدينى فى السودان، لبنان، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1401هـ - 1987م.

❖ **البحوث المنشورة فى المجلات العلمية (الدوريات)**:

1- **إبراهيم عبد الرازق:** التعليم فى السلطنة الزرقاء، مجلة العمل، السودان، الخرطوم، عدد1، سبتمبر 1966م.

2- **أحمد إبراهيم دياب:** الهوية السودانية عبر التاريخ، السودان، الخرطوم، عدد 3، ربيع الثانى، 1423هـ - يونيو 2002م.

3- **أحمد محمد على حاكم:** علاقات الجزيرة العربية بالسودان فى زمن الخلفاء الراشدين، مجلة الدراسات الأفريقية، السودان الخرطوم، العدد الأول، 5 رجب 1405هـ - 1985م.

4- **بركات موسى الحواتى:** جهينة وربيعة راس الرمح العربى الاسلامى فى السودان، مجلة الخرطوم، السودان، الخرطوم، العدد الرابع، رمضان 1413- يونيو 1993م.

5- **حسن مكى محمد احمد:** من مضامين الثقافة السنارية، مجلة الدراسات الأفريقية، السودان، الخرطوم، العدد الثامن، ديسمبر 1991م.

6- **عبد العزيز كامل:** وجهة السودان دراسة حضارية مقارنة، مجلة الدراسات السودانية، السودان، الخرطوم، العدد الأول، المجلد الثانى، مارس 1970م.

7- **عون الشريف قاسم:** السودان في حياة العرب وآدابهم، مجلة الدراسات السودانية، السودان، الخرطوم، العدد الأول، المجلد الأول يوليو 1968م.

8- **محمد ربيع القمر:** قراءة جديدة فى اتفاقية البقط، السودان، الخرطوم، العدد الثانى، 1416هـ.

9- **مصطفى محمد مسعد:** بعض ملاحظات جديدة حول تاريخ مملكة الفونج الإسلامية، مجلة جامعة القاهرة السودان الخرطوم. العدد الثالث، 1973م.

10- **صلاح محى الدين الشيخ:** الشيخ عجيب المانجلك، مجلة وزارة الشباب والرعاية الاجتماعية، السودان، الخرطوم 1975م.

11- **صلاح محى الدين الشيخ:** مخطوطة تاريخية عن ملوك السودان، مجلة الخرطوم، السودان، الخرطوم، العدد الرابع، يناير 1968م.

12- **يوسف فضل حسن:** القتل الطقسى عند الفونج، مجلة الدراسات السودانية، السودان الخرطوم، العدد الأول، المجلد الثاني، 1970م.

❖ **المراجع الأجنبية:**

1- ***Arkell . A. J:*** History of the Sudan, London, 1961.

2- ***Arkell. A. J:*** More of About Fung Origins, London S.N.R. Xxv. 1961.

3- ***Alravez, F:*** Narrative of the Poruguese Embassy to Abyssinia, London, 1881.

4- ***Bloss, J. F. E***. The Story of Suakin. Sn & R. No19. 1939.

5- ***Bruce, J:*** Travels To Discover The Source of The Nile In The Years 1768 – 1773, 6 Vils, Edindurgh, 1790.

6- ***Crow Ford, O. G. S.:*** The Stone Tombs of the N. E. Sudan, Kusj, No 2, 1954.

7- ***Crow Ford, O. G. S.:*** The Fung Kingdom Of Sennar, Cloucester 1951.

8- ***Crow Foot, J. W:*** Christian Nubia, Jea 1927 XIII.

9- ***Mac Michael, H. A.:*** A History of the Arabs in the Sudan Cambridge 1922, 2 Vols.

10- ***Mundur Al Mahdi:*** A Shor History the Sudan, London, 1951.

11- ***Nadler, L. F:*** Fung Origins, Snr, Xiv, Par 1, 1931.

12- ***Paul, A:*** A History of the Beja Tribes of the Sudan, Cambridge 1954.

13- ***Spaulding, J . L:*** He Heroic Age of Sennar, London, 1985.

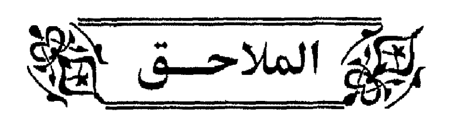
14- ***Terrance Walz:*** The Trade Between Egypt And Bilad As Sudan. 1700-1829, Bostan University, 1975.

15- ***Trimingham. J. S:*** Lslm in the Sudan, London 1949.

16- ***Umar Al Nagar:*** He Pilgrimage Tradition In West Africa, Sudan, Khartoum University Press 1971.

17- ***Yousf Badri:*** A Survey of Lslamic Learning in the Fung Stste Oxford. 1970.

18- ***Yousf Fadl Hassan:*** The Arabs and the Sudan, Kharoum University Press, 1979.



ملحق رقم (1)

هجرة القبائل العربية إلى مصر، ومنها إلى السودان [1]

أولا: القبائل القحطانيه :

- **بنـــو جـــزام :**

سكن بنو جذام الحوف منذ الفتح العربى لمصر حتى سنة 1400م، ومنهم بنو عبه الذين انفصلوا عن بقية الجزامين ليلحقوا ببنى هلال فى شمال أفريقيا. وقـد اضـمحل شأن جذام زمن صلاح الدين (1171م) وحلت محلها طئ.

- **بنـو طـئ :**

هبط بنو طئ مصر عقب الفتح الربى لها بنحو قرنين أو ثلاثة، وسكنوا جهـات الدلتا المختلطة، حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم ومن طئ بنو ثعلبة.

بلى : إن بلّى فرع من قضاعه من حمير، جاءوا مصر مع الفتح العربى وقد قـام نزاع بينهم وبين جهينة ثم تم الصلح بينهما. واستقرت بلى فى صحراء عيزاب وسكن بعضهم جهات أخمييم.

[1] macmichacl, h . a.: a history of he arabs in he sudan 2vols. Cambridge, 1922

▪ **جهـــينة :**

سكنت جهينة جنوبى ينبع، ثم دخلوا مصر مع الفتح، واشتركوا مع ربيعة حملـة العرب على البجا حوالي منتصف القرن التاسع الميلادى وانتقل معظمهم إلى الصـعيد واشتركوا فى الحملات على النوبة.

▪ **لخـــم :**

فرع من طئ، أسسوا مملكة الحيرة 286م ونشب نزاع بينهم وبين غسان وبنـى بكر وبنى تميم وغيرهم من عرب سوريا. اعتنقوا المسيحية فى نهاية القرن الخـامس الميلادى وانتهى حكمهم بالحيرة عقب ظهور الإسلام. ومن بطون لحم، يشكر الـذين جاءوا مع الفتح العربى لمصر واستقروا فى الجبل الذى يعرف باسمهم (جبل يشكر) ثم لحقت بهم بطون أخرى فى القرنين السابع والثـامن الميلاديـين. واسـتقروا حـول الإسكندرية وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استقر كثير من بطون لخـم فـى إقليم الصعيد.

ثانيا : القبائل العدنانيه:

▪ **كنـــانة وقـــريش :**

ومن هؤلاء أولاد عدى بن كعب وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو العباس وغيـرهم. وجاءت إلى مصر إعداد كبيرة منهم مع الفتح العربى لها.

والمعروف إن معظم ولاة مصر من قريش. سكن كثير منهم الصعيد بجوار عرب جنينه. وفى نهاية القرن العاشر غادر جماعة من سلالة جعفر بن أبـى طالـب مكـة واستقروا فى مصر بين قوص وأسوان – حيث عرفوا باسم الإشراف الجعافرة.

▪ قيس عيلان:

استقدم عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج فى مصر سنة 737م إعداد وفيرة من قيس عيلان الذين يسكنون نجد ومنح بعض عائلاتهم أرضا حول بلبيس وجمعوا روه طائلة من نقل المتاجر بين البحر وداخل البلاد ولهذا لحق بهم عدد كبير من أقاربهم حتى بلغ عددهم فى عام واحد 1500 أسرة معظمهم من بنى سليم، وهو بطن من قيس عيلان وقد قام هؤلاء بعدة ثورات ولم تقتصر على إقليم الحوف، بل امتد شررها حتى شمل معظم جهات الدلتا (802 – 808م).

▪ فزاره :

ينسب إلى فزاره معظم رعاة الإبل غربى النيل الأبيض وكانوا يمثلون أيام الفتح العربى لمصر شعبة مستقلة عن غطفان. وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى قيس عيلان. كانوا ينزلون حول مكة. ثم هاجرت جماعات منهم إلى مصر فى القرن السابع الميلادى ولحق بهم أقاربهم فى القرن الحادى عشر الميلادى مع بنى هلال.

▪ بنو هلال وبنو سليم :

وهم فرع من قيس عيلان، وتشمل بطونا من هوازن وعكرمة. انفصل بنو هلال عن القبيلة الأصلية في زمن متقدم. وفى بداية القرن كانوا يسكنون مع أقياربهم بنى سليم قرب الطائ. ولما ضعف نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب، أصدر المستنصر بالله سنة 1049م أمرا لبنى هلال بالزحف على بلاد المغرب للقضاء على الروح الانفصالية فيها. وفى سنة 1051م نزح كثير من بنى هلال وبنى سليم وبنى قيس، ومعهم بنو قرة، إلى شمال أفريقيا، وغزوا تونس وطرابلس، وحتى زمن ابن خلدون 1332م – 1405م وكذلك ليو الافريقى 1552م لم نعد نسمع عن بنى هلال شيئا فى بلاد المغرب، وبدأنا نسمع عن وجودهم في الجنوب ولاسيما بعد حمله السلطان قلاون على دنقلا سنة 1287م.

ويذكر ابن خلدون أنهم يسكنون صعيد مصر. ويذكر المقريزى أنهم كثيرون حول أسوان وفى الصحراء الشرقية حتى عيذاب. وهناك من الأدلة ما يثبت إن من بنى هلال من نزح إلى السودان.

▪ ربيعة وبنو كنز :

إن الوطن الاصلى لربيعه فى الحجاز ومرتفعات نجد وتهامة. هاجر كثير من عرب ربيعه إلى بلاد الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى حيث اعتنقوا المسيحية فى القرن السابع الميلادى. وى سنة 854م. بدأت هجرتهم الكبرى إلى مصر ثم اندفعوا جنوبا واستر عدد كبير منهم حول أسوان وشمال النوبة، وانضموا إلى جهينة فى حملاتهم ضد البجه. واستقر كثير منهم فى أرض البجه للعمل فى المعادن. كان زعيمهم فى هذا العهد (القرن التاسع الميلادى) إسحاق بن بشر. ثم انتقلت الزعامة إلى يزيد بن إسحاق الذى فضل الإقامة فى أسوان. وبهذا انتقل مركز القبيلة من العلاقى إلى السودان حيث اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسآئهم، فأضحت لهم مصالح مادية فى بلاد النوبة.

ومن هؤلاء بنو كنز وهم من ربيعة. عرفوا بهذا الاسم زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى. ولهؤلاء يرجع الفضل فى تعريب بلاد النوبة الشمالية تعريبا جزئيا. ولعبوا دورا خطيرا فى إسقاط مملكة النوبة المسيحية (مقرة) ثم اندمجوا اندماجا تاما فى النوبيين. وهم الذين يعرفون فى الوقت الحاضر باسم الكنوز، ويمتد وطنهم من أسوان إلى كرسكو.

ملحق رقم (2)

شراء العرب أراضى بالنوبة

- منقول عن المسعودى مروج الذهب، نشر دى مينار ودى كورتل باريس (1866-1877م) جزء 3، ص 42-43:

ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثرة داخلة فى ارض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة. ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس. وقد كان ملك النوبة استعدى إلى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه إن أناسا من مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم لمن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيده ولا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من الشيوخ أهل العلم وعلم من ابتاع هذه الضياع أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بان تقدموا إلى من ابتيع منهم من النوبة، أنهم إذا حضروا إلى حضرة الحاكم إلا يقروا لملكهم بالعبودية، وان يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك المخالفة فان كنتم انتم عبيد لملككم وأموالكم له فنحن كذلك. فلما جمع بينهم الحاكم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام أو نحو مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت. وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك فى نوعين، نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد والنوع الأخر مناهل مملكته عبيد وهم من سكن بالنوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان وهى بلاد مريس.

ملحق رقم (3)

التجاء فلول الأمويين إلى بلاد النوبة وبلاد البجه

- عن المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف نشر دى خويه، لندن، 1897، ص 329-330 .

لما قتل مزوان بن محمد بن مروان، تفرقت بنو أمية في البلاد هربا بأنفسهم وقد كان عبد الله ين على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، قتل منهم على نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين نحوا من ثمانين رجلا مثله، واحتذى أخوه داود بن على بالحجاز فعله فقتل منهم نحوا من هذه العدة بأنواع المثل. وكان مبع مروان حين قتل أبناءه عبد الله وعبيد الله وكانا ولى عهده، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصيهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى اميه، فساروا إلى أسوان من صعيد مصر، وساروا على شاطئ النيل إلى إن دخلوا ارض النوبة وغيرهم من الأحباش، ثم توسطوا ارض البجه ميممين باضع من ساحل بحر القلزم فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغادرات، ونالهم جهد شديد وصبر عظيم، فهلك عبيد الله بن مروان فى عده من كان معهم قتلا وعطشا وضرا. وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب. ووقع عبد الله بن مروان فى عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجه وقطع البحر إلى جده من ساحل مكة، وتنقل يمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد متسترين راضين إن يعيشوا سوقه بعد إن كانوا ملوكا، فظفر بعبد الله أيام أبى العباس السفاح. أودع السجن، فلم يزل فيه بقية أيام أبى العباس وأيام المنصور والمهدى والهادى، فاخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير فساله عن خبرة فقال يا أمير المؤمنين حبست غلاما بصيرا وأخرجت شيخا ضريرا.

ملحق رقم (4)

نسب أولاد جابر كما أوردة الشيخ احمد عبد الرحيم الفكى فى مخطوطة (مشرق الثقافة الإسلامية)

غلام الله الركابى هو السيد احمد غلام الله بن السيد عائد أبو الفتح بن السيد المقبول بن السيد احمد بن السيد عمر الفريغلى بن السيد محمد التقى بن السيد على التقى بن السيد زامل بن السيد مؤسس الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن السيد الحسين السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ملحق رقم (5)

نص الإجازة التى منحها الشيخ عبد الرحمن بن جابر لتلميذه إبراهيم ولد أم رابعة[2]

قال الشيخ بن جابر فى اجازته لتلميذة الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين إما بعد إن الأخ الفقيه الشيخ المحترم المتأدب المتواضع إبراهيم بن أم أربعة استحق السيادة والإمامة عندى.

فجعلته قطبا فى مكانة ولسانا فى عصره وترجمانا فى أوانه ومربيا للمريدين وقدوة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين مظهر شمس المعارف بعد غروبها فأذنته فى كل ما حققه وسمعة منى إن يغشيه ويعلمه الناس وقد أذنت له بإشهارها وإشهار ما يشاء وتشييع ما اشرنا إليه ومن اطلع على ما فيها أو بلغة شئ من ذلك فليحذر كل الحذر من خراب الباطن وقد أشار الشيخ بن جابر لتاريخ كتابة هذه الإجازة (بتاريخ اثنين وثمانين وتسعمائة من الهجرة النبوية) كما أشار أيضا إلى نسبة بقوله وكتبه (اى الإجازة) الفقير بن جابر الجهنى فى العرب نسبا وبلغنى انه ثبت نسبا من ذرية السايح أحمد بن عمر وهو من ذرية عقيل ابن أبى طالب ولكن الأول هو المتواتر من أبنائنا فسبحان الله العالم الموفق للصواب.

---

[2] أمحمد النور بن ضيف الله، الطبقات، ص104.

ملحق رقم (6)

البضائع المصدرة من سنار إلى مصر عام 1795م [3]

السلعة	مقدارها	الوحدة
العبيد	1.620.000	بالرأس
الجمال	3.805.600	بالرأس
الصمغ	3.942	بالقنطار
العاج	4.599.000	بالقنطار
قرب الماء	126.000	بالزوج
الجلود	379.600	بالواحد
الأسواط	100.000	بالواحد

السلع الواردة إلى سنار من مصر

السلعة	مقدارها	الوحدة
- المنسوجات :		
قطن	240.000	بالقطعة
القطن الأحمر	43.200	بالقطعة
سلك	148.500	بالقطعة
ملابس صوف جاهزة	148.500	بالقطعة
- المعادن:		
فخار	48.675	بالقطعة
مرايات	240.000	بالقطعة

(3) terrance waiz: the trade between Egypt and bilad as sudan. 1700-1829, bostan university, 1975p25.

السلع المصدرة من سنار إلى مصر عام 1796م

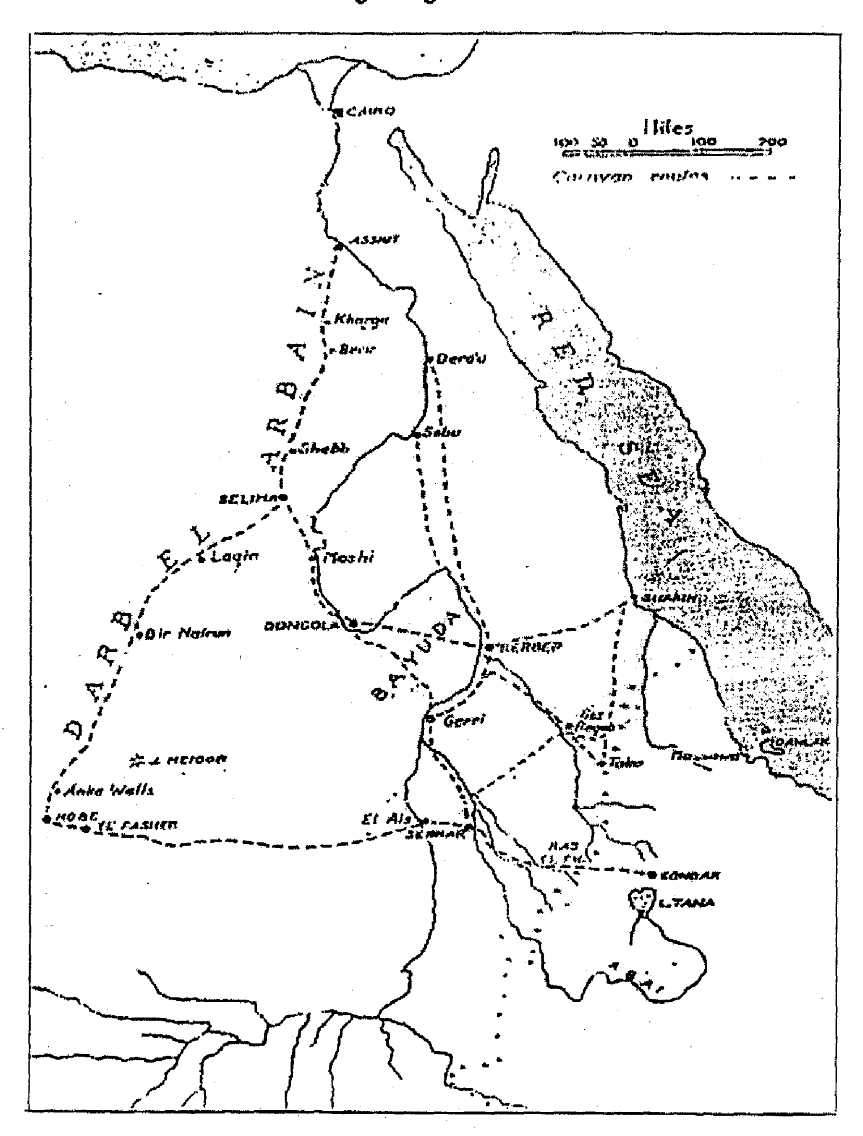
السلعة	مقدارها	الوحدة
العبيد	150-100	بالرأس
سن الفيل	60-45	قنطار زنة 10 رطل
الصمغ	300	قنطار زنة 15 رطل
كرابيج	1500-1000	بالوحدة
قرب من الجلد	100	زوج
تراب الذهب	على شكل حبات وسبائك	لا توجد إحصائية

السلع المصدرة من مصر إلى سنار عام 1796م

السلعة	مقدارها	الوحدة
صابون	500	قنطار زنة 150 رطل
خشب صندل	2	قنطار زنة 150 رطل
مسك	50	
حرير وارد القسطنطينية	200-100	قطعة
حلى زجاجية صنع أوربا	100	قنطار زنة 150 رطل

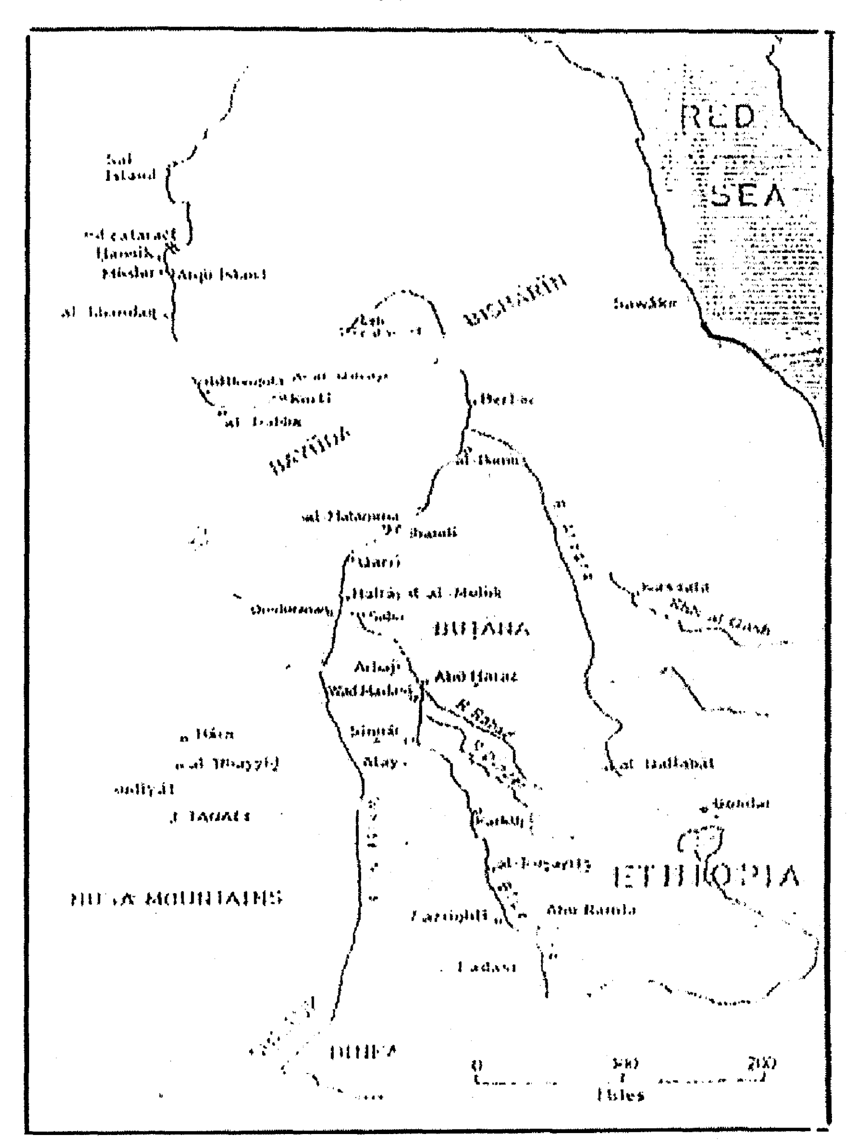
ملحق رقم (7)

The fung Kingdom of Sinnar



Crawford: The Fung Kungdom of Sinnar

ملحق رقم (8)

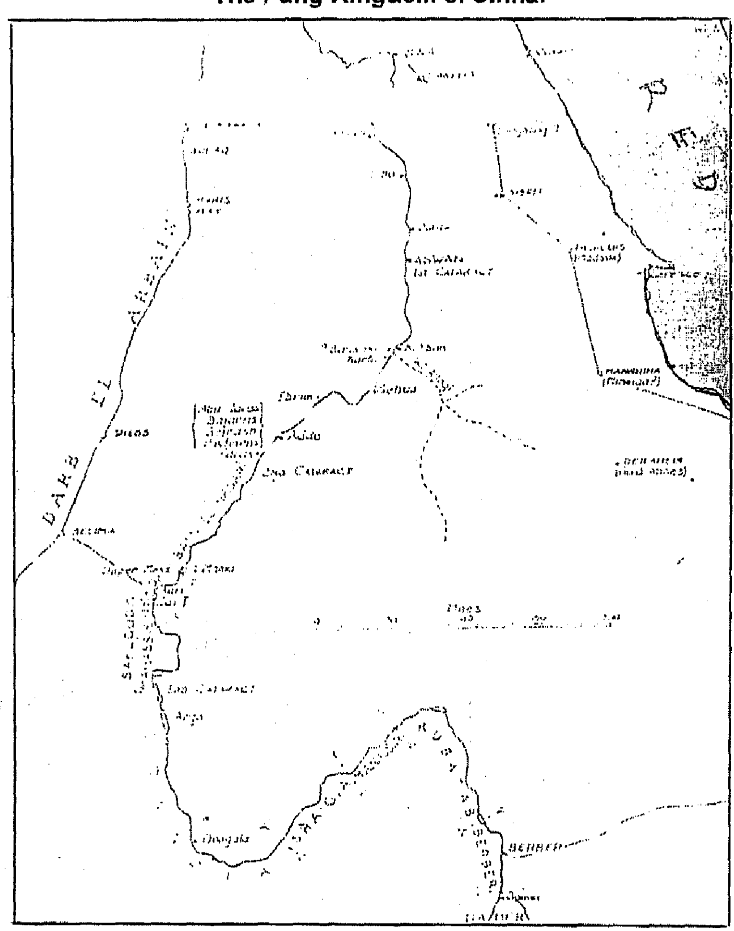


The Kingdom of Sinnar

Of ehay and Spaulding: Kingdoms sudanese

ملحق رقم (9)

The Fung Kingdom of Sinnar



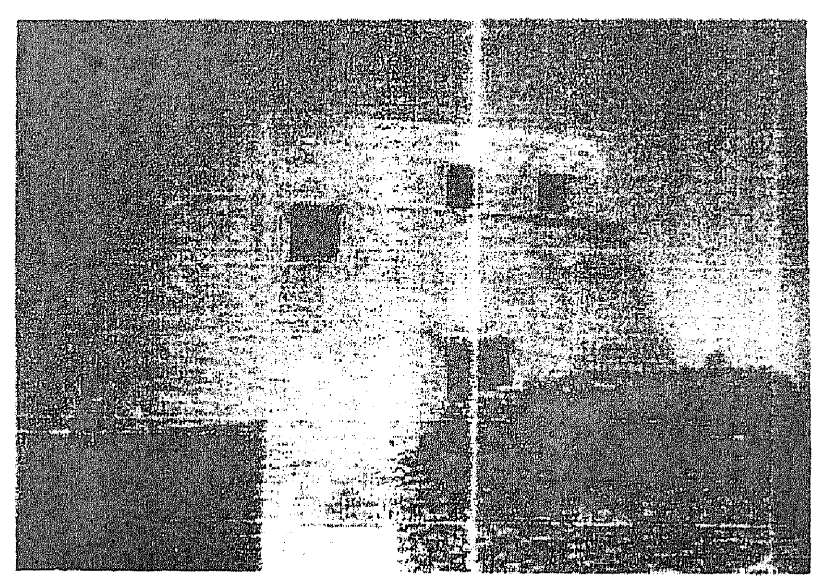
Places and tribes at the medieval nd fang periods:

Quean damper- (the caravan hales on the route are from the 15th century map called Egypt us novella, where logier is called latchet and is script

الضرائب التى تدفعها القاهرة إلى مصر

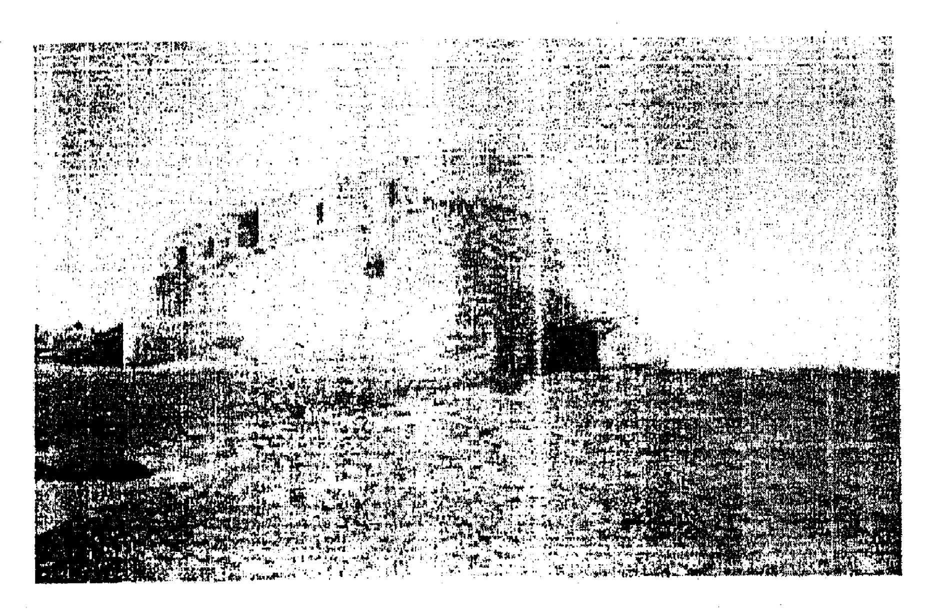
الجهة التى تدفع لها	السلعة المدفوع عنها	القيمـــــة	ملاحظـــــات
عرب العبايدة لكل واحد	–	–	صابون
جمرك سنار	العبيد	4	
	الجمل	2	
	الجمل المحمل بريش النعام	2.5	
جمرك منفلوط	العبد	12	
اليمينا	العبد	12	
بولاق	العبد	12	
فى طريق العودة لعرب البشرية فى سنار			تدفع اثنين قطعة قماش عن كل جمل ويقدم للملك طقم ملابس دليل الولاء

ملحق رقم (10)



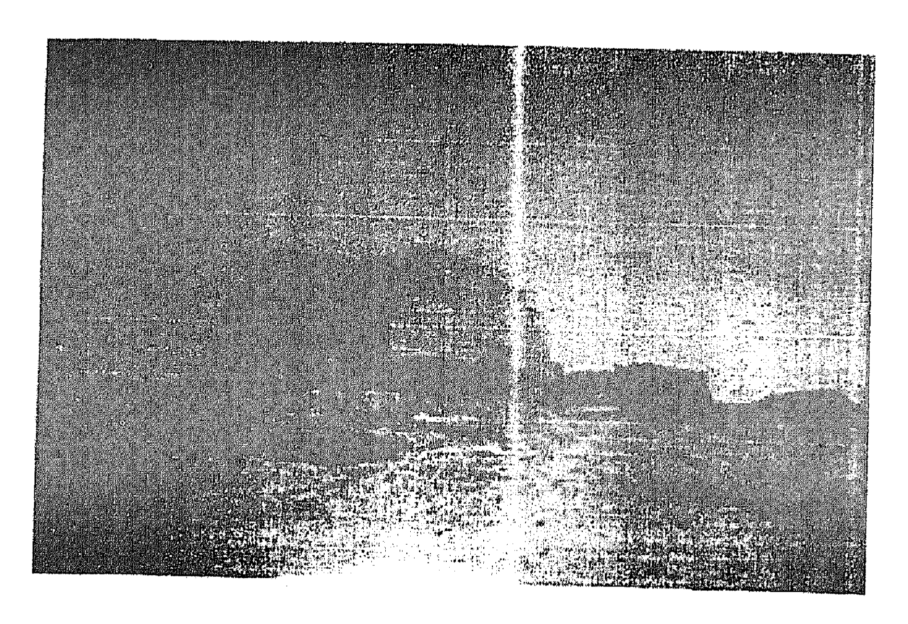
قصر دنقلا الذى تحول الطابق الأعلي منه إلى مسجد

ملحق رقم (11)



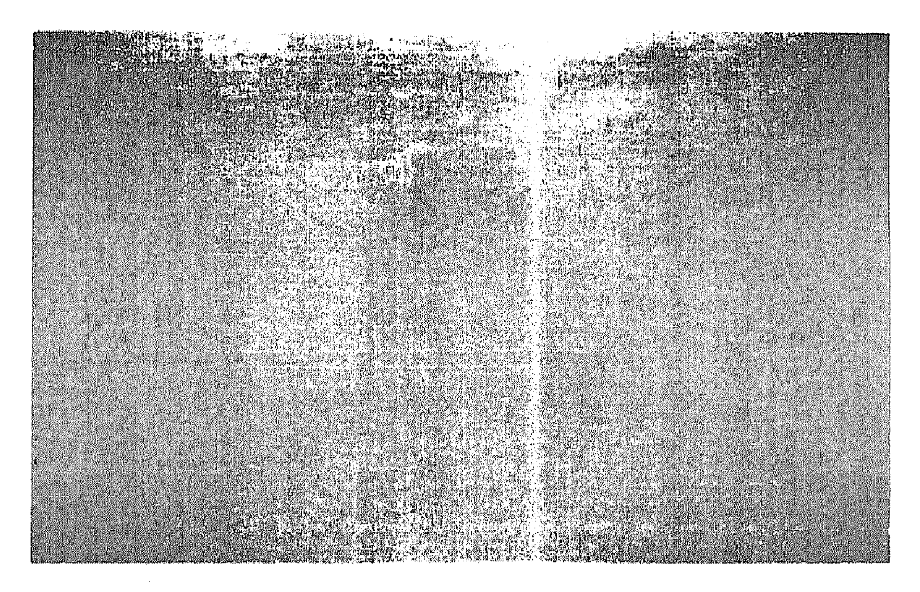
صورة جانبية لقصر الملك في دنقلا الذى تحول طابقه الأعلي إلى مسجد

ملحق رقم (12)



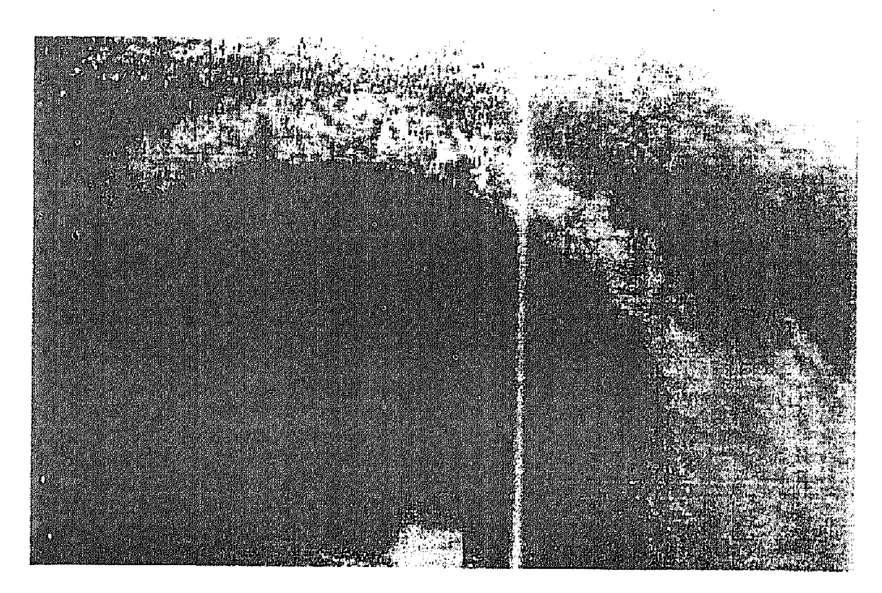
صورة عن بعد لقصر دنقلا

ملحق رقم 14



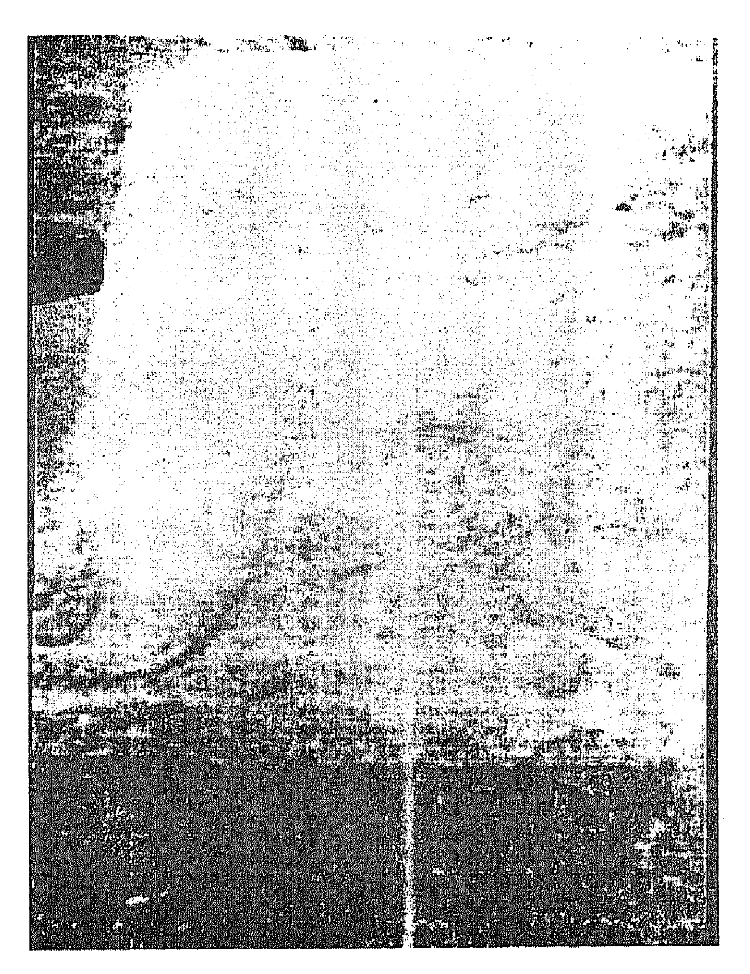
نفق أسفل القصر يقال أنه يؤدي إلى البركل

ملحق رقم (15)



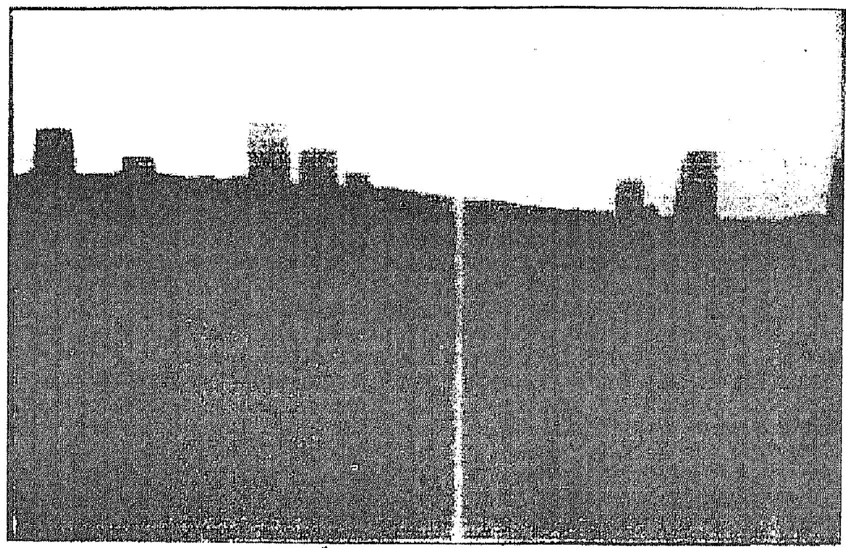
نفق في اسفل القصر يقال أنه يؤدي إلى كريمة

ملحق رقم (16)



رأس عامود الكاتدرائية

ملحق رقم (17)



ما بقي من الكاتدرائية

ملحق رقم (18)



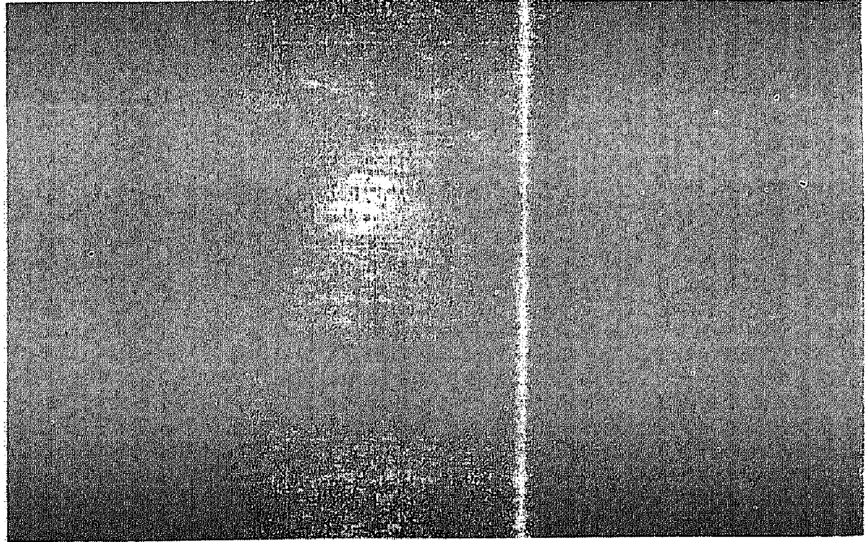
ما بقي من الكاتدرائية التى تقع بالقرب من القصر

ملحق رقم (19)



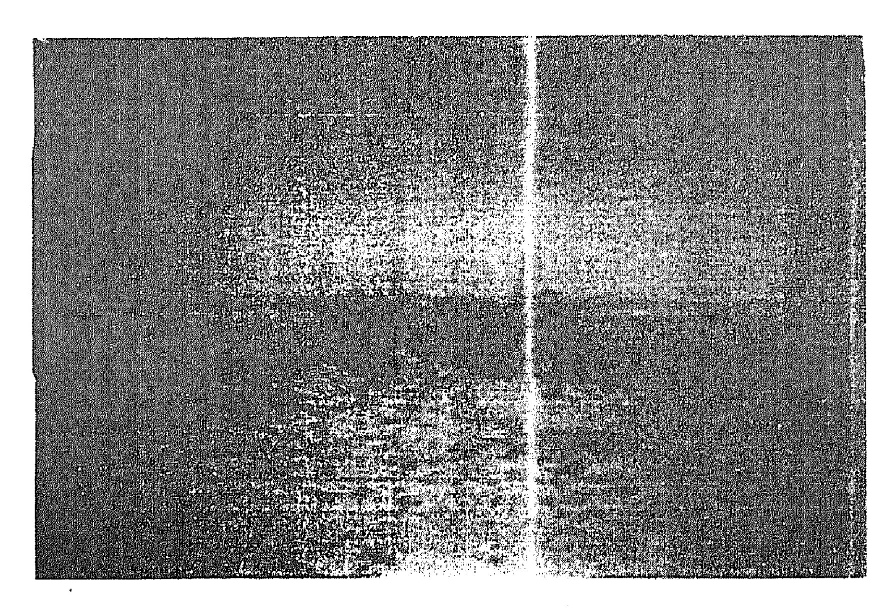
رأس عامود الكاتدرائية واضح فيه نحت الصليب

ملحق رقم (20)



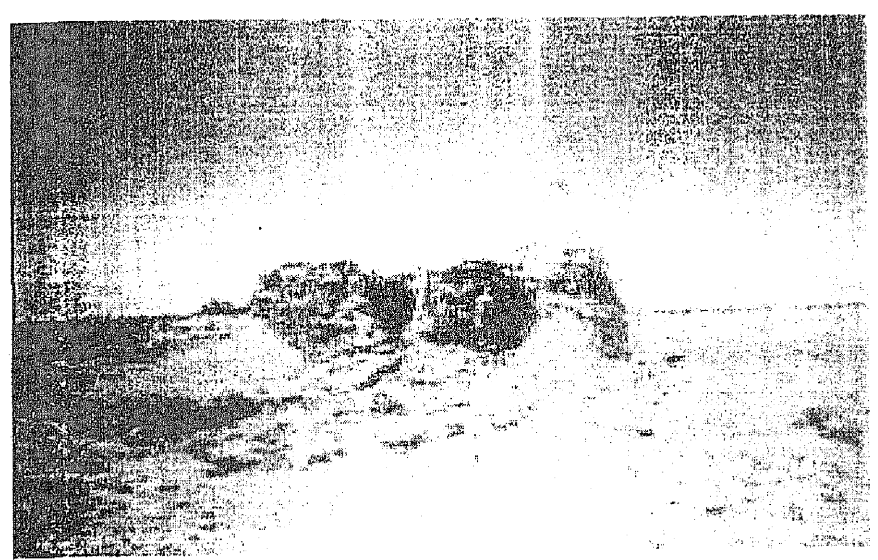
نقش يبين تحويل القصر إلى مسجد

ملحق رقم (21)



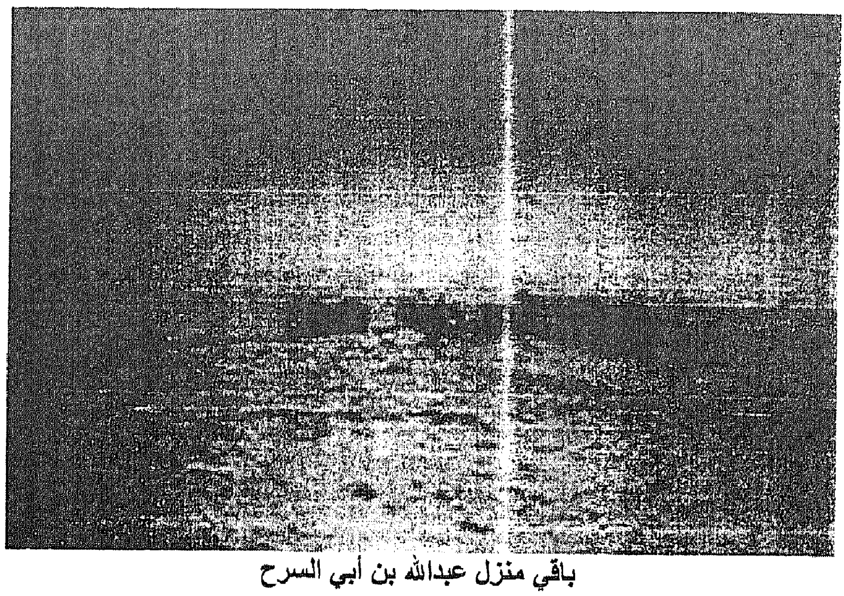
مسجد عبدالله بن أبي السرح

ملحق رقم (22)



صورة جانبية لمسجد عبدالله بن أي السرح

ملحق رقم (23)



باقي منزل عبدالله بن أبي السرح